
نجد
في الأمس القريب

بسم الله الرحمن الرحيم



صور وملامح من أطر الحياة
السائدة قبل ثلاثين عاما

تأليف
عبد الرحمن بن زيد السويداء



لدار العلوم للطباعة والنشر
ص.ب. ١٠٥٠ ــ هاتف ٤٧٧٧١٢١ ــ ٤٧٧١٩٥٢
الرياض ــ المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م

الإهداء

إلى روح من بذلَت الغالي والرخيص في سبيل تعليمي القراءة والكتابة، إنها جدّتي، رحمها الله وأسكنها فسيح جناته، إنه سميع مجيب،

المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمـة

الحمد للّه مقلّب الأمور والأحوال، وصلىّ الله وسلّم على نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين. لما كانت المملكة العربية السعودية قد خطت خطوات سريعة نحو التطوّر والبناء في مختلف مجالات الحياة، تحت قيادة حكومتنا الرشيدة ـ أعزّها الله ـ وذلك بموجب الأسس العلمية الحديثة، وهذه القفزات السريعة تركت آثارها بما أحدثته من فجوة واضحة المعالم بما كانت عليه الحياة قبل عصر من الزمان وما هي عليه الآن، وبالأخص في البقعة مدار البحث «نجد» ومع هذا التغيير في معالم الحياة ستختفي ملامح مشرقة من وجه حياة مجتمعنا، تلك الملامح العريقة التي امتدّت منذ القدم إلى ما قبل ثلاثين عاماً، وتحلّ محلّها ملامح أخرى أكثر منها لمعاناً، ولكنها أقل جاذبية وأدنى أصالة، ولم يبق من معالم الحياة السابقة سوى الصورة والصدى الباهتين اللذين يعتلجان في خبايا النفوس، تغلّفهما أحياناً المرارة الشفّافة لفقدهما، وأحياناً أخرى تفجّرهما الذكريات المنعشة، وفي بحر هذا التغيير يخشى البعض من اتّساع هذه الهوّة في فترة قصيرة زمنياً بين جيلين متتابعين وينطمر في قعرها الصورة المشعّة والأصالة العريقة، وبذلك تفقد السلسلة حلقة من حلقاتها المتماسكة مما يحدث لها بتراً حتمياً، ولهذه الحالة آثارها السيّئة بالطبع، ولا شك أن الجيل الذي عاصر هذه الحياة بآمالها وآلامها، بحلاوتها ومرارتها، يدركها تماماً بكل خفاياها، لكن الجيل الذي نشأ بعد ذلك لا يعرف عنها سوى ما يسمعه من آبائه وأجداده في بعض الأحيان فلا يصدّقه، ويظنّه من ضمن القصص الخيالية، هذا الجيل الذي تسلّم

ويتسلّم الآن خدمة هذا الوطن وأعباء مسؤولياته يجب أن يكون على علم بما كان عليه آباؤه وأجداده وما نعموا به وما قاسوه في حياتهم اليومية، حتى تكون لديه خلفية صلبة يمكن أن يستند إليها فيغضّ النظر عن مساوئها ويستعين بمحاسنها ويطوّرها بما يتناسب والمفهوم الجديد، وربّ قائل يقول: أن هذه الحيثيات والمفاهيم تافهة ومعروفة تماماً لدى الغالبية العظمى من الناس ولا جدوى من تسجيلها، وربما كان كلامه صحيحاً بالنسبة لأولئك الأجيال الذين عاشوا هذه الفترة ولكن لتكن لهم على سبيل الذكرى والمقارنة بما كانوا عليه بالأمس وما هم عليه اليوم ليذكروا نعمة الله عليهم، ولعلّ قائلاً آخر يرى أن هذه الأمور ماض منته ولا فائدة من العودة إليه أو التذكير به، وتكمن الإجابة بأن هذه الصورة هي التي نشأ في ظلّها الآباء والأجداد ونعموا في صفائها ونقاوتها أجيالاً وأجيالاً، وقاسوا شظف العيش في إطارها بعض الأحيان، وهي أصل حياتنا الحاضرة، ومن ليس له أصل فلا فرع له، وهي في ذات الوقت نوع من التراث الشعبي الذي لا يخلو من فائدة، لا سيما وأن المرء إذا استعرض الكتب التي دوّنت عن مجتمعات العرب والمسلمين في الماضي لا يجد فيها التفاصيل المطلوبة عن حياتهم اليومية والتي تهم القارىء بصفة عامة، ولا يستغني عنها الباحث بصفة خاصة، وما دفعني للكتابة عن هذا الموضوع هو سؤال من إبني عن نوع جهاز التلفاز الذي كنا نشاهده عندما كنا صغاراً هل هو من النوع الملوّن أو العادي؟ فعند ذلك عزمت على تدوين المعلومات التي أعرفها عن تلك الفترة، ليعرف من خفي عليه شيء منها، وليدرك الفرق والتبيان بين ما كانت عليه نجد قبل ثلاثين عاماً وما هي عليه اليوم، ذلك الفرق الشاسع خلال عصر من الزمان واضعاً نصب عيني عدة أمور تتلخّص في فصول هذا الكتاب منها:

١ ـ العوامل المؤثّرة في تلك البيئة سواء أكانت عوامل جغرافية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية، مع تأثير المواصلات في ذلك الوقت إضافة إلى تأثير الاعتبارات السائدة والمفاهيم المتعارف عليها يومئذ، والسلطة المشرفة على تلك البقعة، وما يكتنفها من مدّ وجزر وقوة وضعف.

٢ ـ النشاط اليومي للسكان، حيث ينهض الناس من نومهم مبكّرين لأداء

واجباتهم الدينية، والقيام بأعمالهم اليومية بكل جدّ ونشاط وحيوية منذ الصباح الباكر امتثالاً للحديث الشريف «بورك لأمتي في بكورها» وما يقوم به أفراد المجتمع الرجل والمرأة جنباً إلى جنب، كلّ يقوم بعمله على الوجه المطلوب حسب قدرته وبأقصى طاقته.

٣ ــ يتجسّد النشاط السكاني في الحقول التي تحويها هذه البيئة، فالحقل الزراعي الــذي يمــثــل المركز الأول، يبدأ نشاطـه بالبحث عن أمـاكن تواجـد المياه الجـوفية واستنباطها من أعماق الأرض، ثم غرس بساتين النخيل وما يتـعـلق بـهـا من خدمات، وأنواعها ومنتجاتها، يأتي بعد ذلك، موسم الزرع في فصلي الشتاء والصيف وما يتطلّب من خدمات.

٤ ــ أهم المنتجات الزراعية، من تمور بأنواعها، وحبوب بأصنافها لموسمي الشتاء والصيف، ومدى كفايتها للسوق المحلية وما يصادفها أحياناً من المعوقات كالكوارث الطبيعية وغيرها.

٥ ــ في الحقل الرعوي الذي يمثّل المرتبة الثانية من النشاط السكاني ويبدأ منذ أن يلوح برق سحائب «الوسم» وتتّجه المجموعـات الرعوية بمواشيها من أماكن إقامتها في فصل الصيف لتنتجع المَواطِن التي هطلت عليها الأمطار فتنصب مضاربها في وسطها، وتنعم مواشيها برعى الكلأ الذي اكتست به الأرض وتبدأ تلك المواشي بإظهار مردود تلك النعمة وذلك بإغداق الألبان ومشتقّاتها، التي تمثّل ثروة موسمية مناسبة، وما يقدّمه السكان من خدمات لتلك المواشي أثناء تمتّعها بمراعي مروج نجد الخضراء المزهرة التي تغنىّ بها الشعراء وأكثروا.

٦ ــ عمل المرأة التي تشاطر الرجل عمله في أي حقل من حقول النشاط السكاني، ذلك العضو الفعّال، والعامل الدؤوب الذي لا يملّ من العمل حسب اختصاصه، وقد أكسب العمل المرأة القوة والنشاط والصلابة، بالإضافة إلى الرشاقة والصحة والشباب المتجدّد، وذلك قبل أن تركن إلى

النوم وتكل كل شيء إلى الخادمات حتى تربية أبنائها، مما جعلها عرضة للإصابة بأمراض العصر، كالبدانة والترهّل والأمراض النفسية الناتجة عن الفراغ الثقيل.

٧ ـ أما التجارة فقد اقتصرت على السوق المحلية بالإضافة إلى البلدان المجاورة وذلك لتسويق المنتجات الزراعية والحيوانية، ومع بساطة حجمها نسبياً إلا أنها كانت كافية لخدمة هذا المجتمع في كثير من الأحيان، وتحتاج إلى الدعم في أحيان أخرى لكن العامل المهم فيها يتجسّد في الصدق والأمانة والقناعة في الربح البسيط المعقول في أغلب الأحيان إلا ما ندر.

٨ ـ يعجّ هذا المجتمع بمختلف أنواع المهن الفنية وغير الفنية لا كما يعتقد البعض، وإن كانت هذه المهن مقتصرة على صنع الضروريات وبعض الكماليات نظراً لما يعترضها من مفاهيم خاطئة غذّاها ونّماها مَن لا يريدون للعرب تقدّماً ولا بروزاً في هذا المجال، تحت ظل الجهل عن أبعاد وتأثير هذه المفاهيم، وقد صنعوا في هذه البقعة ما يقوم بأودهم وجعلهم يكتفون ذاتياً داخل مجتمعهم وهذه خطوة طيّبة لا يستهان بها، وقد أدّى أصحاب هذه المهن خدمة جليّ لمجتمعهم وبرز كثير منهم كلّ في مجال اختصاصه، وأُثروا من حصيلة عملهم وشغلوا مراكز مرموقة في بيئتهم لا تقلّ عما يحتلّه غيرهم.

٩ ـ قام أفراد هذا المجتمع بمهمة وزارة الدفاع بالدفاع عن وطنهم والذود عن حياضه، والمحافظة على كامل رقعته بما يؤدّونه للسلطة الحاكمة من دعم بشري ومادي لا حدود له بالكمية والوقت اللازمين وبذلوا الغالي والرخيص في سبيل خدمة السلطة الحاكمة، كما قاموا بمهمة وزارة التموين في إمداد الجيوش بالمواد الغذائية وجميع مستلزمات المحاربين.

١٠ ـ تجسّد رسوخ الدين الإسلامي فيهم بما يؤدّونه من صلوات جماعية في وقتها وما يقومون به من شعائر دينية، يدفعهم إيمانهم القوي بالله الواحد

الأحد، وتحدوهم الرغبة الصادقة في الفوز برضاء خالقهم العظيم، يساعدهم نقاء النيّة، وصفاء الطويّة، لا يخشون من الله لومة لائم، لا يخافون من أحد أن يعاتبهم على ما فعلوا، أو يراقبهم على ما تركوا سوى الله القوي العزيز. ومن هذا المنطلق فإن هذا الجانب لا شائبة فيه.

١١ ـ تتمثّل أصالة العربي المسلم في هذا المجتمع بالكرم والشجاعة والمروءة والشهامة والنخوة والوفاء وحق الجار والبساطة وتمتزج هذه الخصال وتنصهر في بوتقة واحدة لتكون الجانب القوي في بنيان هذا المجتمع المتكامل في كثير من الخلال.

١٢ ـ برغم ما يعانيه المجتمع من كابوس الجهل إلا أنه لم يقف مكتوف اليدين عملاً بالمثل القائل «شمعة بسيطة خير من الجلوس في الظلام» ومن هنا فقد ساهم في إيجاد مدارس الكتاتيب، وحلقات الذكر لإنارة عقول الناس وإيجاد نواة للنهضة التعلّمية الحديثة التي تعمّ البلاد حالياً، لذا نجد أن بعض مَن هم في قمم المناصب الآن قد درسوا في مدارس الكتاتيب المشار إليها.

١٣ ـ وقد طرقوا باب الأدب لكنهم لم يدخلوا سوى من «خوخة» الباب خاصة في اللغة العربية الفصحى، لما يعتّم ذلك من ظلال كابوس الجهل البغيض، أما اللهجة الشعبية فلهم فيها شوط جيد في مجال الشعر والقصة الشفهية.

١٤ ـ أما الفنون الشعبية فلهم فيها خطوة ممتازة خاصة في اللهجة الشعبية وذلك من خلال ممارسة أفراد هذا المجتمع لمختلف أنواع الغناء، كالعرضة النجدية، والسامري، والربابة، وغير ذلك مما هو مفصّل في موقعه، والذي يحتاج إلى بعض التطوير المبني على الأصالة، حتى يصبح من التراث الشعبي الذي يجب أن نحافظ عليه، ونفتخر به كنوع من

تراث الآباء والأجداد الذين تركوا بصماتهم لنا ضمن الكلمة والصوت والأداء في فنونهم الشعبية.

١٥ ــ أما الحياة الاجتماعية فهي حلقات متشابكة متماسكة قوامها التعاون والألفة والمحبة، وتتمثّل في العادات والتقاليد، ومناسبات الأعياد والأفراح وحلقات السمر وهي ولا شك تلفّ أفراد المجتمع بغلالة رقيقة شفّافة متينة يرتبط الناس بداخلها بهذه الخيوط الرفيعة.

١٦ ــ ولا يخلو جو هذا المجتمع من رائحة ونكهة وطعم المأكولات الشعبية وهي من المنتجات المحلية، وتعمل حسبما تتطلّبه الحاجة ووفقاً للذوق المحلي، وتشمل حوالي عشرين وجبة من مختلف أصناف المواد الغذائية وهي وجبات شهيّة ومحبّبة، ولها شعبية كبيرة بين السكان لا يزال بعضها محبوباً ورائجاً حتى الوقت الحاضر.

١٧ ــ كما أن للمشروبات الشعبية وعلى رأسها القهوة العربية التي تغنىّ بها الشعراء ودوى صيتها في مختلف الأرجاء، وتسابق الناس في تقديمها لضيوفهم واعتبروها بوّابة الكرم العربي، حيث تقدّم للضيف بعد كلمات الترحيب مباشرة وقبل القِرَى.

١٨ ــ ولقد مارس السكان هواية الصيد، وهي الهواية العربية العريقة على مختلف أشكاله ومستوياته كنوع من الهواية، وفي نفس الوقت استفادت منه فئة كمادة غذائية، وقد استخدموا مختلف الأسلحة المحلية البدائية التقليدية، والمتطوّرة النارية مع الاستعانة بالصقور المدربة على مختلف مستوياتها مع كلاب الصيد على اختلاف أنواعها.

١٩ ــ وفي وسط هذا الجو المفعم بالنشاط فقد مارس السكان ما يزيد على خمسة وعشرين نوعاً من أنواع الرياضة البدنية بخلاف ما يعتقد البعض أن هذا المجتمع خامل لا حراك فيه، وما علم من يعتقد ذلك أن معظم الألعاب التي نشاهدها الآن قد طُوّرت مما هو موجود أصلاً في مجتمعنا، فهناك

الألعاب التي يمارسها الذكور والإناث، وقد تحتاج إلى تطوير في الوقت الحاضر لتأخذ دورها ضمن الألعاب العالمية محتفظة بالطابع العربي الأصيل.

٢٠ ـ ولا تفوتني الإشارة إلى الناحية الصحّية ومدى العناية بالنظافة، ومكافحة الأمراض السائدة والوافدة، والتداوي بمختلف الوسائل كالأعشاب والمركّبات الكيمائية وغيرها مع أخذ الاحتياطات اللازمة لمنع انتشار الأمراض المعدية من شخص لآخر.

٢١ ـ كما قد صنعوا بأنفسهم الأدوات المنزلية اللازمة لهم والتي تفي باحتياجاتهم حسبما تمليه عليهم العادات والأعراف وما تفرضه عليهم ظروف البيئة المحلية من متطلّبات.

٢٢ ـ كما اختاروا لأنفسهم الملابس الملائمة للرجال والنساء، وتفنّنوا في صنع تلك الملابس من تصميم وخياطة وتطريز ونقوش وما إلى ذلك مما يتعلّق بهذه الناحية.

٢٣ ـ كما تفنّنوا بصنع الحلي والمصاغ للمرأة بالذات، حيث تمكّنت المرأة من اقتناء الحلي الثمينة والجميلة جداً، كما نال الرجال نصيباً طيّباً مما يتيتحلّى به كالسيوف والخناجر وغيرها.

٢٤ ـ ولم يغفلوا الأسلحة التي يدافعون بها عن أنفسهم أو يقهرون بها عدوّهم، سواء القديم منها أو الحديث وكانت تمثّل لديهم مركزاً مرموقاً وتحتل الأسلحة في نفوسهم مكانة عظيمة.

٢٥ ـ كما أن لديهم أشياء ثانوية في حدّ ذاتها لكنها ذات قيمة لا يستهان بها، حيث يشغل كل منها نطاقه المميّز، كالوسم الذي يميّز ممتلكات الناس من بهيمة الأنعام، والحمى الذي يمثّل نموذج المراعي الجيّدة، والأسماء السائدة التي تضفي طابعاً مميّزاً لسكان هذه المنطقة، وغير ذلك من الأشياء الأخرى.

٢٦ ــ وعلى اعتبار أن البقعة المشار إليها تغطّي مساحة كبيرة، فلا بد من وجود اختلاف بسيط في بعض المسمّيات التفصيلية لبعض الأشياء غير أن هذا الاختلاف بسيط جداً لا يتعدّى ٢ ٪، بحيث تبقى الغالبية العظمى من هذا المسميات بمفهوم واحد تقريباً كما أن الخطوط العريضة لنمط الحياة موحّدة بصفة عامة.

٢٧ ــ وبما أن اللهجة السائدة هي اللهجة الشعبية، فإن الشعر ينضوي بالطبع تحت هذا الاعتبار، ولهذا السبب اضطررت إلى الاستشهاد بالشعر الشعبي لهذه الفترة، وذلك لعدم تعرّض الشعر العربي الفصيح لكافة شؤون الحياة بشهادة من هم أطول مني باعاً في هذا المجال، لكنني جعلت لكل بيت أوردته في هذا الكتاب من الشعر الشعبي شرحاً لمعاني الكلمات الصعبة الواردة فيه وشرحاً إجمالياً لمعنى البيت، وهذا الشرح موجود في آخر الكتاب ليسهّل على مَن لم يفهم معنى البيت باللهجة النجدية أن يعرفه باللغة العربية الفصحى، ويعلم الله لو وجدت بالشعر العربي الفصيح ما يفي بالغرض ما نحيت هذا المنحى. كما أن الشعر يعتبر المرجع الوحيد الذي أحتفظ بوصف بعض الحوادث والمعالم وأبقي عليها خاصة في الفترة الزمنية التي نحن بصددها.

٢٨ ــ قد يجد القارىء أثناء قراءته بعض الإسهاب في بعض الفصول وأحياناً تكرار بعض الجمل في فصل آخر لكن ذلك ضرورة لا بدّ منها لإعطاء كل فصل حقّه، كما قد يصدم القارىء من رؤية الصورة التي تتّسم بالجدّية، والقوة، والصراحة، التي تغلّف ذلك المجتمع، وهذه بطبيعة الحال تمليها الظروف المعيشية السائدة آنذاك، لكن هذه الصدمة سرعان ما تمتصّها الصورة الصادقة البسيطة المعبّرة التي تنبىء عن طهارة القلوب ولين المعشر، وصدق الكلمة، وصفاء النيّة وكرم الضيافة والارتباط الوثيق الصادق الذي لا مراء فيه بالخالق العظيم، مع حب الإيثار على النفس، والشجاعة والمروءة والبساطة في كل شيء.

٢٩ ـ قد يوافقني جلّ القرّاء إن لم يكونوا كلهم في أن خير من يكتب عن موضوع معينّ هو ابن البيئة التي يُكتب عنها، وذلك لقوة التصاقه بهذه البيئة ومعرفته ببعض الدقائق التي تخفى على غيره، وليعزف بنفسه النغمة التي قد تلامس شغاف قلوب سامعيه، وتجتذب انتباه الآخرين نحوه، وقد وضعت شمعة بسيطة على مدخل هذا الباب الذي آمل أن ينبري للولوج فيه نخبة من الباحثين المدقّقين الذين يظهرون تراث أمّتنا القيّم على الوجه المطلوب، في تلك الفترة التي أغمضت عليها عين النسيان، وليبرزوا هذا التراث بأسلوب يلائم حياة العصر مع الاحتفاظ بطابع الأصالة وعمق الجذور.

٣٠ ـ حيث تفتخر معظم الشعوب بتراثها الحضاري بكافة أشكاله ومختلف ضروبه، وتبرزه بشكل واضح جلّي تحترمه وتحافظ عليه وفي نفس الوقت تستمر ببناء صرحها الحاضر مقتبسة من ماضيها محاسنه، سالكة أسلم الطرق المؤدّية إلى حياة أفضل غير مفرطة بتراثها، ونحن كعرب مسلمين يجب أن نكون في مقدّمة هذه الشعوب ونولي تراثنا كل عناية واهتمام.

٣١ ـ أما حبي لهذه البقعة فكان من الدوافع التي شجّعتني على طرق هذا الباب، حيث نظّمت ذلك شعراً قبل عدة أعوام بقصيدة حاولت فيها ترجمة المشاعر التي أكنهّا لها، والقصيدة مطلعها هذا المقطع:

نجد التي من صميم القلب أهواها
قلب الجزيرة نبض في خلاياها

قد غازل البعض شيئاً من شمائلها
كابن الملوح غنىّ في مزاياها

عليلها حين يسرى من حبيبته
بما ينافحه من نشر رياها

وقـد نسي ذكـر أشيـــاء شُغفت بهـا
حتى سرت في دمائي في خباياها
(المؤلّف)

وبقية الأشياء المشار إليها بالقصيدة.

٣٢ ـ لقد عاش العرب في هذا الجزء بكل حيوية ونشاط ونعموا برغد من العيش أوقاتاً كثيرة، وقاسوا من الحاجة والعوز لسعات مؤلمة، لكنهم رغم ذلك صمدوا وثبتوا وحافظوا على دينهم ومُثُلهم العليا، وعاداتهم وتقاليدهم، يقتاتون الطوى، وتخنقهم الحاجة في كل شيء ولا يفرط الفرد منهم ذكراً كان أم أنثى بذرة واحدة مما يحسّ في أمور دينه أو وطنه أو مثله العليا، والقرائن في هذا المجال كثيرة تزخر بها قصصهم الواقعية التي تنمّ عن مواقف مشرّفة وقفها أناس شديدو المراس.

٣٣ ـ ولا أدّعي أنني غطّيت كافة الجوانب المشرقة، أو خلافها، لكني ساهمت بقدر استطاعتي، ولا يلام مَن أدّى ما استطاع، وعسى أن يبرز مَن هو أقدر مني على الإتيان بتفاصيل أدقّ، وصورة مشرقة أكثر وضوحاً، ليبرز جزءاً مغموراً من صور مجتمعنا، في فترة زمنية مهمة لإظهارها جليّة إلى حيّز الوجود، ويسرني أن أتلقى التصويبات من ذوي المعرفة لتلافيها في الطبعة القادمة، وأرحّب بالنقد البناء كما لا يفوتني شكر من ساعدني ببعض الصور وبعض المعلومات التفصيلية، وسوف أجمع ما يصلح منها للطبعة القادمة. والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الرياض: ١٠/١٠/١٤٠٠هـ
٢١/٨/١٩٨٠م

(المؤلّف)
عبد الرحمن بن زيد السُّويداء

الفصل الأول

العوامل المؤثّرة

□ البيئة الجغرافية:

لا بدّ من إدراك المرء لما هي عليه الجزيرة العربية من وضع جغرافي متميّز، وعلى الأخص قلب هذه الجزيرة، المسمّاة هضبة نجد وما جاورها، إذ أن المناخ السائد فيها هو المناخ الصحراوي، بما له من إيجابيات وسلبيات تتحكّم في النشاط السكاني داخل هذه المنطقة، ولو أن المناخ بصفة عامة في الفترة التي سيجري البحث فيها ألطف بكثير مما هو عليه الآن، حيث يتوالى هطول الأمطار لسنوات متتالية، وإذا حدث أن أصاب الأرض جدباً فإن ذلك لا يطول لأكثر من سنة أو سنتين إلا ما ندر، خلافاً للوقت الحاضر الذي تتوالى سنوات الجدب فيه بالأربع والخمس سنوات، وعليه، فإن المناخ الصحراوي المشار إليه يتحكّم في النشاط السكاني ويصبغ حياة الناس بطابع مميّز له من الإيجابيات ما يفوق سلبياته، كالصبر وشدة التحمّل، والكرم، والشجاعة، والوفـاء، والمروءة، والإيثار على النفس، والبساطة في كل شيء، والتعاون. إلى جانب سلبياته المتمثّلة في الحاجة، والشح في الرزق، التي تضطرّ بعض ضعاف النفوس أحياناً إلى السلب والنهب، وهنا يدور قطب المشاكل التي يعاني منها المجتمع، والتي يتعذّر على السلطة أحياناً السيطرة عليها، بل إننا نجد السلطة المشرفة نفسها والمتمثّلة في شيخ القبيلة أو أمير المقاطعة تحت طائلة العوز والحاجة تلجأ إلى فرض أتاوة على من تحت يدها بالإضافة إلى الـزكاة التي يفـرضها الـدين الإسلامي، وذلك لتأمين احتياجاتها الضرورية، لهذا ترى أن هطول الأمطار

وستر الله يجنّبان المنطقة شرور الكوارث الطارئة، مثل موجة البرد القارس، أو عواصف رعدية ممطرة، أو عواصف رملية حارقة، أو موجة الجراد الصحراوي، هي المرتكز الرئيسي الذي تقوم عليه هذه البيئة، ويرتفع مقياس حيوية السكان ونشاطهم، إلى أعلى درجة، أو ينزل إلى ما تحت الصفر.

كما أن لموقعها الجغرافي البعيد نوعاً ما عن البحار، ما جعل سبل الرزق فيها متوقّفاً على الزراعة والرعى، والمهن المساندة لها بدرجة رئيسية، كما حرمها من كثير من الإيجابيات كتلطيف درجة الحرارة في فصل الصيف، وإمدادها بالسلع التموينية، لكن هذه البيئة تمتاز بتربة خصبة جداً من الناحية الرعوية، إذ تنبت أصنافاً متعدّدة وممتازة من الأعشاب، إذا ما أنزل الله عليها الأمطار ولبست الأرض سندسها وأزينت، فإنها تنسي أهلها كل ما صادفهم من مصاعب ومتاعب، وقد عبّر أحد أبنائها عن هذه الحالة أصدق تعبير بالبيتين التاليين:

١ ــ نجد يعزى عن غثاها عذاها
لو هي مقر ابليس في بعض الأذكار[1]

٢ ــ نركض ومن صاد الجرادة شواها
وللنار من عقب من المال دينار

(مهدي الهبداني/ رشيد العلي)

وبيئة كهذه تتّصف بهذه الصفات لا يعبر إليها إلا أهلها، لذا نجدها لهذه الأسباب وغيرها خالية من العناصر الأجنبية إلا ما ندر، وذلك لعدم وجود المغريات وعلى العكس نجدها تصدّر المجموعات البشرية إلى الأراضي المجاورة لها في العراق والشام التي تجلب الغرباء إليها، ولبعدها نوعاً ما عن البحار التي قد يتسرّب منها بعض العناصر المتطفّلة. وإذا أمعنّا النظر فإننا نجدها منطقة قارية مصغّرة وعلينا أن ندرك هذه الصفة جيداً عند تعمّقنا في هذه البيئة.

---

(١) أبطال من الصحراء ص ٢١٨.

□ البيئة الاجتماعية:

بإلقاء نظرة سريعة على تركيب البنيان الاجتماعي نجد أن المجتمع في تلك الفترة يتكوّن في غالبيته من المجتمع الرعوي والزراعي، حيث تشكّل القبيلة أو القرية العمود الفقري لهذا المجتمع. ويوجد هناك تماسك قوي العراء في كل من هاتين الوحدتين من البنيان الاجتماعي، فالفرد في القبيلة يمثّلها في الواجهة من خير وشر، وربما حُمِّل فرد من أفراد هذه القبيلة وزر ما ارتكب أحد أبنائها الذين لا تربطهم بهذا الفرد أي صلة أو معرفة، اللهم إلا أنه من هذه القبيلة. وتنطبق هذه الحالة على الأسرة، وربما أحياناً على المدينة أو القرية، غير أن المدينة أو القرية تختلف بعض الشيء، حيث أن سكانها ينتمون إلى مجموعة من القبائل يربطهم تواجدهم بهذا المكان ومصلحتهم المشتركة، وبذلك يكونون أقل شمولية للفرد من وحدة القبيلة فيما يلحق الفرد من تبعات من جرّاء فرد آخر.

وإيضاحاً لما سبق، فإنه ربما ارتكب أحد أفراد هذه القبيلة أو الفخذ من القبيلة أو العائلة خطأً ما بحق شخص من قبيلة أخرى فإن هذا الشخص إن كان حيّاً، أو عصبته إن كان ميتاً يثأرون من الفاعل، وإن لم يتمكّنوا منه فمن أحد أقاربه بالعصبية، فإن لم يكن فأحد أفراد قبيلته أو فخذه أو عائلته بأي وقت وفي أي مكان يتمكّن فيه من الحصول على من يعتبره خصمه، وربما امتدت هذه المطاردة غير المعلنة إلى عدد من السنين.

ومن هذا المنطلق فإننا نجد بعض الأفراد إذا ارتكب جريمة قتل وأيقن أن قبيلته أو عائلته لا تستطيع حمايته من خصمه، فإنه يلوذ بالفرار ويختفي بمكان بعيد عن متناول يد غريمه ويعيش بهذا المكان الجديد متخفّياً وربما غيّر اسمه الحقيقي وجحد اسم عائلته، أو تلقّب بلقب يختاره لنفسه، ولولا خوفه من من معرفة لهجة قبيلته لأخفى اسمها، كل هذه الإجراءات تتمّ من قِبَلِه بكل سهولة ويسر إذا أدركنا أنه لا يحمل هوية أو أية وثائق ثبوتية تدل على اسمه الحقيقي،

فيمكث في هذا المكان إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً بصلح أو غيره، وربما طاب له المقام في المكان الجديد ولا سيما إذا طالت المدة عليه، أما كيف يعيش في هذا المكان فإنه في الغالب يفضّل عدم الظهور ويقتنع باليسير من الأمور، سواء في أسلوب معيشته، أو المهنة التي يزاولها، أو الزوجة التي يقترن بها، وربما أدركته المنيّة فجأة دون أن يُطلع أبناءه على أساس منشئه أو قبيلته ومن أين أتى على اعتبار أنهم صغاراً لا يحتفظون بالأسرار، وبعد أن يقضي ينشأ أبناؤه لا يعرفون عن أصلهم إلا أنهم أبناء فلان، ولذلك نجد بعض الأسر تخضع لهذا الاعتبار، وربما تمرّ سنين قبل أن يتّضح نسَب هذه الأسرة بعد التحرّيات الدقيقة من ذوي المعرفة.

وباعتبار أن النشاط الاجتماعي ينحصر بالزراعة والرعى والتجارة والأعمال المساندة لها، وعلى اعتبار أن الزراعة والتجارة يقوم بها الحضر المقيمون في المدن والقرى على مواقع المياه الجوفية، بينما يقوم بعملية الرعى البدو الرحل الذين ينتقلون من مكان إلى آخر تبعاً لوجود الكلأ الذي تعيش منه مواشيهم ولكل هذين الشقّين عاداته وتقاليده وأعرافه، التي تتكوّن في مجموعها من العادات والتقاليد والأعراف العريقة الضاربة في القدم التي جاء إليها الإسلام وهذّبها وأضاف إليها تشريعاته السمحة الهادفة، نجد تأثير عادات فئة على أخرى واضحة المعالم في كثير من الأحيان، فعادات وتقاليد البادية قد ألقت بظلّها على عادات وتقاليد الحضر وبالعكس، ويتكوّن هذا المجتمع من طبقة واحدة تقريباً هي الطبقة الكادحة والعاملة في الزراعة والمهن والرعى، يشذّ عنها نسبة بسيطة هي طبقة الحكّام والتجّار التي تعيش قريباً من مستوى سابقتها.

وحينما نعود إلى السلطة المشرفة سواء أكانت في القرية أو القبيلة أو إمارة المنطقة نجدها تطبّق التشريعات الإسلامية وأحياناً تستعين في الصالح من العادات والتقاليد والأعراف إذا كان فيه حل للأشكال بدون ضرر لأحد ولا يتعارض مع مبادىء الإسلام، على أن السلطة نجدها في أبسط صورها بدون كتابات أو تدوين للقضايا إلا ما كان منها مهمًا، كأن يتعلّق بملكية أو صلح

في منازعات كبيرة أو ديّات ومـا في مستواهـا، لكن تلك الكلمة أو الجملة الشفهية المبلّغة للفرد أو الجماعة على مسمع من الملأ أو بصفة منفردة من القاضي أو الأمير أو شيخ القبيلة تكون نافذة المفعول مطاعة بدون قيد أو شرط أو تردّد. وبذلك نجد هذا المجتمع رغم بداءته وتكوينه الاجتماعي يعيش متماسكاً سهل القيادة أحياناً، صعب المراس أحياناً أخرى، خصوصاً إذا وجد من يستفزّه نحو هدف معينّ أو نيل من كرامته وعلينا أن نضع في اعتبارنا هذه الصورة حينما نتعمّق في هذا البحث.

□ السلطة المشرفة:

تتمثّل السلطة المشرفة في أمير المقاطعة أو شيخ القبيلة، وإذا كان من الفئة الأولى فإنه في الغالب يرتكز على السلطة المركزية التي يمثّل رأس الهرم فيها. إذ أن الأمير ومَن حوله من المستشارين المعدودين والذين اكتسبوا الخبرة بالممارسة ولديهم إحاطة بالشؤون الداخلية للإمارة وربما تعدّى ذلك إلى معرفتهم بأحوال الإمارات المجاورة وشؤون القبائل المحيطة بهذه المنطقة، ولا يوجد حكومة بمعنى الكلمة كما يدل عليه مسمّاها في الوقت الحاضر، لها وزراء ووزارات ودواوين متخصّصة، لكن الأمير هو كل شيء في إمارته يتولىّ تصريف شؤونها الداخلية والخارجية بإرسال المندوبين الذين يمثّلونه، بعد إعطائهم التعليمات اللازمة لهذا الشأن أو غيره. وأحياناً لا يعرف هذا المندوب مغزى تعليمات الأمير، وما عليه إلا أن يوصلها ويأتي بالرد عليها، وهذا المندوب يسمّى أحياناً «مرسالاً» وله ضمانة كافية على حياته وممتلكاته، ويقال في المثل السائر «المرسال لا يُقطع له رأس»، وغالباً ما يختار الأمير لكل مهمة ما يناسبها من المندوبين ولكل أمير ما يتناسب مع مقامه، ويتولىّ الأمير كما أسلفنا كافة السلطات فهو وزير الدفاع والداخلية والخارجية والزراعة والمالية وهي السلطات الرئيسية بالإضافة إلى ما هو أقل منها، ويقوم بخدمته في وقت السلم مجموعة من الجنود غير النظاميين هم خدم الأمير وهم طوع بنانه، ينفّذون تعليماته بكل دقّة، أما في وقت الحرب فإنه ينضوي تحت لوائه أعداداً كبيرة من أفراد إمارته فيما يقابل في الوقت الحاضر

قوة الاحتياط، وهؤلاء يتطوّعون لخدمة الأمير بدون مقابل إلا ما يجود به عليهم من هبات أو عطايا، وأحياناً تكون هذه الخدمة إجبارية وبدون مقابل حينما يداهم هذه الإمارة خطراً ما من الخارج أو تمرّد من الداخل، وتتكوّن واردات الإمارة من الزكاة على المنتجات الزراعية والمواشي. وما يُفرض على الأفراد من الأتاوة بين الحين والآخر من الحاصلات الزراعية، أو الحيوانات وخاصة الإبل والخيل والأغنام وذلك لتجهيز الغزو، أو الدفاع عن حدود الإمارة، أما مصروفاتها فهي تمثّل مصروفات الأمير الخاصة ومصروفات تجهيز الجيوش أو ما يُدفع للإمارات أو السلطات الأقوى المجاورة دفعاً لشرّها أو رجاء حمايتها. ويكون للإمارة هيبتها وضمانها، ويحمي الأمير من يلوذ به ويطلب حمايته بما يسمّى في الوقت الحاضر اللجوء السياسي، خاصة إذا كان اللاجىء قد أتى من قبيلة أو إمارة أخرى على أن يعيش بهذه الإمارة كأي فرد من مواطنيها، وتمتد الإمارة وتنكمش حسب قوة هذا الأمير أو ضعفه وتبعاً لقوة الإمارات أو القبائل المجاورة، وتمشّياً مع الظروف المؤاتية لهذا الأمير. وبحكم أن الإمارة تدين بالدين الإسلامي فإن الذي يتولى القضايا الشرعية هو قاضي أو مجموعة من القضاة يبتّون في المواضيع الشرعية حسب نصوص التشريعات الإسلامية دون الرجوع إلى الأمير، أما القضايا الإدارية فإن الأمير يتولىّ البتّ فيها هو أو من ينيبه، وعادة يتّخذ الأمير عاصمة إمارته مدينة متوسّطة يبني فيها قصر الإمارة ومنه يدير شؤونها.

أما شيخ القبيلة فإنه أقل شأناً من أمير المقاطعة خاصة إذا كانت قبيلته من الحجم المتوسّط عدداً، ومع أن أفراد قبيلته هم الجسم الهرمي الذي يمثّل قمّته، ويتّخذ من بيت الشعر مقرّاً للإمارة، وعادة يكون بيت الشيخ مميّزاً عن غيره من بيوت الشعر وذلك بكبر حجمه وارتفاع «رفّته» ووجود البيوت الأخرى الملاصقة له، ويتم بجزء من هذا البيت «الرفّة» وهو القسم الخاص بالرجال التجمّع لشرب القهوة وتناول الطعام، ومناقشة المسائل التي تهم القبيلة، من غزو أو انتجاع مكان معشب أو أية قضية تتعلّق بالقبيلة أو أحد أفرادها، فهذا الجزء يعتبر بما يقابل قصر الحكومة في الإمارة، وأحياناً يكون مقرّاً للسمر والمساجلات

الشعرية. ومع أن أفراد القبيلة يمثّلون عصب الحياة لهذا الشيخ إلا أنه لا يُكرههم على أمر معينّ كغزو مكان ما، إلا بإرادتهم حسب أغلبية الآراء، ولكل فرد ما كسب من هذا الغزو وعليه تحمّل ما يلحقه من تبعات، وعادة يخوّلون أميرهم عندما يظفرون بكسب، أن يأخذ الشيخ جزءاً من هذه الغنائم والباقي يوزّعه على الأفراد، وبهذه الطريقة يضمن طاعتهم وولاءهم له. أما إذا داهم القبيلة خطر ما فإن أفراد القبيلة يدافعون عن ذمارها بكل ما أوتوا من قوة، بالمال والسلاح والأرواح، ونجد أن شيخ القبيلة له من الأحترام ما لأمير المقاطعة وله من السلطات ما لغيره كحماية المستجير وغيرها. وإذا أدركنا هذا الوضع السائد، أمكننا أن نكوّن فكرة شاملة واضحة المعالم عما نحن بصدده.

□ الناحية الاقتصادية:

يتركّز الاقتصاد في ذلك الوقت على ثلاثة عناصر رئيسية هي الزراعة والرعي والتجارة، ويستند العنصر الثالث على سابقيه، فالنتجات الزراعية، كالقمح بنوعيه، والشعير، والذرة والدخن بنوعيه، بالإضافة إلى التمور بأنواعها المتعدّدة، ركيزة أساسية يقوم الاقتصاد عليها، أما الركيزة الثانية فهي الحيوانات والمنتجات الحيوانية، وتمثّل الإبل، والأغنام، والماعز، سلعاً تجارية رائجة كثيرة التداول بين الناس، بالإضافة إلى المنتجات الحيوانية، كالسمن، والألبان المجفّفة والأقط والصوف، والجلود التي تعتبر سلعاً تحتل مكانها وتمثّل قطاعاً مساعداً. وعلى هذين القطاعين تقوم التجارة، بنقل هذه السلع وتسويقها من مكان لآخر داخل المنطقة وخارجها في أوقات مختلفة من العام، حيث يحتفظون بالمنتجات الزراعية المتوفّرة في بداية فصل الصيف كالحبوب ليتمّ بيعها في وقت الشتاء عندما تكون الحاجة إليها ملحّة، ويخزّنون المنتجات الحيوانية في فصل الربيع ليبيعوها في فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء، ويكنزون التمور في فصل الخريف ليسوقوها في فصل الشتاء والربيع، إضافة إلى ذلك تقوم التجارة باستيراد المنسوجات كالأقمشة والمفروشات والسلع الضرورية الأخرى كالأسلحة والقهوة والهيل التي تُعتبر سلعاً نافقة، كذلك الحال بالنسبة للسلع الكمالية كالمسوغات النسائية والعطور وغيرها.

أما دخل الفرد فليس هناك مقياس يمكن أن يستدلّ به عليه، حيث لا يوجد كما هو في الوقت الحاضر ميزانية لإحصاء الواردات والمصروفات لكل سلطة، وإنما الأفراد بمجموعهم يعملون بهذه الحقول الثلاثة والحقول المساعدة لها، ويعيشون عيشة قد رضوا بمستواها، وهي ترتفع وتنخفض تبعاً للعوامل المؤثّرة فيها، فتجدها ترتفع في سنين الأمطار والخيّرات، بحيث يصل مستوى المعيشة إلى مستوى طيّب تتوفّر فيه جميع أصناف الأرزاق، ويعيش الناس في رغد من العيش، ثم تجدها تنخفض في سنوات الجدب إلى مستوى الحضيض، بحيث يأكل الناس جلود الحيوانات اليابسة، والنوى، وجذوع النخل، ويعيشون على الأعشاب وغيرها بما يسدّ الرمق بصرف النظر عن قيمته الغذائية. ولا يوجد للفرد دخل شهري معينّ من الإمارة أو من الأفراد، إذ أن العاملين لدى الإمارة يحصلون على هبات مقطوعة في أوقات غير منتظمة، حسب المناسبات، وإذا حصل وقرّر لهؤلاء الأفراد مرتّب معينّ، فإنه يأتي إليهم بعد ستة أشهر وربما سنة، وأحياناً يسلّم إليهم نقداً وفي أحيان أخرى يعطون مقابله سلعاً مما يتوفّر لدى السلطة.

أما العاملون لدى الأفراد فغالباً ما تكون أجرتهم سنوية أو موسمية كفصل الشتا أو الصيف مثلاً، وفصل الشتاء يتكوّن من فصلي الشتاء والربيع، والصيف يتكوّن من فصلي الصيف والخريف، ولا يتعدّى الأجر مبلغاً زهيداً لكن الفرد يقبل به، بالإضافة إلى ما يتناوله لدى رب العمل من الطعام والشراب، ومجمل القول أن دخل الفرد الذي هو أساس مقياس مستوى المعيشة من الناحية الاقتصادية متدنّ جداً إذا ما قسناه بمقياس الزمن الحاضر. ومن هذه الصورة لما هو عليه الوضع الاقتصادي آنذاك، يتبينّ لنا بقيّة تفاصيلها عندما ندخل في صميم الموضوع.

□ الناحية الثقافية:

الناحية الثقافية هي الدعامة الأساسية لأي مجتمع وعليها يتم بنيان بقية أعمدته الصلبة والجميلة في آن واحد، وإذا عدنا إلى الوراء وألقينا نظرة عامة

على الناحية الثقافية منذ بزوغ فجر الإسلام مروراً بعهد الخلفاء الراشدين والعصرين الأموي والعباسي، نجد أن شبه الجزيرة العربية بصفة عامة ومنطقة نجد بصفة خاصة التي نحن بصددها لم تظفر من العلم إلا بتعلّم القرآن الكريم فقط وعلومه أحياناً وذلك لبعدها عن مراكز الخلافة في المدينة المنوّرة ودمشق وبغداد، ومما زاد الطين بلّة عندما جاء العهد التركي الذي استمرّ أربعة قرون رزحت البلاد العربية تحته فترة مظلمة من تاريخها، هذا ما يختصّ بمراكز الإشعاع أما المكان المهجور أساساً فلا تسأل عن حاله!! لذلك اقتصرت الناحية الثقافية على تعليم القرآن الكريم وعلوم التوحيد والفقه والحديث وما يتعلّق بالعلوم الشرعية وتعليم القراءة والكتابة، ولما كانت اللغة العربية الفصحى قد دبّ فيها التلاشي، فقد دخلت مادة اللغة العربية من قواعد وعروض وغيرها، إلى جانب العلوم الدينية وأصبحت تدرّس في حلقات الذكر وعلى المشائخ بالإضافة إلى العلوم الشرعية، أما تعليم القرآن الكريم والكتابة فيقوم بهذه المهمة الكتاتيب الذين ينتشرون بالمدن والقرى ويقومون بالتدريس طواعية من أنفسهم دون مرتّبات تذكر، إلا ما يجود به عليهم أولياء أمور الطلبة من هبات تتمثّل في شيء من المحاصيل الزراعية أو الحيوانية، ورغم هذه الظروف القاسية إلا أنه نبغ كثير من الفقهاء، والعلماء، والمؤرّخين والشعراء المتضلّعين بعلومهم، والذين بزوا أقرانهم في وقتهم، وأبقوا لنا الآثار التي تعكس الوضع الذي كانوا عليه، أما الشعر فإن اللهجة العاميّة قد طغت عليه، بحيث أصبح جزء كبير منه باللهجة العاميّة، ومع ذلك فإن قوّته ورصانته وقوة تصويره للأشياء وخلجات النفوس، بما يمس شغاف القلوب من تأثيره على الفرد والجماهير، ظلّ كما كان عليه في العهد الأموي وربما العهد الجاهلي، حيث أصبح في استطاعة الشاعر أن يقيم الدنيا بقصيدة ويقعدها بأخرى، وهو بمثابة وزارة الإعلام في الوقت الحاضر. أما ما يدخل تحت مسمّى الناحية الثقافية من تراث آخر كالفنون الشعبية وبعض العادات والتقاليد والألعاب فقد بقيت جيّدة محتفظة برونقها الأخّاذ، وأصالتها العريقة رغم البساطة التي كانت عليها.

ويتبينّ لنا من ذلك ما هي عليه هذه البقعة من الناحية الثقافية، حتى نكون على علم بهذه الصورة عند دخولنا في تفاصيلها.

□ المـــواصلات:

تُعتبر المواصلات الشرايين التي تدبّ من خلالها الحياة في كافة أنحاء الكائن الحي، ويتوقّف عليها مدى نشاطه أو خموله، في العصر الحديث وفي العصور السابقة، ولما كانت المواصلات بهذه الدرجة من الأهمية فإننا سوف نلقي نظرة عليها لنرى ما هي عليه في تلك البقعة، حيث نجدها تقتصر على الوسائل البدائية القديمة، وذلك قبل انتشار وسائل المواصلات الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات، وبرق وهاتف، وأقمار صناعية. . . إلخ، وإذا أدركنا أن المواصلات في تلك البقعة التي نحن بصددها تنحصر في الخيل، والإبل، والحمير، فالخيل تستخدم للمسافات القصيرة نسبياً بما يتراوح بين ٢٠٠ ـ ٢٥٠ كيلاً إذا أريد إيصال خبر مهم بأقصى سرعة ممكنة، وهي، أي الخيل، غير صالحة لحمل الأثقال. أما الإبل فهي تستخدم للمسافات الطويلة سواء لإبلاغ الأخبار والتعليمات وما في حكمها، أو لحمل الأثقال وهي بلا شك عصب المواصلات آنذاك، أما الحمير فإن خدمتها تقتصر على المسافات القصيرة والأحمال البسيطة، وهي بمثابة السيارات الصغيرة في الوقت الحاضر، يقضي عليها الفرد لوازمه اليومية.

وإذا كانت المواصلات في ذلك الوقت ترتكز على الإبل في معظم الأحيان وذلك لنقل البضائع والسلع سواء ما كان منها منتجاً محلياً أو ما كان مجلوباً من البلاد المجاورة أو مستورداً من الموانىء البحرية في الشرق والغرب للجزيرة العربية، وإذا علمنا أن الإبل في حالة كونها تنقل أحمالاً لا تقطع مسافات طويلة بالنسبة للزمن الذي تستغرقه فإنه يترتّب على هذا الاعتبار مجموعة من النتائج التي تتلخّص في تأخير الإمدادات التموينية في بعض الأحيان، وعدم نقل السلع الطازجة لمسافات طويلة، والشعور ببعد المسافة بين نقطة وأخرى، بالإضافة إلى احتياج الإبل لأحمال ثقيلة تستحقّ تكليفها بقطع المسافات الطويلة، مع ما يعترض الحملات أحياناً من أخطار قطّاع الطرق وطمع الأعداء، وفي هذا الحالة فإن القافلة تحتاج إلى حماية مسلّحة من نقطة انطلاقها إلى مكان وصولها، من هذا يتبينّ لنا أن المواصلات لها أثر كبير على حياة الناس وطرق معيشتهم

ونوعية السلع التي يستعملونها، سواء أكانت ضرورية أو كمالية، كما أن لها أثراً كبيراً في رفاهية السكان وعوزهم ولا سيما إذا كانت الأرض مجدبة والإبل هزيلة، فإن ذلك يسبّب نكسة كبيرة في مستوى معيشة السكان، قد تمتد إلى فترة سنتين أو أكثر دون أن تستعيد الحياة العادية نشاطها، كما أن هذه النقطة تؤثّر تأثيراً مباشراً في أداء فريضة الحج إذا كانت الإبل هزيلة لا تستطيع إيصال الحاج إلى مكة وإعادته إلى أهله، وأحياناً تكون الإبل وغيرها سبباً لاستهلاك المواد التموينية المخصّصة للإنسان فتأكلها وتموت في نهاية الأمر، وبذلك تكون الخسارة مزدوجة، مثال ذلك العربي الذي له نخل في بلدة خيبر فأخذ مؤونة بيته من التمر وذلك لإعاشة بعيره حتى يوصله إلى خيبر لجلب التمر من هناك، وعندما وصل خيبر كان قد استنفد ما لديه وفي طريق العودة استهلك الجمل التمر الذي جلبه الرجل ثم فارق الحياة، وعندها قال الرجل: «خيبر من وراء تمراته» فذهبت مثلاً.

لكنها، أي الإبل، في أحايين كثيرة تجلب على ظهورها الرخاء والرفاهية للسكان حسب المستوى السائد في ذلك الوقت، من هذه النقطة يجدر بنا ألاّ نفاجأ بشيء مما يتعلّق بهذه الناحية عند دخولنا في صميم تلك البيئة.

□ الاعتبارات السائدة:

هناك مجموعة من الاعتبارات المختلفة التي تغلّف المجتمع وتلفّه بثوب شفّاف لا يراه إلا مَن عاش بداخله، ومعظمها نابع من الظروف المحيطة بها وينعكس ظلّها على أفراد أو جماعة من الناس، وفي اعتقادي أن للجهل الضارب أطنابه في هذا المجتمع كبير الأثر في تكوين هذه الاعتبارات، ثم تغذيتها وبالتالي إبرازها وكأنها حقيقة لا غبار عليها؛ منها التنافس والتفاضل بين القبائل العربية والبطون المتفرّعة عنها بعضها على بعض دونما مبرّر يذكر، والتفاضل بين فئة وأخرى مما كان له أثر كبير في بعض الأحيان في إثارة الحزازات والمشاكل، ومنها كذلك اعتبار الفئات العاملة في المهن فئة من الدرجة الثانية حتى ولو كان هذا

الفرد أو الفئة من نفس القبيلة أو البطن متى امتهن هذه المهنة أصبح خارج محسوبية هذه الفئة، وهذا ولا شك سبب في تأخير ازدهار الصناعة المحلية التقليدية وتطويرها والتفنّن بها، واكتفت الفئة العاملة بالمهن بما يقضي شؤونهم الحياتية اليومية، كذلك اعتبار العناصر القادمة من خارج المنطقة عناصر من الدرجة الثانية أيضاً وربما الثالثة مهما كان مركزها في منطقتها الأولى أو مكانتها عند قبائلها التي انفصلت منها لسبب أو آخر من أسباب الحياة إلا إذا استطاع هذا الفرد أو الجماعة إقناع مجتمعه الجديد بأهميته وصحة أرومته في موطنه الأول، وأنّ له ذلك إذا علمنا صعوبة المواصلات وبعد المسافات، متى انطبعت في أذهان المجموعة صورة معيّنة عن فرد أو جماعة فإنه من الصعوبة إزالتها إلا على المدى الطويل وفي طرق مقنعة.

فهذه الأسباب وما في مستواها أوجدت خلخلة في البنيان الاجتمعي نتجت عنها شروخ بسيطة عازلة أثّرت في التماسك البنياني مع أنه في غنى عنها، ومع أن الإسلام حذّر منها وجعل الناس سواسية كأسنان المشط «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» صدق الله العظيم[1]. لكن رغم هذا سادت هذه الاعتبارات، وعلينا إدراك مدلولها وظلّها أثناء دراستنا للموضوع.

□ □ □

(١) سورة الحجرات آية (١٣).

الفصل الثاني:

البرنامج اليومي

من هذا البرنامج اليومي المعينّ على مدار السنة منذ مئات السنين يتّضح لنا مدى النشاط والحيوية والانضباط التي يتمتّع بها هذا المجتمع على بساطته وخلوه من التعقيدات وإنما تعوّد على هذا البرنامج وأصبح جزءاً من حياته اليومية، بل من لحمه ودمه وذلك تنفيذاً لتعاليم الشريعة الإسلامية السمحة، ووفاء بمتطلّبات الحياة. ويتكوّن البرنامج اليومي مما يلي:

١ ـ يصحو الناس جميعاً رجالاً ونساء عند طلوع الفجر والأذان التالي، لأن المؤذّن يقوم بأذانين الأول يتم قبل التالي بحوالي ساعة من الزمان ويسمّى آذان «النباه» ومع أن الساعات لم تكن منتشرة في ذلك الوقت إلا أنه يتم تحديد الوقت بواسطة الظواهر الطبيعية كطلوع النجوم وبزوغ الفجر وطلوع الشمس وغروبها.

وعند آذان الفجر يؤدّي الناس صلاة الفجر جماعة بالمساجد بالنسبة للرجال، أما النساء ففي البيوت وهذا الوضع يستمرّ في كافة فصول السنة عدا بعض الفئات مثل المسافرين، وسائقي السواني، والذاهبين للفلاة «الفلالي» فإنهم يبكّرون قبل الأذان الأول بساعة زمنية أو أكثر.

٢ ـ يتم بعد صلاة الفجر تناول القهوة العربية وشيء معها مما يطلق الريق كالتمر، والمقشوش، والأقط وغيره كلّ حسب مستواه المعيشي، غير أن ألذّ

شيء مع القهوة صباحاً هو التمر الحالي الذي يكسر مرارتها اللاذعة، وربما يستعاض عن القهوة باللبن أو الحليب الطازج من ضرع أمه ساخناً، والمضاف إليه شيء من السكر بعد غليه أحياناً، أو ما تيسّر من طعام الإفطار. وربما عاد مَن لا عمل له إلى النوم مرة ثانية، كذلك الحال بالنسبة لكبار السن ينامون فترة قصيرة تسمّى «التصفيرة» حتى موعد صلاة الإشراق بعد طلوع الشمس (ركعتين).

٣ ـ مباشرة العمل مع طلوع الشمس كلّ بعمله على مختلف الفئات والتخصّصات، وتفتح الأسواق التجارية ويستمر العمل إلى أذان الظهر، وموعد أذان الظهر إذا زالت الشمس عن سمت الرأس، وهناك فئة تتناول طعام الغذاء قبيل صلاة الظهر مباشرة وبعد الغداء يتوجّهون لأداء الصلاة وهم طبقة التجّار ومَن في مستواهم أما الباقون كالعمال والفلاحين فيتناولون غداءهم بعد الصلاة مباشرة.

٤ ـ تتم فترة استراحة بعد صلاة الظهر ويستفيد منها البعض في أخذ قسط من النوم وهي نومة القيلولة المعروفة بصحة نومها كما قال الشاعر:

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى
هواناً ونومات العصير جنون

ألا إن بين الظهر والعصر نومة
تحاكي إلى أهل العقول فنون

والبعض الآخر يتجمّعون في هذه الفترة بالقهاوي بما يسمّى «شبّة الظهر» يتجاذبون أطراف الحديث وربما تعرّضوا لحل بعض المشاكل التي قد تنشأ، ويتناول البعض، من أراد وجبة خفيفة تكون عادة من التمر أو الأقط أو الكليجا تسمّى وجبة «الهجور» مع القهوة أو اللبن أو مفردة وعادة يتناولها الذين يزاولون الأعمال.

٥ ــ عندما يحين موعد صلاة العصر حال كون ظل كل شيء مثليه، تؤدّى الصلاة جماعة بالمساجد إلا مَن هم على رأس أعمالهم في المزارع فإنهم يؤدّونها جماعات أو فرادى في أماكنهم دونما رقيب إلا الله سبحانه وتعالى.

٦ ــ يباشر الناس أعمالهم كلّ في اختصاصه بعد صلاة العصر مباشرة وتفتح الأسواق التجارية حتى غروب الشمس عندها يحين موعد إغلاق الأسواق حتى صباح الغد، وفئة من التجّار ومَن في مستواهم يتناولون طعام العشاء قبل صلاة المغرب، أما الفئات الأخرى فإنهم يتناولون طعام العشاء بعد صلاة المغرب مباشرة، وربما تأخّر عنهم عمال المزارع إلى ساعة أو ساعتين من الزمان. أما في البادية فإن طعام العشاء يتأخّر إلى ما بعد صلاة العشاء.

٧ ــ ارتياد المقاهي والمجالس لتبادل الحديث، وليدلي كل واحد بما صادفه خلال يومه العملي وما سوف يقوم به في الغد وما يحتاج إليه من المعونة إن كان يفكّر في غده في عمل جماعي، وقد يكون هذا الوقت مناسباً للمفاوضات التجارية أو زيارة الأصدقاء والأقارب والأحباب.

٨ ــ وعند وجوب صلاة العشاء الأخير بعد غروب الشفق الأحمر تؤدّى الصلاة جماعة للرجال، أما النساء ففي بيوتهن ثم يخلد معظم الناس إلى الراحة والنوم، عدا فئات معيّنة من الشباب والرجال تبقى في تجمّعات وحلقات سمر لبعض الوقت يتطارحون فيها أصناف الحديث والقصائد والذكريات والقصص في مختلف مناحي الحياة، ثم بعد ذلك ينامون أيضاً وغالباً ما يتم النوم للجميع فيما يقارب الساعة العاشرة مساء حسب التوقيت الزوالي الآن.

٩ ــ هذا البرنامج ينطبق على الحضر المستوطنين وعلى البدو المقيمين على المياه وبجانب القرى، أما البدو الرحل فإنه يوجد هناك اختلاف بسيط في بعض الأعمال خاصة فيما يتعلّق بالرعاة، حيث يسرحون بأغنامهم بعد

طلوع الشمس ويعودون بها مع أذان العشاء الأخير. أما الإبل فإن رعاتها يبكّرون في الذهاب ويتأخّرون بالعودة، أما الرجال فإنهم يقضون جزءاً من وقتهم في التنقّل بين مقاهيهم في بيوت الشعر لتبادل الأحاديث وارتشاف فناجين القهوة، والتباحث في كثير من الأمور إلا مَن كان ذاهباً لصيد أو غيره.

□ □ □

الفصل الثالث:

الزراعــــة

□ معرفة المياه الجوفية:

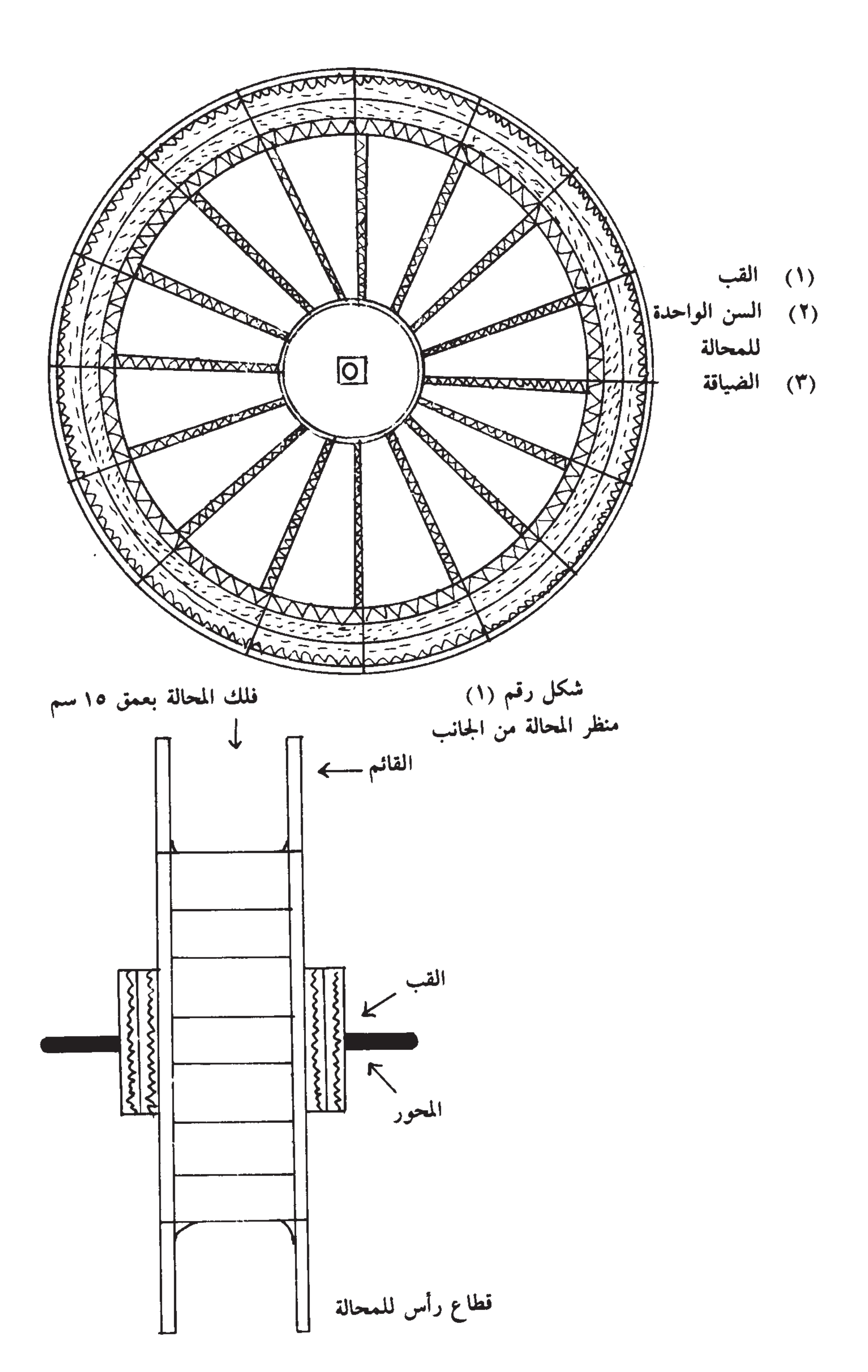
لما كانت المنطقة قد حرمها الله من الأنهار التي تكوّن الركيزة الثانية للزراعة، ولم يمنحها الأمطار التي تعوّض عن الأنهار، لم يقطعها من المياه الجوفية التي تؤدّي نفس الغرض بطريقة أقل حجمًا وأشد مئونة، والمياه الجوفية تستخرج من الآبار العميقة، ويجد السكان صعوبة في الكشف عن مكامن المياه الجوفية إلا بواسطة أشخاص معيّنين أعطاهم الله سر هذا العلم دونما دراسة أو تدريب، ويعرفون مكامن هذه المياه بالفطرة وحسب ظواهر معيّنة يحتفظون لأنفسهم بأسرارها وذلك قبل وصول علم «الجيولوجيا» إلى هذا المجتمع، وتسمّى هذه الفئة «سوّاس الماء» وقد يخطئون أحياناً ولكن كثيراً ما يصيبون، فإذا اكتشفوا مكان وجود مكمن للماء أشاروا إلى من يرونه ونصحوه بحفر بئر بهذا المكان أو ذاك ويخبرونه كذلك إذا كان هذا الماء مالحاً أو حلواً ومدى غزارته من عدمها وما قد يصادفه أثناء الحفر من طبقات صلبة أو صخرية وما إلى ذلك من المعلومات الهامة التي غالباً ما يصدقون فيها.

وعندما يحصل الشخص على أرض زراعية فإنه يبحث عن هذا الرجل الذي «يسوّس أو يصنت الماء» ليدلّه على مكان موضع البئر وليتبع إرشاداته وتعليماته ويعطيه مقابل ذلك مبلغاً من المال أو بعض الهدايا حسب مستوى صاحب المصلحة. وعندها يبدأ بالحفر بالطريقة اليدوية العادية بطريقة تعاونية

يساهم فيها أقاربه وجيرانه بدون أجر، بحيث لا يخسر في تكاليف هذا البئر شيئاً يُذكر، اللهم إلا في بعض الأحيان أجرة معيّنة أو هدية للبعض، وكل ما يكلّفه هو طعام العاملين معه أثناء الحفر وفي الغالب الأعم حتى الطعام يتسابق الجيران إلى تقديمه بطريقة دورية بحيث يكون كل يوم عند واحد منهم، وهكذا يفعل هو معهم عندما يكون لدى أحدهم عمل مماثل.

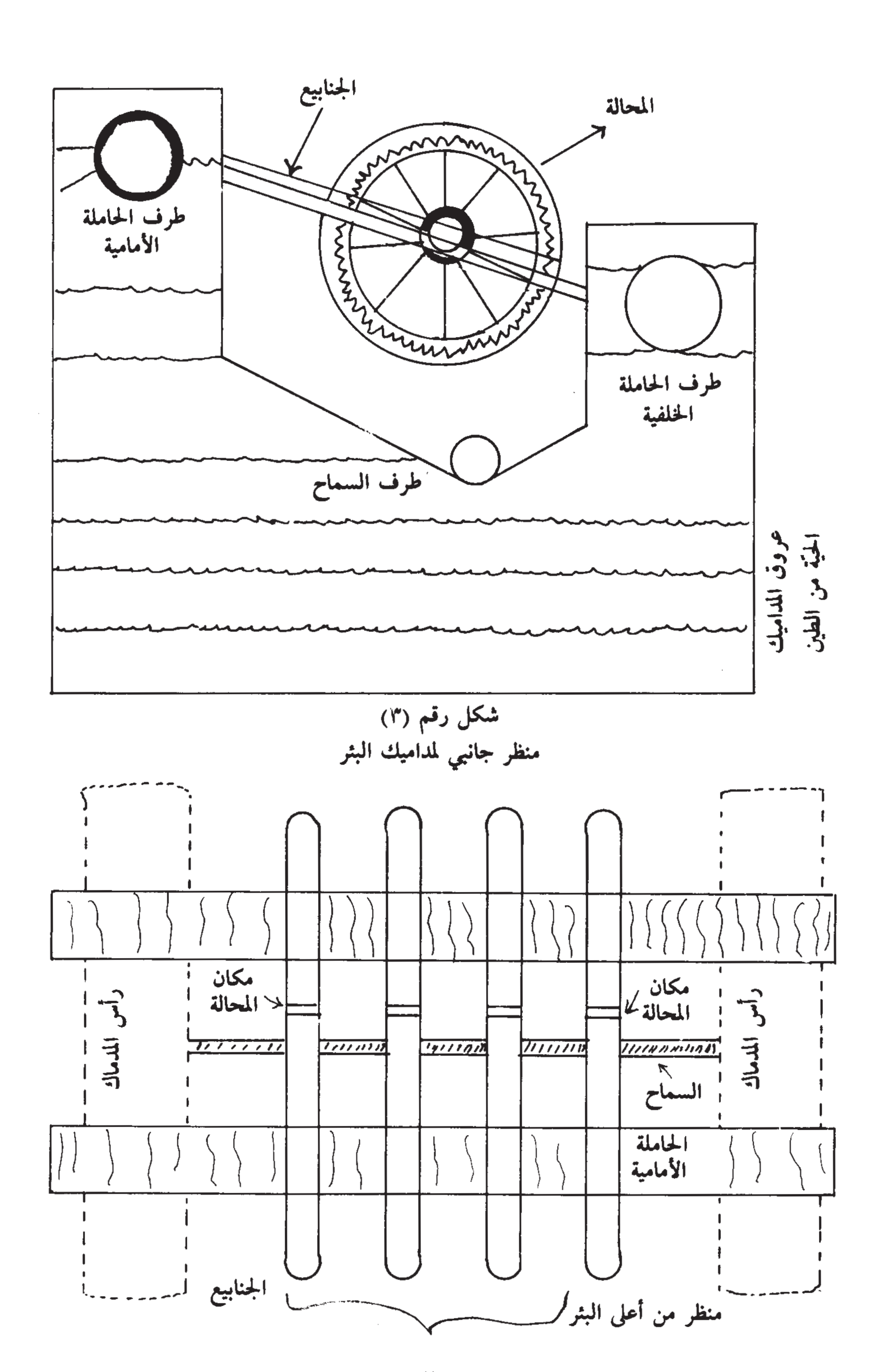
أما الأدوات التي يحفر بها البئر القليب فهي تتكوّن من «الفاروع» و«المسحات» أو «المنساف» وعمود الحديد «العتلة» و«الهيم» وهو كتلة أو كرة كبيرة من الحديد بها عصا يكسر بها الصخر، وعادة يتّزر العمال في حالة تكسيرهم للصخر بقطع من الجلد تقيهم شرر النار الخارجة من الصخر، وبالإضافة إلى ذلك مجموعة من الزنانيل الصغيرة «محافر» المصنوعة من خوص النخيل ولها عراو مثبّتة بها جيداً مفتولة من ليف النخل، ثم الرشا وهو مفتول من ليف النخل أيضاً ومكوّن من ثلاثة «بتوت» فروع ملفوف على كل فرع سريدة طويلة من جلد البعير ثم مجدولة هذه الفروع الثلاثة إلى بعضها، بحيث تكوّن حبلاً متيناً ملء قبضة اليد يتم بواسطته «صل» الرجال إبرادهم إلى قاع البئر وإخراجهم منه واحداً واحداً، بالإضافة إلى إخراج «نثيلة» البئر التراب المخرج منه، ويتكوّن الرشا من عدد من الوصلات تشبك أطرافها بحبل من ليف ويكون بطرف الرشا مما يلي البئر اثنين من المحاجن «جوازل» مفردها «جازل» مصنوعة من فروع الأشجار عند التقاء غصنين ببعضهما وتكوّن عادة من الأشجار القوية ويربطهما حبل من الليف الغليظ، يثبّت طرف الرشا بمنتصفه أما حبل الرشا فيطوّل ويقصّر حسب عمق البئر وقد يصل إلى ٥٠ متراً أو أكثر من ذلك.

ويركّب على فوهة البئر مركازين من خشب الأثل الغليظ، بحيث يثبّت عند التقائهما البكرة «المحّالة» وهي عبارة عن بكرة خشبية شكل رقم (١) ومع فلكها يجري الرشاء الذي تجرّه الدابة من طرفه الظاهر على وجه الأرض وأحياناً يجرّه الرجال وقد تساعدهم النساء في بعض الأوقات، وطرف الرشاء مما يلي



شكل رقم (١)
منظر المحالة من الجانب

قطاع رأس للمحالة



شكل رقم (٣)
منظر جانبي لمداميك البئر

الدابة مثني يشبّك بالقتّب المركّب على ظهر البعير شكل رقم (٢)، بحيث يجرّه روحة وجيئة لإخراج التراب من البئر ولإيراد الرجال إلى قاع البئر وإخراجهم منه، ويساق البعير مع طريق مستقيم يسمّى «المجر» أو «المنحاة»، فإذا خرج الزنيل المملوء بالتراب تلقّاه رجل واقف لهذا الغرض ثم وضعه جانباً وعلّق «بالحازل» الزنبيل الفارغ وصلّه على من في البئر ثم فرّغه بعيداً عن فم البئر، وهناك كلمات تقال في هذه العملية فعندما يملأ الرجل الذي في قاع البئر الزنبيل فإنه يقول: «يا الله الأول» بصوت مرتفع ومجرور وذلك إيذاناً بإخراج الزنبيل الملآن، فيجيبه من على فم البئر «طالع من شرّه» بصوت موزون، وعندها يسمع سائق البعير ذلك فيصدّر بعيره، وعند موازاة الزنبيل للرجل الواقف على فم البئر يمسكه ويقول «عوّد»، فيأخذ الزنبيل الملآن ويرسل الفارغ لمن بقاع البئر، ويتمّ العمل على هذه الوتيرة نهاراً حتى يتم الوصول إلى الماء ويتراوح عمق البئر العادي بين ٣٠ ــ ٤٠ متراً وربما أكثر من ذلك في بعض المناطق، ويكون البئر دائرياً في الغالب بحيث يكون قطره بين ٤ ــ ٦ أمتار وأحياناً أكثر من ذلك ويتّسع البئر العادي لغربين أو ثلاثة، وأحياناً عندما تكون المياه غزيرة جداً يكون البئر على واجهتين كل واجهة غربين أو ثلاثة وربما أكثر كما هي عليه الحال في بئر هدّاج بتيماء في ذلك الوقت وبعد أن يتم الوصول إلى الماء وإغمار البئر تُبنى عليه المداميك شكل رقم (٣) ويركّب عليه مستلزماته وهي:

١ ــ **الحاملة الأمامية**: وهي خشبة أثل غليظة يصل قطرها إلى ٣٠ سم وتكون بطول ما بين المدماكين.

٢ ــ **الحاملة الخلفية**: وتكون أقصر نسبياً من الأولى وأغلظ منها، بحيث يصل قطرها إلى ٤٠ سم وهي من خشب الأثل أيضاً.

٣ ــ **السماح**: وهو خشبة أدق من سابقتيها بنفس امتدادهما ويُستفاد منها في حالة تركيب «المحالة» والعمل بها.

٤ ــ **«الجنابيع»**: وهما خشبتان مثبّتتان على الحاملة الخلفية والحاملة الأمامية بطريقة عرضية وفي منتصفهما فرض تركّب عليه «المحالة» بطريقة رأسية.

٥ ـ «**المحالة**»: هي بكرة مصنوعة من الخشب (الشكل رقم ١) وتتكوّن من أسنان طويلة مفروض برأسها مجرى للرشاء مثبّتة هـذه الأسنان عـلى اسطوانة من الخشب المتين «القب» مثقوبة من وسطها يدخّل بهذا الثقب المحور المصنوع من الخشب ويثبّت على مكان بـين «الجنابيـع» لحمل «المحالة» وعندما يتّسع ثقب القب فإنه يحفر وتركّب له قطعة خشب تسمّى «ضياقة» تثقب بثقب أضيق من الأول.

٦ ـ **الوسادة**: وهي خشبة غليظة تكون في مقدّمة «المقام» المصبّ وعليها سقف يغطّي حوالي ثلث فوهة البئر وفوق هذا السقف تصبّ الـدلاء الغروب ويثبّت على حافة الوسادة خشبة أدق منها تسمّى «الجازي» بها فرض يثبّت عليه أعمدة الدراجة وهما عمودان مائلان يرتكزان على «الجازي» ويستندان على الحاملة الخلفية وعلى ارتفاع ٤٠ سم من أسفلهما شقّان ضيّقان يثبّت بهما الدراجة ويربط إلى أحدهما عصا متوسّطة تمنع خروج «المقاط» عن الدراجة وهذه العصا تسمّى «الممراس».

٧ ـ **الدراجة**: وهي عبارة عن خشبة اسطوانية قطرها من ٢٠ ـ ٣٠ سم وطولها ٥٠ سم وبطرفيها يثبّت مسماران سماكة كل منهما ١٦ سم شكل رقم (٤)، وتثبّت الدراجة على العمودين المركّزين على الجازي والذي سبق ذكرهما، وتدور الدراجة بطريقة اسطوانية محور ارتكارها على المسمارين المشار إليهما وذلك ليمرّ من فوقها «المقاط» أو «السريح» بكل راحة وبدون تلف.

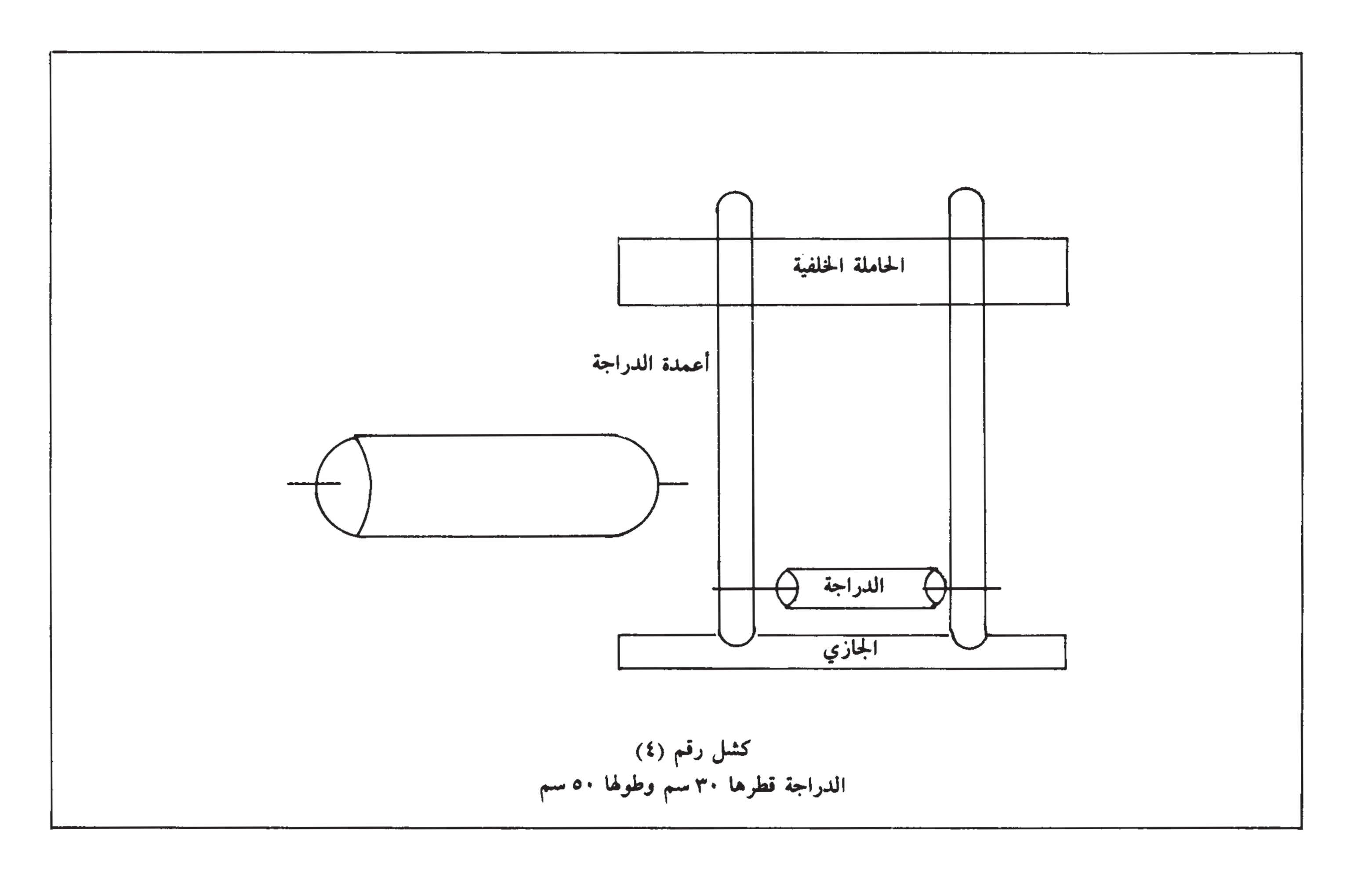
٨ ـ **الرشاء**: سبقت الإشارة إليه.

٩ ـ «**المقاط**»: وهو حبل مفتول من الليف من ثلاثة «بتوث» فروع مجدولة مع بعضها ويكون سماكة ٢٠ سم تقريباً. ويربط طرفه مما يلي الـدلـو «الشرعة» والطرف الثاني يثبّت بمجمع الرشا مما يلي البعير وينوب عن المقاط «السريح»، وهو شريحة واحدة من جلد البعير أو البقر بطول البئر

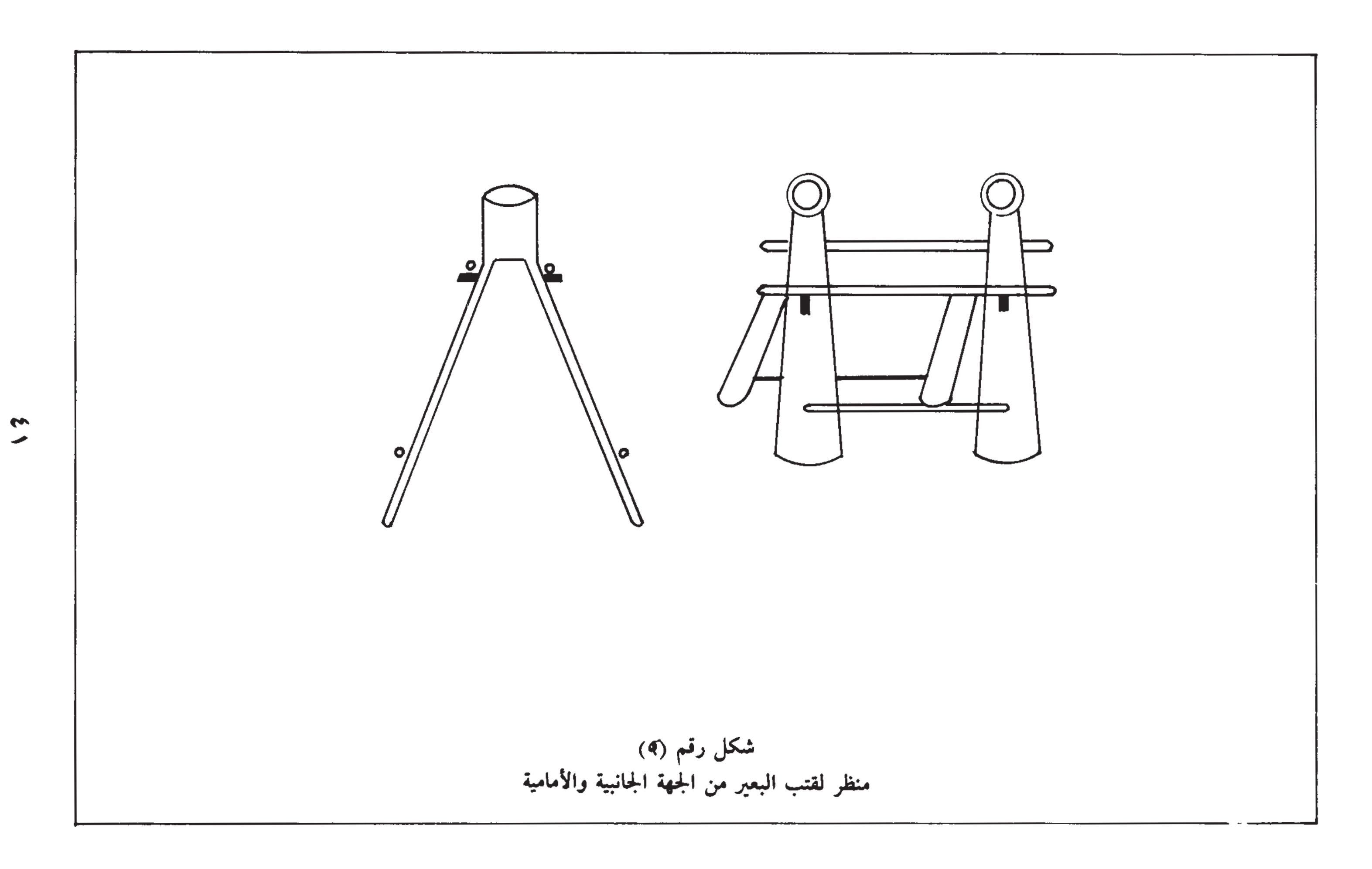
وعرض ٢ سم، ويتم قدّ هذا الجلد المراد استخدامه لهذا الغرض بعد سلخه مباشرة ويُستخدم السريح غالباً في موسم الشتاء.

١٠ ــ **الدلو أو الغـرب:** شكل رقم (٥) وهو عبارة عن جلدين من جلود الغنم المدبوغة والمدهونة بالودك، يكون أحد الجلدين قبـة الغرب ويعمل بطريقة دائرية على شكل القية، قاعدتها مفتوحة إلى أعلى وقمّتها إلى أسفل، والثاني يسمّى الكم ويثبّت طرفه بالقية مفتوحاً عليها والطرف الثاني يبقى مفتوحاً، ويثبّت على فم الكم وصلة من الليف يسمّى «الشرعة» التي يثبّت بها طرف «اَلمقَاط» أو «السِّريح»، ويعلو الدلو من فتحتها العليا «العرقاة» وهي عبارة عن خشبتين سماكة الواحدة منهما بمقدار قبضة اليد مشبوكتين ببعضهما بطريقة الفرض ويثبّتان على فم الدلو مع طرفيهما المقروضين بواسطة حبل ليف دقيق يسمّى الـوَذَمَـة ويثبّت على «العرقاة» مما يلي الرشاء وصلة غليظة من الليف تسمىّ «الكرب» يشدّها بطرفيها على العرقاة عصا قصيرة تسمّى «الرز» وتسمح العرقاة بدخول الماء إلى داخل الدلو بطريقة سريعة، ويثبّت فوق العرقاة قطعة صغيرة من الحجر تسمّى الثقل وتساعد على سرعة غطس الدلو بالماء، وتصب الدلو بطريقة تلقائية عندما يخرجها البعير من فم البئر ويوصلها من فوق الدراجة لتصب في «المقام» ثم تعود أدراجها مرة ثانية وهكذا دواليك، وتحمّل الدلو من الماء ما بين ٣٠ ــ ٤٠ لتراً في كل مرة وذلك حسب حجمها، وتركّب جلد الدلو مقلوباً، بحيث تكون لحمة الجلد إلى الخارج حتى تكون قابلة للدهن كلما نشفت.

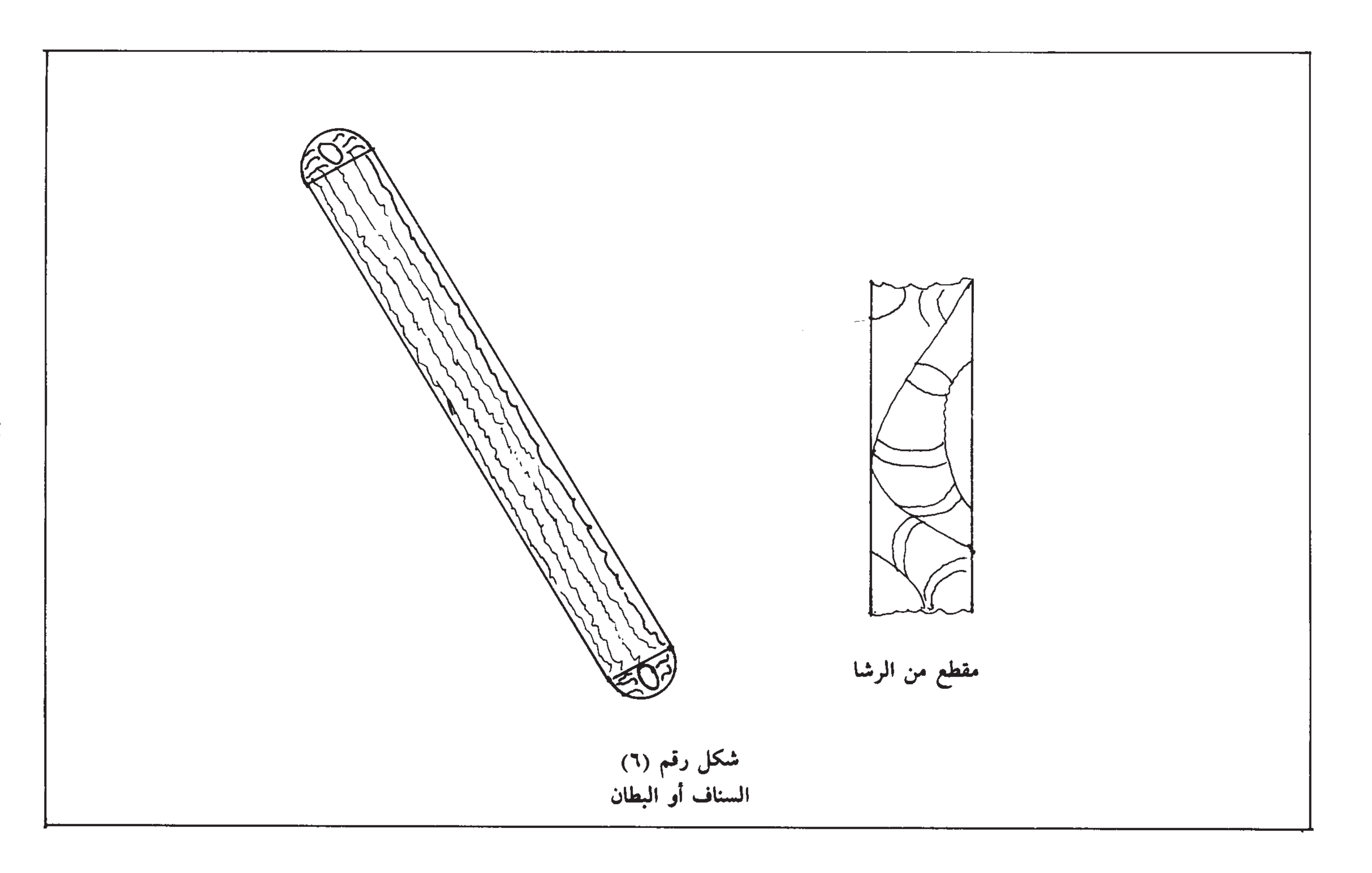
١١ ــ **القتب:** شكل رقم (٥) وهو ما يشدّ على البعير المعدّ «للسني» وهو مكوّن من أربع ضُلَف مثبّت كل اثنين مع بعضهما بخشبة تسمّى «الدخاشة» وتؤسر هذه الضلف على بعضها بسيور من القد مع عصاءين في كل جانب واحد يمسك القتب من أعلى والثاني يمسكه من أسفل ويعلّق بالقتب ما يلي:



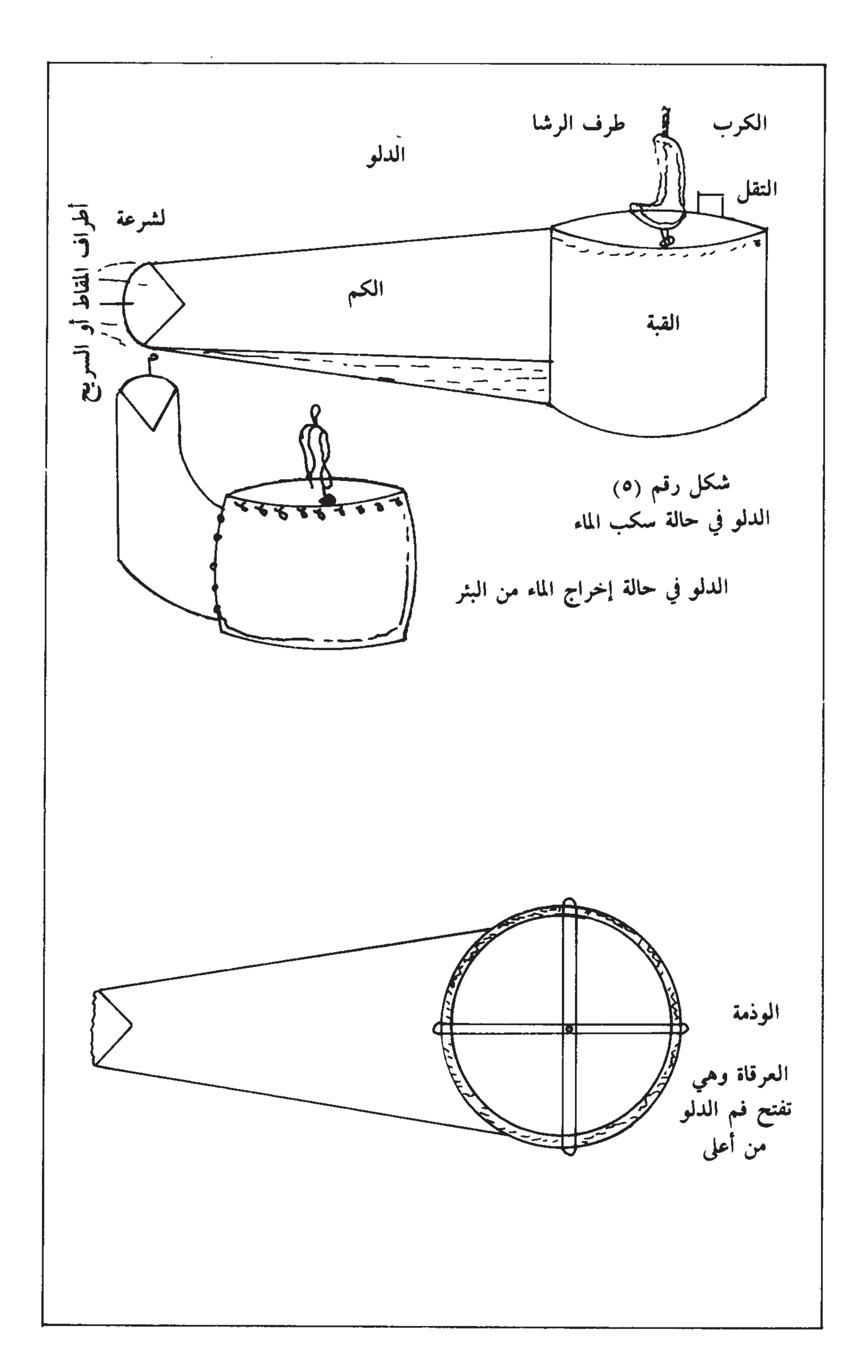
كشل رقم (٤)
الدراجة قطرها ٣٠ سم وطولها ٥٠ سم



شكل رقم (٩)
منظر لقتب البعير من الجهة الجانبية والأمامية

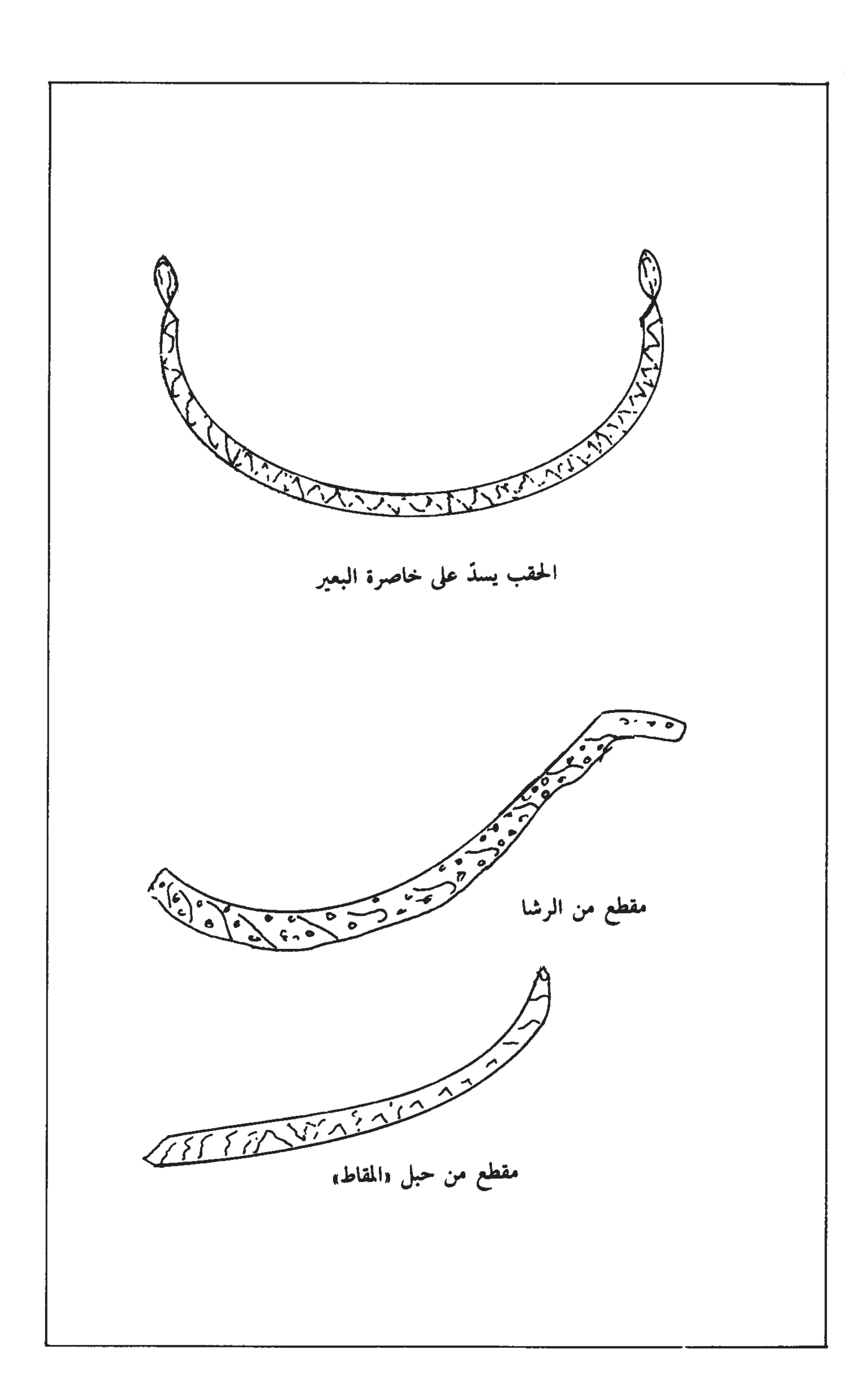


شكل رقم (٦)
السناف أو البطان



شكل رقم (٥)
الدلو في حالة سكب الماء

الدلو في حالة إخراج الماء من البئر



الحقب يسدّ على خاصرة البعير

مقطع من الرشا

مقطع من حبل «المقاط»

(أ) **السِّناف** (شكل رقم ٦): وهو مجموعة من حبال الليف ملفوف عليها قماش ومنسوجة بجانب بعضها بطول مترين تقريباً وعرض حوالي ١٠ سم وبنهايته عروتان لشبكه بالقتب ويثبّت على نحر البعير.

(ب) **البطان**: وهو يشبه السناف تماماً، شكل رقم (٦)، إلا أنه يثبّت على أعلى بطن البعير مما يلي الصدر خلف الزور، ووظيفة البطان والسناف هي مساعدة البعير على إخراج حمله من الماء. ؟

(ج) **الحَقَب**: وهو حبل من ثلاثة «بتوت» فروع ملفوف عليه قماش ومثبّت على أسفل بطن البعير من فوق خاصرته مما يلي وركيه، وفائدته أنه يمسك القتب على ظهر البعير عند عودته بعد تفريغ الماء.

(د) «**الكِدان**»: وهو وصلة قصيرة من الحبل، ملفوف على شرائح من القد ومجدول على ثلاثة «بتوت» فروع، وبطرفه عصاء قصير بطول ٢٥ سم تسمّى «الزر» و«بالكدان» تثبّت كامل عدة الدلو، إذاً فهو محـور العملية كلها.

(هـ) «**المِرشحة**»: وهي من نسيج الصوف من ثلاث أو أربع طبقات بحجم القتب وأحياناً تكون من طبقتين محشو ما بينهما بالليف، وتوضع على ظهر الجمل تحت القتب لتمنع احتكاك القتب بظهر البعير ولتمتصّ العرق منه.

١٢ ـ «**المَقام**»: وهو المكان الذي تصبّ فيه الدلاء الغـروب وعلى حافته مما يلي المنحاة خشبة دقيقة يجري عليها المقاط تسمّى «الكافة» وهو حوض ثلثه على فم البئر والباقي خارجه، ومن هذا الحوض يتسرّب الماء بعد أن تصبّه الدلاء خلال فتحة الساقي إلى «الجابية» وهي حوض كبير جداً يمتد أحياناً بين مجموعة من النخيل والأشجار وأحياناً أخرى يكون غير ذلك

ويخلط بطين جيّد ليمنع من تسرّب الماء من خلاله إلى أسفل، ويجمع الماء بهذا الحوض الجـابية حتى يكون على ارتفاع معينّ، وعادة يكون ملء الجابية في الثلث الأخير من الليل، وعند امتلائها عند الصباح يتم فجر الماء في نفس الوقت الذي تستمر فيه السواني في نزف الماء من البئر لتعويض الجـابية عن نقصها، ويكون هناك تناسب فيما يخرج من الجابية وما يدخل إليها بما يقارب ٥ ــ ٤ من كمية الماء، ويفجر ماء الجابية مع فتحة تسمّى «المفجر» وتسدّ بقطعة صخـر رقيقة تسمّى «القراعة» أو «السدّة» ويوضع عليها كمية من الطين اللزج.

١٣ ــ **«المجر أو المنحاة»**: وهو الطريق الذي تتردّد فيه السواني وسائقها ويكون طوله بطول البئر، ويكون «المُستوى» وهو الطرف الموالي للبئر أرفع قليلاً من «المَرْفع» وهو نهاية المنحاة التي تنحرف السواني فيه بعد أن تصبّ الدلاء. ويجري في المنحاة هذه نوع من الغناء على أنغام غزف المـحّال، سنتعرّض له في حينه، وعادة تكون المنحاة مسوّرة بسور قصير وأحياناً يكون عليها مداميك مرتفعة تظلّلها عريشة مرتفعة من الخشب وسعف النخيل، ويمتد فوق هذا العريش «بعشة» أشجار العنب في الغالب، بحيث تكون المنحاة مكاناً ظليلاً، وتسمّى المنحاة «قبر الدنيـا» لأن السائق يتردّد مع إبله أو بقره أو حميـره بهذه المـاسفة القصيـرة من ٦ ــ ١٦ ساعة في اليوم والليلة، وربما أكثر.

□ أعمال الرجل والمرأة في بيئة الفلاحة:

يعمل الرجل والمرأة جنباً إلى جنب في أعمال الفلاحة، إلا أن لكل واحد منهما مجال عمله، فحينما نجد الرجل يتولىّ الأعمال الشاقة مثل حفر الآبار وحرث الأراضي وزرعها وسقيها وحصاد الزرع وتصفيته، وفتل الحبال، وصعد الطويل من النخل، في موسم الـوبر التلقيح، موسم تعديل عذوق النخل وتركيبها على جذوع الجريد عندما يكبر بسرها قبيل تغيرّ لونه، كذلك في موسم

جذاذ النخل صرامه، فهو الذي يقوم به، كذلك يتولىّ الرجل سياق السواني وتفجير الماء بالزرع والنخيل «الرياسة» وجلب الحشائش والأعشاب من البر «الفلاة» وكل الأعمال التي تتّصف بالصعوبة في حقل الفلاحة وغيرها.

أما المرأة فإنها تساهم معه بطريقة فعّالة، فهي التي تقوم بالأعمال البيتية، من تنظيف المنزل، والطبخ وطحن الطعام على الرحى، وهرس بعض الحبوب لتجهيزها للطبخ وخياطة وتنظيف ملابسها وملابس زوجها وأولادها، والعناية بأولادها وزوجها، وجلب الماء إلى البيت على رأسها، وتجهيز علف الإبل وذلك بجمعه من المزرعة إن كان أخضراً، أو دقّه وتقطيعه إن كان يابساً بأداة تشبه السكين الكبيرة تسمّى «الحيف» ثم خلطه ببعض المغذّيات للإبل مثل «الخبط» ورقّ الطلح وما شابهها، ثم إحضاره في إناء كبير «الجذعة» وتعليف الإبل وذلك بوضع العلف في أشداقها لقمة بعد لقمة حتى ينفد هذا الماعون «الجذعة» التي معها، وأوقات إطعام الإبل مع طلوع الشمس أو قبله قليلاً، وعند أذان الظهر، وبعد المغرب، وكيفية إطعام الإبل تتم كالآتي: تأخذ المرأة اللقمة ملء يدها اليمنى وتفتح فم البعير بيدها اليسرى ماسكة شفته العليا ثم تدفع اللقمة في فمه ليمضغها ثم يزدردها، وهكذا دواليك إلى آخر ما معها، ويستمر هذا العمل على مدار السنة، وفي موسم الحرث تخرج المرأة في علف الإبل إلى مكان تواجدها في حقل الزرع، وهي بالإضافة إلى ذلك تشارك في الفلاة وهي جمع وإحضار الأعشاب والحشائش من البر، وإذا كان بالبيت أكثر من امرأة، جرى توزيع العمل بينهن، وإن كانت وحيدة جرى استئجار امرأة أخرى تساعدها. وزوجة الفلاح لها كمكافأة على مساعدتها له في موسم زرع الشتاء «السقاط» وهي السنابل التي تسقط في الحصيدة إثر عملية الحصاد اليدوي، فهي تلتقطها وتصفّيها حباً تتصرّف به بالإضافة إلى حب كدس كامل يعطيها إيّاه زوجها. وفي موسم الصيف، فلها كذلك «سقاط» التمر الذي يسقط من النخل أثناء عملية الجذاذ بالإضافة إلى نخلة كاملة تتصرّف بتمرها، زيادة على ذلك فإن زوجها يعطيها ما تحتاج إليه، والبعض يهديها قطعة من المصاغ والحلي بين فترة وأخرى،

بالإضافة إلى مؤنتها ومتطلّباتها الضرورية فإن الزوج يقوم بها وفقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية.

كذلك تقوم المرأة بالمساعدة في عملية الحصاد في موسمه، و«ذري» الزرع بعد درسه وتصفيته وتطييبه. من هذا نرى أن المرأة تقوم بالعمل مع الرجل جنباً إلى جنب كلّ فيما يناسبه، بحيث يقدّمان معاً عملاً متكاملاً يقوم على التعاون والتكاتف تحقيقاً للمصلحة المشتركة بينهما.

□ غرس النخيل:

عندما يتم تجهيز البئر على الطريقة التي مرّت بنا، يبدأ الفلاح في جمع «الغريس» فسائل النخل بطريقة تعاونية أيضاً، يجمعه من الجيران والأقارب والمعارف، فيحفر «المخامر» وهي الحفر التي توضع بها فسائل النخل، فتعمّق الحفر حسب صلابة الأرض وليونتها، وتكون الحفرة بقطر متر تقريباً، ويجري تصفيتها من الحجر والزلط والشوائب الأخرى، ويتم حفرها بصفوف معتدلة ومنتظمة، جاعلاً بين كل نخلة وأخرى من ٦ ــ ٨ أمتار، بحيث إذا كبرت النخلة وارتفعت لا يتلامس رؤوس جريدها مع الأخرى، وكلما ابتعدت النخلة عن الأخرى بمسافة معقولة أصبح إنتاجها أكثر، ويقولون على لسان النخلة «أبعد أختي عنيّ وخذ طلعها مني» ويختارون لغرس النخل دخول فصل الربيع «السماك» مع سريان الماء في أغصان الشجر وذلك حتى يعرف الفلاح ما إذا كانت النخلة حيّة أو ميتة في وقت قصير، ولكي تجري جذورها مع بداية فصل الربيع فلا يأتيها الصيف إلا وقد رسخت جذورها، وعادة تجتث فسائل النخل من أمهاتها حيث تخرج من جذوع أمهاتها، ولا تكاد الفسيلة تلامس الأرض حتى تتمدّد منها جذور صغيرة تمتد إلى الأرض، وعندها يجري فصلها عن أمها بطريقة فنّية، تبقى سليمة مع جذورها، وأحياناً تكون الفسيلة مرتفعة عن الأرض، وفي هذه الحالة يقوم الفلاح بتعليق زنبيل صغير ملاصقاً لجذعها ويضع فيه تراباً ويسقيه حتى تتمدّد جذورها فيه ثم يفصلها عن أمها، وبعد أن تكبر

الفسيلة يوضع لها حوض دائري يكبر مع كبرها ويبدأ سقيها، والبعض يغرس شجر الإثل ما بين النخل وذلك لأن جذور الإثل قوية وتغوص في أعماق الأرض، فإذا كبر الإثل أجتثه وبقيت جذوره في الأرض ومتى تآكلت نزلت مع طريقها جذور النخل.

وتتراوح فترة إثمار النخلة، حمله من ٣ ـ ٧ سنوات وربما أقل أو أكثر من ذلك، حسب خصوبة الأرض من عدمها، ويحتاج النخل إلى عناية خاصة من تنظيف حياضة وإضافة السماد البلدي إليها عن طريق الماء والمواظبة على سقيه وخاصة في وقت التلقيح من آخر فصل الخريف حتى دخول الشتاء لمدة حوالي شهرين، كذلك يحتاج إلى تنظيف خوافي الجريد من بقايا التمر حتى لا يحدث فيه تسويس في الموسم القادم، ويحتاج إلى «تشييف» وهي تجريد الجريد من الشوك.

والنخلة شجرة كريمة محبّبة إلى النفوس، لا تجحد الجميل، فبقدر ما يعطيها صاحبها تردّه إليه مضاعفاً، وعندما يرتفع النخل فإن الفلاح أوعامله يصعده بأداة تسمّى «الكَر» وهي مكوّنة من جزءين الجزء الذي يكون على ظهر الرجل يستند عليه عند الوصول إلى فرع النخلة هو نسيج من نوع «السناف» الذي سبق ذكره، أما الجزء الذي يحيط بالنخلة فهو من القِدّ ملفوف على بعضه وبطرفه «زر» يشبك بعروة الجزء الذي يحيط بظهر الرجل، والكر يمسكه الرجل عند صعود النخلة بيديه ثم يبدأ يصعدها خطوة فخطوة حتى إذا استوى في أعلاها وضع الكر على أسفل ظهره ثم يستند برجليه على شطّيب النخلة ويبدأ يعمل بيديه، العمل الذي يريد من لقط الرطب «خراف» أو جذاذ صرام أو تقطيع جريد وغيره، وإذا كانت البساتين بقرب واد فإن لكل صاحب بستان الحق في سق مجرى ساقية يدخل منها جزء من سيل هذا الوادي إلى بستانه أو أرضه ومزارعه وذلك للاستفادة مما يحمله السيل من الطمى «ربو» الذي يزيد من خصوبة الأرض ويوفّر كمية كبيرة من المياه للنخل والأشجار، وعندما يجري سيل هذا الوادي ترى المزارعين وأبناءهم وأقاربهم قد انتشروا حول هذه

الساقية، يلاحظونها عن أي انكسار يحدث بها ويراقبون البساتين بكل دقة حتى إذا امتلأت فإنهم يسدّون الساقية وقطعون الجِبس «العقم» مما يلي الوادي، وعملية السقي من السيل يعتبرها الفلاحون كسباً ممتازاً لا يتأخّرون عن تحصيله مهما كانت التضحية، وربما حدثت بعض المشاكل من جرّاء ذلك خاصة إذا كان السيل قليلاً وكلّ يريده لمزرعته وبساتينه.

◻ موسم حرث الزرع:

وما إن يأتي موسم الحرث حتى يهبّ الفلاحون إلى البقع التي خصّصوها للزراعة في هذا الموسم وخاصة إذا نزلت الأمطار في وقت مبكّر مع دخول الموسم ورغب الفلاحون بذر زرعهم على «العَفِير» وهو بذر الحب على رطوبة المطر. وينقسم الزرع إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول وهو ما يُزرع على المطر، وهو ما يسمّى «البَعْل» ويزرع الناس الشعير في الغالب «بالقيعان» مفردها قاع وهو الصلب المستوي من الأرض الذي يتكوّن فيه الطمي من السيول ولذلك يبقى فيه المطر مدة طويلة ويتقاسم أهل كل بلد القاع الذي يقع بقربهم، حيث يزرعونه وذلك بحرثه فقط بعد البَذْر طبعاً، وخاصة إذا توخّى الناس أن تكون تلك السنة «ربيع» أي كثيرة الأمطار والخيرات، وفي موسم الحصاد كلّ يحصد نصيبه ويتصرّف بغلّته.

النوع الثاني وهو المهم، وهو ما يُزرع على السقي من الآبار الجوفية وغالباً ما تكون المساحات محدودة كلّ حسب قدرته وطاقته وإمكانيته المائية مع أن الأمطار تشجّع على تكبير هذه المساحة ويزرع في كل جزء من هذا المساحة نوع من الحبوب منها القمح الهشّ بأنواعه والقمح الصلب «اللقيمي» والشعير بأنواعه. وعادة يُفصل بين كل نوع وآخر منعاً للاختلاط وذلك للمحافظة على نقاوة أي نوع من الحبوب، وتتم عملية الزرع بتسميد الأرض بالسماد البلدي ثم بَذْر الحَبّ وحرث الأرض بالمحراث «الشرخ» وهو عبارة عن خشبة يبلغ طولها ٣½ ثلاثة أمتار ونصف تقريباً، مشقوقة من طرفها الأمامي ثقب

يدخل منه الحبل «الرشا» الذي تجرّه الإبل أو الثيران وفي مؤخّرة الخشبة قبل نهايتها بحوالي ٨٠ سم ثقب واسع مثبّتة به خشبة مائلة إلى الأمام بطرفها لسان من الحديد، وهو الذي يتولىّ شق الأرض، وفي نهاية الشرخ ثقب رأسي مثبّت به عصا يمسك بها الرجل ويوجّه المحراث في خطوط معتدلة متراصّة حتى لا يبقى جزء من الأرض لم يُحرث، وبعد حرث الأرض بالمحراث يتمّ تقطيعها إلى حياض صغيرة وقنوات «سريان» لسقي هذه الحياض، وذلك بسواعد الرجال باستعمال «المنساف» أو «المسحاة» وتكون هذه الحياض بصفوف متساوية منتظمة تكبر وتصغر حسب درجة استواء الأرض، يفصل بين الواحد والآخر وبينها وبين القنوات عقوم صغيرة تسمّى «مروز» وبعد أن تتم تسوية هذه الحياض من قِبَل مجموعة من رجال الحراث، يتبعهم المفجر «الرايس» وهو الذي يفجر الماء من خلال هذه القنوات الصغيرة ويسقي بها الأرض هذا إذا كانت يابسة، أما إذا كانت الأرض بعد المطر «عفير» فإن المفجر لا يأتي هذه الحياض إلا بعد مدة طويلة قد تمتد إلى أسابيع وربما بعد أن ينبت الزرع ويترعرع، وفي سنين البركات وكثرة الأمطار ربما لا يحتاج الزرع إلى السقي إلا في نهاية عمره.

ويشترك في عملية الحرث الرجل والمرأة، فالمرأة تقود الإبل أو تسوق الثيران وذلك في حالة عدم وجود الأجير «الصبي» وتُطعم الإبل، وتجهّز أكل وشرب الحُرّاث وتحضّره لهم، ويلاقي الفلاحون في موسم الحَرْث التعب والنصب لأنهم يعملون طوال يومهم من طلوع الشمس حتى وقت الأصيل وربما غروب الشمس، ويجري في المزرعة بين الرجال والشباب الكثير من استعراض العضلات والمراهنات في درجة إنجاز العمل، حيث تجرى المباريات في أيهّما يصل طرف المزرعة الأول، وذلك بأن يمسك كل واحد بصف من الحياض تسمّى الجنب ويبدؤ ون من نقطة واحدة من أحد أطراف المزرعة إلى طرفها الثاني، ومَن وصل الأول مع اتّقان العمل فقد كسب الرهان، ويجري في هذه العملية أهازيج يردّدها الرجال تبعث في النفوس النشاط والحيوية، وعملية الحرث عمل جماعي تعاوني يتم من قِبَل المزارعين بدون أجر إلا مَن يستعان بهم من غير المزارعين وأقاربهم فيُدفع لهم أجرهم وعادة يكون رمزياً، ريالاً في اليوم

وربما وصل إلى ريالين أو مقدار من الحبوب وبعض الأحيان تكون الأجرة من الحبوب المؤجّلة إلى ما بعد حصاد هذا الزرع الذي يتمّ حرثه الآن. ويُزرع في موسم الشتاء إلى جانب الحبوب السابق ذكرها البصل والثوم والكراث وعادة تقوم بزراعتها النساء ولها نصيب كبير منها، وتقوم المرأة بزراعة بعض التوابل لحسابها الخاص مثل، الحلبة، والرشاد، والحبة الحلوة، والحبة السمراء، والكمّون، والعصفر، وتُستخدم هذه الأفاوية في تجهيز الطعام وأدوية لبعض الأمراض ما عدا العصفر وهو نبات رأسي زهري يرتفع إلى حوالي ٨٠ سم وزهره كثيف وزهرته صفراء برتقالية مرّ المذاق، وتلتقط المرأة زهوره وتجفّفها وتستخدمه في بعض الأغراض منها خلطه ببعض المساحيق والعطور، وتستخدمه في الزينة لمشط شعرها فيه، ويُكسب الشعر لوناً أشقراً وطراوة، ومرارته تساهم في قتل الجراثيم التي تعيش في فروة الرأس أحياناً. ونجد من يتغنّ بهذا الشعر الممشوط بالعصفر، إذ يقول:

٣ ــ أصفر معصفر ليت محسن يشوفه
تـوّه على حد الغرض ما بعد لمس

(الماشطة)

بهذه الصبورة يكون الزرع قد تمّ حرثه في موسم دخول الوسم في آخر فصل الخريف وقبل دخول أربعانية الشتاء، وربما تأخّر إلى نصف الأربعانية ولكن زرعها يكون أقل جودة من زرع الوسم.

□ موسم سقي الزرع:

بعد أن ينتهي الفلاحون من موسم الحرث ويلتقطوا أنفاسهم تبدأ عملية السقي التي تستمر خمسة أشهر ونيّف هذا مع عدم هطول الأمطار، أما إذا هطلت الأمطار فإنه يحصل فيها فترة راحة بين الحين والآخر تسمّى «إناخة» أي إناخة الإبل عن السّـني. ويُعتبر سائق السواني ومفجّر الماء «الرائس» هما

العمود الفقري لفترة سقي الزرع، حيث يبدأ سائق السواني العمل في الهزيع الأخير من الليل:

وخلفها سائق يحدو إذا خشيت
منه اللحاق تمد الصلب والعنقا[1]
(زهير بن أبي سلمى)

ولما كانت الساعة لم تنتشر آنذاك فإنه يتم التوقيت بطلوع أو أفول بعض النجوم المشهورة مثل الثريا، والجوزاء، والشعراء، والرقيب، والتويبع، وغيرها. ونجد الشاعر يسوق مثلاً على ذلك:

٤ ـ أو وجد من صدر على أربع محاحيل
لها لياغاب الرقيب إمعلومي[2]

٥ ـ صدر على أربعماية كلها كيل
حب حمر تسقي نواحيه كومي

٦ ـ أربع عقايبها أربع كنس حيد
يشيلن ألما في وساع الكمومي

ثم يشدّ سوانيه ويبدأ في نزف الماء من البئر ويملأ الجابية خزّان الماء، قبل أذان الفجر ثم يستريح مع سوانيه قليلاً حتى إذا أدّى صلاة الفجر استأنف العمل، وعندها يبدأ مفجّر الماء عمله بفجر الماء من فتحة صغيرة تسدّ عادة بقطعة صغيرة من الحجر أو القماش تسمّى السدّة «القراعة» ويوضع فوقها شيء من طين الجابية اللزج ويستمر العمل إلى صلاة الظهر عندها يستمتع براحة ساعة واحدة ثم يستأنف العمل مرة أخرى إلى الليل وأحياناً يستمر عمل سائق

(١) ديوان زهير.
(٢) ديوان سويلم السهلي.

السواني ومفجر الماء من صلاة الفجر وحتى صلاة العشاء الأخير، خاصة إذا كان الزرع في مراحله الأخيرة «الشربة» وتستمر عملية السقي خمسة أشهر كما أسلفنا، منها ثلاثة أشهر منذ البداية بدرجة متوانية وذلك بسبب صغر حجم شجيرات الزرع من ناحية ولبرودة الجو من ناحية أخرى، ثم يأتي الشهران الأخيران وهما وقت الشدّة في سقي الزرع ويسمّيها الفلاحون «الشّرُبَة» وقد عبّر عن فترة سقي الزرع أحد أبناء هذه البيئة أصدق تعبير، حيث يقول:

٧ ـ سقي على ماهان تسعين ليلة
وشهر وعشر ما لماه افتور

٨ ـ ومن عقب عشرين تدانا أوايله
تلقى العشا من مير كل بكور

وآخر يقول:

٩ ـ ومن لا يسقى كنه الصيف زرعة
فهو مفلس منها نهار الحصايد[١]
(راشد الخلاوي)

ويتحمّل الفلاح ومعاونوه طيلة فصل الشتاء البرد القارس والزمهرير اللاذع وخاصة السائق والمفجر، لأنهما أشد عرضة للبرد من وقت اشتداده من الصباح الباكر وحتى الأصيل المتأخّر مع ملامسة الماء وشحّ بالملابس التي تجلب الدفء، وأحياناً قلّة في الأكل الذي يولّد الطاقة الحرارية الكافية، ورغم هذا فهم من القوة والنشاط والحيوية بدرجة عالية. وعادة يستأجر الفلاح سائق السواني والمفجر لفترة الزرع كلّه من موسم الحرث وحتى موسم الحصاد بمبلغ زهيد نسبياً، ويتراوح المبلغ من ٥ ـ ١٥ ريالاً للفرد لكل هذه المدة، وربما زاد أو نقص عن هذا المقدار قليلاً، إنما في هذا البحر، بالإضافة إلى الأكل والشرب

(١) راشد الخلاوي، ص ٣٠٦.

لدى صاحب العمل وقد يكافئهما الفلاح بشيء من الملابس أو بكمية بسيطة من الَحب، وأحياناً يتولىّ عملية السياق والتفجير اثنان أو أكثر بالشراكة والتضامن فيما بينهما بما يساوي عشر الثمرة لكل منهما نصف العشر أي أن حصتهما تساوي ١٠٪ من غلّة الزرع، ويتحمّل صاحب العمل كافة الالتزامات الأخرى عدا طعامهما وأحياناً يتحمّله وتسمّى هذه العملية «العُمَالَة».

□ موسم الفلاة:

تعدّ «الفلاة» وهي جمع الأعشاب والحشائش من البر وإحضارها لإطعام الإبل والمواشي الأخرى، الركيزة الثانية للفلاح إذ بدون تغذية السواني لا يمكن أن تستمرّ بالعمل المضني وبالتالي يتأثّر الزرع، والفلاة يقوم بها الرجل والمرأة جنباً إلى جنب حيث يذهبون في مجموعات، الرجال على حدة والنساء على حدة، يمتطون ظهور الحمير وأحياناً الإبل، وذلك قبيل أذان الفجر الأول، وربما حصل اختلاط في طريق الذهاب أو العودة، أو في البر لكنه اختلاط عمل نزيه لا شائبة فيه، يحكمه الخوف على النساء من عناصر خارجية، فتراهن بقرب الرجال، وربما حصل شيء من الإعجاب بين طرف وآخر لكنه لا يتعدّى الإعجاب فقط، تحت احترام للتعاليم الدينية ومراعاة للعادات والأعراف السائدة، وتذهب هذه المجموعات من «الفلالي» إلى البر يتقفّرون رياضه، وينتجعون مسائله ويقطفون زهوره، يملؤون جوانحهم من أريج الرياض العبقة بمختلف شذا الزهور وأفانين الأعشاب العطرة، يجوبون تلك الرياض تطير من أمامهم مجموعات من الطيور البرّية المغردة التي تصدح بأنغامها العذبة فرحة مستبشرة من الصباح وحتى المساء، يستفزّون الأرانب البرّية واليرابيع، فتفزّ أمامهم تذرع الأرض بقفزاتها الرائعة، وينفرون جول الظباء والغزلان من بعض المواقع فتحتدم نافرة تسابق الريح هاربة من جَلَبَتهم، وعندما يصلون إلى المكان المختار ينزلون عن ظهور الدواب ويخرجون ما في خروجهم من «مطبقيات» التمر والمراصيع ومختلف أنواع الأكل مع قِرَب صغيرة من الماء وصملان صغيرة من اللبن، وبعد أن يأكلوا ما يشتهون، يبدأون تحدوهم الرغبة في سرعة إنجازه،

وتستحذّهم نشوة وجود الجنسين في مكان واحد وعمل واحد، وكلّ يريد إظهار قوّته وحذقه ومهارته في سرعة تجميع العشب وتحصيل أكبر كمية منه على مرأى من الجنس الآخر.

وتعبّر إحداهن عن الفلاة بقولها:

١٠ ـ أمس فلينا من الريعان
من ريع سرهيد بالغالي

١١ ـ متخالط به زهر حوذان
واعنوق رقم وقحوان
(ثريا المطرية)

ويحصل أثناء الفلاة نوع من الدعابة والغناء أثناء العودة، يتميّز بأبيات خفيفة الإيقاع التي تبعث النشوة والنشاط في النفوس، وتساعد على قطع المسافات الطويلة التي يقطعونها مشياً على الأقدام بعد تحميل الحمير بالعشب، وتتراوح المسافة التي يقطعونها في طريق العودة ما بين ٥ ـ ٣٥ كيلًا، وربما تزيد المسافة أو تنقص حسب تواجد العشب، ويستخدمون في التقاط العشب المخلب في اليد اليمنى مع اليد اليسرى و«اَلمكرّة» عندما يكون العشب كثيفاً وفي مكان صلب، ويتمّ تجميعه بالعباءة، وهي تشبه العباءة العادية إلا أنها من القماش، فإن كان الوقت في بداية موسم الفلاة فيوضع العشب على ظهور الدواب بالعباءة أو «الشنيف» وهو نسيج من الصوف من طبقتين بطول مترين إلى ثلاثة أمتار وعرض متر تقريباً، وإن كان العشب كثيراً فيُعبّأ بالشبكة، يُنضّد عليها على شكل مستطيل مكعّب طوله من ٢ ـ ٣ متر وعرضه متر واحد وارتفاعه من متر إلى متر ونصف، يعني ٣، ٣ × ١ × ١,٥ م ثم يحمّل على ظهر الدابة فوق الخرج و«الوثارة» البردعة التي تثبّتها على ظهر الدابة ويمسك بالشبكة الملآنة صاحبها بعض المسافة حتى تعتدل ثم يتركها ويراقبها باستمرار، ومتى رآها قد مالت، قام بتعديلها حتى يصل إلى بيته،

فيأخذ جزءاً من العشب الطري علفاً للسـواني والباقي ينشره في مساحة بقرب البيت حتى يجفّ ثم يخزنه في غرف خاصة بالعلف لموسم الصيف، وهناك ممن لا فلاحة لهم فإنهم ينشرون كامل ما أحضروه من العشب ويخزنونه ليتمّ بيعه على الفلاحين في فصل الصيف إما بمبلغ من المال، أو بكميات من التمر في موسم الجذاذ يكتنزونها كجزء من مئونة المنزل السنوية. وكما أن البر يعبق بريح مختلف الأعشاب والحشائش والأزاهير كذلك الحال بقرب البيوت عند مناشر العشب تتضوّع أصناف الروائح الزكية المنبعثة من العشب المنشور يضاهي شذاها رائحة دكان أكبر العطّارين. وأنواع العشب التي يتم إحضارها في أوقات مختلفة من السنة، وهي تكوّن الغطاء النباتي لتلك البقعة مع أنواع الحشائش التي ترعاها المواشي في مكانها. كالآتي:

الرَّبْلَة: وهي شجيرة صغيرة لها أوراق عريضة، ترتفع عادة عن الأرض من ٥ ــ ١٠ سم وربما أكثر، خضراء ضاربة إلى الزرقة، لها سنابل بارزة مفيدة جداً للإبل والغنم ومختلف المواشي ومدرّة للّبن، طيّبة الرائحة تنبت في الأراضي الليّنة.

النّفَلْ: وهو شجيرة تسبح غصونها على الأرض بامتداد قد يصل إلى المتر، لها رائحة فوّاحة وزهورها صفراء صغيرة، وتحبّها الابل والغنم وجميع المواشي، مدرّة للّبن تنبت في الأراضي اللينة.

الْحَوْذَان: شجيرة بارزة ترتفع عن سطح الأرض بمقدار ١٠ سم وربما أكثر، ولها أوراق عريضة ولها أزهار صفراء كثيفة ذات رائحة طيبة، مدرّة للّبن، تحبها جميع المواشي، تنبت في الأراضي الليّنة.

الأقْحَوَان: شجيرة لها أوراق خضراء ضاربة إلى الزرقة أوراقها صغيرة، ولها زهور بيضاء جميلة بوسطها نقطة صفراء، ويشبّه الشعراء قديماً وحديثاً أسنان

النساء بزهرة الأقحوان لما لها من تناسق وشدّة بياض، وهي طيّبة الرائحة تأكلها جميع المواشي، مدرّة للّبن، تنبت في الأراضي اللينة.

الخُزامَى: وهي شجيرة صغيرة ترتفع عن الأرض قليلاً بمقدار ١٠ سم وربما أكثر، ولها زهور وردية صغيرة وكثيفة، عطرية الرائحة وأوراقها صغيرة، وتحبها الإبل وجميع المواشي، تنبت في الأراضي اللينة.

الخَطْمِي: هي شجيرة تشبه أوراق النفل، غير أنها ترتفع إلى أعلى ويبلغ ارتفاعها من ٥ ــ ١٠ سم، ولها رائحة عبِقة طيّبة، وتستخدمها النساء في مشط شعورهن لطيب رائحته، تحبها المواشي كلها، تنبت في الأراضي الصلبة «القاع».

القَفْعَاء: شجيرة ذات أوراق صغيرة خضراء تميل إلى الرمادية تسبح على الأرض، وثمرها قرون تشبه الخواتم، تأكلها الإبل وكل المواشي، وتنبت في الأراضي الليّنة والصلبة.

الحُمَّاض: شجيرة كبيرة نسبياً ترتفع من ١٥ ــ ١٠٠ سم، وتبقى في مسائل الجبال ولها أوراق كبيرة مكتنزة بالماء ولها غصون ريانة بالماء، طعمها حامض لذيذ يأكلها الناس وتأكلها المواشي، وهي مدرّة للبن ولها زهر أحمر جميل، طيّبة الرائحة.

الجَهَقْ: شجيرة كبيرة نسبياً ترتفع عن الأرض من ١٠ ــ ٥٠ سم ولها ورق متوسّط ولها أغصان طويلة، لها زهر بنفسجي كثيف، طيّبة الرائحة، يأكلها الناس شبيه طعمها بطعم الجرجير لكنها أقوى نكهة وأكثر لذعة للّسان، تأكلها المواشي كلها، وتنبت في مسائل الجبال وفي لوح الجبل وتغطّي كامل الجبل أحياناً بزهورها البنفسجية.

الصَّمْعَاء: شجيرة ترتفع إلى أعلى، لها ورق شبه شوكي ولها حَبّ برأسه

شوكة حادّة تسمّى «سملول» أو «سفا» والصمعاء تحبّها ذات الحافر، الخيل والحمير، لا تملّ أكلها رغم شوكها، وتأكلها بقية المواشي، وشوكها شديد الوخز، ويصف الشاعر بعد النوم عن عينيه وكأن بها شوك الصمعاء «السماليل» حيث يقول:

١٢ ـ البارحة ياشعيل ياحيل أباالحيل
والعين عن نوم المخاليق فرّة

١٣ ـ ماكن به ياشعيل شوك السماليل
وإلا النويفج لافها عقب ذرّة
(خضيري الصعيليك)

وتنبت الصمعاء في الأرض اللينة والصلبة على حدّ سواء، وتكون كثيفة النبت ورائحتها مقبولة.

القُرَّيْص: شجيرة ترتفع عن الأرض، ورقها صغير ذو رائحة طيّبة، يأكله الناس له نكهة طيّبة ولذعة قارصة للّسان، وله زهر أصفر كثيف تأكله الغنم وجميع المواشي، ، مدرّة للألبان وتنبت في مسائل الجبال والشعاب الصغيرة.

السُّمَيْسِمَان: شجيرة صغيرة ذات أوراق شبه شوكية، تنبت في الأرض الليّنة، تحبها ذوات الحافر، رائحتها مقبولة.

الحُمّصِيص: شجيرة ترتفع عن الأرض بمعدّل ٥ ـ ١٠ سم ولها أوراق أنبوبية، طعمها حامض ونكهتها طيّبة، لها زهور حمراء وصفراء، يأكلها الناس وتأكلها جميع المواشي وتنبت في الأرض الليّنة الرملية كعروق النفود ودعوص الرمل.

المكَرْ: شجيرة صغيرة ذات أوراق صغيرة شهباء وغصون تسبح على الأرض على امتداد ٣٠ سم وهي من بنت آخر الربيع «الصيف» وتنبت في الأرض الصلبة والليّنة، وتكثر في مسائل الأودية وتحبها الإبل وكافة المواشي.

الحِلَّبْ: شجرة تمتد على الأرض وتلتصق بها، ذات وريقات صغيرة تحمل على غصونها لبناً أبيض تحبها الظباء والغزلان والماعز، وليس لها رائحة بيّنة، وهي مدرّة للألبان وتأكلها جميع المواشي.

الخُبَّيزْ: وهي شجيرة ترتفع عن الأرض من ٥ ــ ٤٠ سم لها أوراق مستديرة ولها أغصان تسبح على الأرض، رائحتها مقبولة وطعمها مقبول، لزجة يأكلها بعض الناس وتأكلها جميع الحيوانات، تنبت في المزارع وقرب موارد الماء ومراح الغنم.

الحَنْوَة: شجيرة ترتفع عن الأرض بمقدار ٥ سم ولها أزهار صفراء، طيّبة الرائحة تأكلها الأغنام، وتنبت في المزارع بشكل كثيف وهي تضايق الزرع.

المِرَارْ: شجيرة ترتفع عن الأرض من ١٠ ــ ٣٠ سم وهي شوكية سواء في أوراقها أو في زهرتها، لها زهرة صفراء محاطة بصفّ من الأشواك العاسلة، لا يستطيع أكلها إلا الإبل، تنبت في الجبال وفي مسائلها، رائحتها طيّبة.

الْكَحَلْ: شجيرة ترتفع عن الأرض من ١٠ ــ ٣٠ سم مغطّاة غصونها وأوراقها بدبابيس شوكية دقيقة ولها زهر أحمر وأرجواني، تنبت في الجبال، وتأكلها الإبل، رائحتها طيّبة.

الذّعْلوق: شجيرة ذات أوراق شبه شوكية ترتفع عن الأرض، يأكلها الناس وتأكلها المواشي، ولا رائحة لها، وتنبت في الأرض الصلبة في المسائل والشغايا.

حُوّاء البُقَّير: شجيرة ذات أوراق طويلة تنفرش على الأرض وتلتصق بها، ولها زهور صفراء، ويحبها الناس ويأكلونها، أوراقها لبنّية لذيذة الطعم نكهتها طيّبة، وتنبت في الأرض الليّنة وقرب دعوص الرمل، تأكلها المواشي وهي مدرّة للألبان.

حُوّاء البَوْ: شجرة ترتفع عن الأرض بمقدار ٣٠ ــ ٤٠ سم ولها أوراق عريضة تشبه ورق الخس، لها زهر أصفر، يأكلها الناس، لذيذة الطعم طيّبة النكهة، تنبت في الجبال.

الدَّرْبيَا: شجيرة ترتفع عن الأرض بمقدار ٣٠ ــ ٤٠ سم، لها أوراق وأغصان مكسوّة بدبابيس شوكية دقيقة، ولها زهر أزرق صغير، رائحتها طيّبة، تنبت في الجبال وفي مسائل الشفايا، وتأكلها الإبل.

الفُنُوْن: شبيهة بشجرة الدربيا إلا أنها أصغر شجرة، وزهرها أصفر، وتحبها الإبل، وتنبت في الأراضي الليّنة.

السَّعْدان: شجيرة ذات أوراق صغيرة وأغصان تتمدّد على الأرض وبها شوك دائري وأغصانها ما دامت طريّة، طيّبة الطعم لزجة، تأكلها المواشي وهي من نبات آخر الربيع وتنبت في الأراضي الصلبة. ولا رائحة لها.

الْغُرّ: شجيرة ترتفع عن الأرض بمقدار ١٠ ــ ٢٠ سم ولها أوراق شهباء يكسوها الحماط، وهي من نبت آخر السنة وتبقى حيّة إلى آخر الصيف، تنبت في المسائل والشفايا، ويأكلها ذات الحافر، الخيل والحمير.

الشَّرشِير: شجيرة تسبح غصونها على الأرض وقد تبلغ المترين أو أكثر وتنثر شوكاً كثيفاً حادّاً، وتنبت بقرب المزارع وحول تدفّق المياه، وتأكلها بعض المواشي عند الحاجة.

الجَنْبَةُ: شجيرة ترتفع عن الأرض قليلاً شوكية تنبت في الأرض الصلبة، وتأكلها المواشي عند الحاجة، ولها فائدة طيّبة لتسليك المجاري البولية، ولا رائحة لها.

الغَرَزْ: شجرة لها جذور ثابتة، أغصانها ترتفع بما يقارب ٥٠ سم وفي

رأسها سنابل صغيرة، وهي من الحشائش المفضّلة للإبل والخيل وجميع المواشي، رائحتها طيّبة، وتنبت بالشغايا ومسائل الجبال، وهي من نبت آخر الربيع وتبقى حيّة حتى آخر الصيف.

النّصِي: هي شجيرة ترتفع عن الأرض من ١٠ ـ ٣٠ سم ولها غصون وسنابل مرتفعة يعلوها زغب أبيض كالحليب، رائحتها طيّبة، تفضّلها الخيل والإبل وجميع المواشي، وتنبت على الأرض الليّنة وعلى الوهاد والرياض والأكمات والجبيلات الصغيرة، وهي كثيفة النبت وتغطّي كامل الحزون وترى لتموج النسيم فوق شجيرات النصّي الأبيض منظراً غاية في الروعة والجمال، وهي من نبت آخر الربيع وتستمر إلى منتصف الصيف.

الْقُبَـة: وهي شبيهة بالنّصي إلا أنها أطول أغصاناً وأخضر لوناً وأقل زغباً على سنابلها ولها تقريباً نفس الميّزات التي للنّصي إلا أن النّصي أحَبّ إلى المواشي منها، وتنبت في الجبال والنفود والشغايا. ورائحتها تختلف عن النّصي بأنها أقل طيبة.

الصَّحَا: شجيرة ذات جذور ثابتة لها أعواد وأوراق ترتفع من ١٠ ـ ٣٠ سم، برأسها سنابل مكسوّة بزغب، تحبّها الإبل والخيل وكافة المواشي، طيّبة الرائحة، وتنبت في الجبال والمسائل وهي من نبات آخر الربيع وتبقى حيّة إلى منتصف الصيف.

الضِّعَةْ: تشبه الصّحا إلا أنها أكثر خضرة ولا يعلو سنابلها زغب، بل هناك سفا بدلاً منه، وتنبت في النفود وهي من نبات الصيف، وتحبها جميع المواشي وخاصة الإبل والخيل.

الأذْخِرْ: السخبر شجيرة لها جذور ثابتة تتحمّل العطش، وتنبت بكثافة في الشغايا والمسائل، ولها رائحة عطرة، وترتفع أعوادها وأوراقها من ٥٠ ـ ١٠٠ سم وتأكلها المواشي عند الحاجة.

الْجَعَدْ: شجيرة عطرية لها جذور ثابتة ولها أغصان مثبّت عليها أوراقها الخضراء المائلة للبياض بسبب زغب قصير عليها، رائحتها عَبِقة وترتفع من ٣٠ ــ ٥٠ سم، وتنبت في الجبال والشغايا والمسائل، وتأكلها المواشي كلّها، تتحمّل العطش، وتبقى على مدار السنة حيّة.

الجُرَيْبا: شجيرة ذات حماط عالق بها ومتى لمستها انتقل إليك شوكها، لها زهور زرقاء صغيرة ولها أغصان وأوراق ترتفع من ٣٠ ــ ٤٠ سم، وتنبت في الجبال ولا تأكلها المواشي إلا عند الحاجة، وهي دائمة حيّة على مدار السنة.

النّتَش: شجيرة شوكية تنبت في المسائل، لها زهور زرقاء غير أن ورقها شوكي وأغصانها شوكية، ولا تأكلها المواشي إلا عند الحاجة.

الخِضْر: شبيهة بشجيرة الجَعَد إلا أن لونها أخضر وأقل رائحة منه، وتنبت بنفس منابته.

الجرًيد: شجيرة ترتفع عن الأرض قليلاً بمقدار ١٠ سم ولها رائحة طيّبة، وتنبت في الرياض الصلبة نوعاً ما ، وهي دليل على وجود مواطن الكمأة، حيث تنبت بالرياض التي تنبت فيه الكمأة، وتأكلها جميع المواشي وهي من نبات أول الربيع.

الْجَفِنْ: شجيرة ذات غصون بيضاء ووريقات خضراء أنبوبية، وترتفع بمقدار ٣٠ سم، وتنبت في الجبال، وتأكلها المواشي عند الحاجة وتحبّها ذوات الحافر.

الصُبَطْ: شجيرة ترتفع عن الأرض من ٣٠ ــ ٥٠ سم لها أوراق وأعواد برأسها سنابل مكسوّة بنوع من الزغب، ولها رائحة طيّبة، ومنابتها في الأرض الليّنة والنفود، وتأكلها جميع المواشي.

العَاذِرْ: شبيه بالصّبط إلا أن شجيراته أصغر حجمًا وأخضر لوناً وأسرع نباتاً وتنبت في أماكن صلبة نوعاً ما.

الْعَرْفَج: شجيرة متوسّطة ذات عيدان بيضاء تكسوها وريقات خضراء، يتوّجها زهور كثيفة صفراء عطرية الرائحة، تنبت في الرياض والوديان والشغايا، وتحبها الإبل والخيل وجميع المواشي وتبقى حيّة على مدار السنة.

الشِّيحْ: شجيرة متوسّطة عطرية عَبِقَة الرائحة ترتفع عن الأرض ما بين ٢٠ ـ ٤٠ سم وهي من الشجيرات الثابتة، تبقى حيّة على مدار السنة، أوراقها خضراء شهباء، تأكلها الإبل والخيل، مرّة المذاق، تنبت في الرياض و«السحق» وهو المستوى الصلب من الأرض، وإذا يبست أغصانها فهي سريعة الاشتعال، حيث يقول المثل «شبّ بالشيح وقبله الريح» ولها فائدة طبّية لعسر الهضم وغيرها.

الْبُعَيْثِران: شجيرة عطرية طيّبة الرائحة لها أغصان تكسوها وريقات خضراء تميل إلى البياض، ولها زهور صغيرة ترتفع عن الأرض من ٣٠ ـ ٥٠ سم، وتأكلها بعض المواشي عند الحاجة، وتنبت في الوديان والشغايا والمسائل، وتبقى حيّة على طول السنة ولها فوائد طبّية لبعض الأمراض الباطنية.

القَيْصُوم: شجيرة عطرية طيّبة الرائحة لها أغصان تكسوها فروة رقيقة وعليها وريقات خضراء، وتختلف رائحتها عن رائحة البعيثران، وتنبت بالمسائل والوديان والشغايا، ولها زهر أصفر بقدر حبّة الحمص وهي مرّة المذاق وتأكلها الإبل عند الحاجة، ولها فوائد طبّية للجهاز الهضمي.

العُهَّيْل: شجرة شبيهة بالقيصوم في كافة مميّزاتها، غير أنها تختلف في اللون فلونها أخضر ضارباً إلى الزرقة وزهورها زرقاء ورائحتها تختلف عن رائحة القيصوم.

السَليحْ: شجيرة لها غصون تنفرش على الأرض لمسافات طويلة قد تصل المترين، لها وريقات متناثرة على الغصون الطويلة، تأكلها الإبل والمواشي، وليس لها طعم معينّ، ورائحتها مقبولة.

الدّيْدَحانَة: عروس المسائل، شجيرة ذات أوراق عريضة وأزهار كبيرة حمراء، قد يصل قطر الزهرة ٢٠ سم وبنهاية أوراقها وأزهارها شوك وترتفع عن الأرض من ١٠ ــ ٥٠ سم، وتراها من بعيد بارزة بأزهارها الحمراء الغامقة، رائحتها مقبولة ولا تأكلها المواشي، غير أن منظرها من بين هذه الأعشاب رائع جداً، وتنبت في المسائل والشعاب والشفايا، وقد شبّه الشاعر مطيته بها، حيث يقول:

١٤ ــ يـا راكب حمراء بـراسة صعـالـة
هي منـوة الطارش ليـا صنقر الـلال

١٥ ــ حمـراء ولا لمس الحـويـر مشـالـه
ولا قـلطه لمقـطب الحـمـل جمـال

١٦ ــ كـالـدَيـدَحـانـة يـوم تنـظر دلالـه
ليـاشاف وصفـه مولـع الهجن يهتـال

(عبد الله القضاعي)

السِّلاَّ: شجيرة كبيرة من الأشجار الشوكية تنبت في الجبال والشغايا والمسائل ولها زهر أزرق صغير، وترتفع عن الأرض من ٣٠ــ ١٢٠ سم، وتأكلها الإبل وقت الحاجة.

الصِّلْ: شجرة شوكية شبيهة بالسّلا من جميع الميّزات مع اختلاف في الأوراق والأغصان والرائحة.

القُرْضا: شجرة لها غصون طويلة وأوراق صغيرة، ترتفع عن الأرض بمقدار متر فأكثر، وتنبت في مراكد المياه وبقرب النفود ولها رائحة طيّبة، وطعمها له لذعة باللسان، وتأكل الإبل من غضّ أغصانها عند الحاجة، ولها زهور صغيرة صفراء.

الثُمَام: شجيرة عودية طويلة الغصون صغيرة الأوراق لها سنابل صغيرة ترتفع من ٥٠ ــ ١٥٠ سم، رائحتها طيّبة، وتنبت في المسائل والشعاب والرقيق من الأرض، وتأكل الإبل من غضّ أغصانها.

التَّرْبَة: شجيرة صغيرة تتمدّد أغصانها على الأرض وتكاد تنطمر بها وتمدّد أغصانها من ١٠ ــ ٣٠ سم، وتنبت بالأرض الليّنة وقرب البراخيص الرملية، وتأكلها المواشي إذا لم تجد غيرها.

حِنْبَازْ: شجيرة صغيرة لها جذر غليظ مثل جذر الفجل سكّري المذاق، لها أوراق كبيرة وغصون تتمدّد على الأرض، وتنبت في الأرض الليّنة، ويأكل الناس فصوصها في سنوات الشدّة، وتأكلها المواشي.

بَرْوَقد: شجيرة ترتفع عن الأرض، لها أوراق طويلة تشبه ورق البصل، ولا طعم لها ولا رائحة، ولها زماليق طويلة، وتنبت في الأرض الليّنة ولا تأكلها أي من المواشي، وبعض البادية يضعون أوراقها بعد تقطيعها وطبخها مع الأقط، فتكسبه مذاقاً معيّناً، وارتفاعها عن الأرض من ١٠ ــ ٥٠ سم.

الصِّفَارْ: شجيرة طيّبة الرائحة كثيفة الأزهار لها أوراق عريضة وغصون مرتفعة بمقدار ١٠ ــ ٤٠ سم، ورائحتها طيّبة، أزهارها صفراء كثيفة تنبت في الأرض الليّنة وتأكلها الإبل وجميع المواشي.

الدَّعَاعْ: شجيرة تمتد أغصانها على الأرض وتكاد تلتصق بها، كثيفة النبت، لها وريقات دائرية صغيرة مملوءة بالماء ولها زهر أصفر تنتج حباً أسمراً

صغيراً أصغر من حَبّ السمسم، يتّخذ منه بعض الناس غذاء في سنوات الشدّة، وتنبت في الأراضي المستوية الليّنة وبالقيعان، وحَبّ الدعاع يُعمل منه أرغضة سمراء وعصيدة سمراء لكنها لذيذة ومغذّية، يعيش عليها طبقة من الناس في أوقات الشدّة بعد تصفيته من أشجاره.

السَّمِحْ: شجيرة ترتفع عن الأرض بمقدار ٥ ــ ١٥٠ سم، لها أوراق أنبوبية مملوءة بالماء، تنبت في مواطن شجرة الدعاع أو بالقرب منها، وتنتج حَبّاً بنّيّاً يصفّى من أشجاره ويطحن وتُعمل منه الأرغفة والعصيدة السمراء وهي لذيذة أيضاً ومغذّية، ويلجأ إليها الناس وقت الحاجة. ويستفاد من أوراقها في التنظيف قبل انتشار الصابون.

الفُوَيغِرَة: شجيرة قريبة الشبه من السّمح إلا أنها ملفوفة على بعضها، وتنتج حَبّاً أسمراً يُستفاد منه كسابقيه، وهي تنكمش على حَبّها حتى يأتيها الماء ثم تنثره بدون أي مجهود، وتنبت في الأراضي الصلبة في القيعان ومسائل الشغايا.

الرِّمْث: شجرة تغطّي مساحات كبيرة وهي من الشجر الدائم، وترتفع عن الأرض من ٥٠ ــ ٢٠٠ سم، وهي من الغطاء النباتي في الجزيرة العربية، ويُستفاد منها كحطب، حيث أن حطبها طيّب الرائحة عندما يكون على النار، وتأكل منها الإبل في الصيف كنوع من الحمض وجذوع الرمت «الحفائر».

الرُّوثَة: تشبه شجرة الرِّمث إلا أنها أصغر منها حجمًا وأقل انتشاراً، لا تنبت إلا في أماكن معيّنة في شمال نجد وتحبّها الإبل في الصيف وتأكلها بعض المواشي.

قتاد: وهو شجيرة شوكية لها ورق صغير ولها شوك طويل عاسل، وتنبت في الأودية، ويُضرب بها المثل في كثرة الشوك وحدّته، ولها زهر على شكل فقّاعات زهري اللون يميل إلى البياض، ويستفاد منها في سني الجدب بتقطيعه ثم يعرّض للنار، بحيث تأكل شوكه وتبقى الأغصان المحتوية على مادة لزجة، تأكله الإبل والخيل والحمير عند الحاجة.

□ ـ موسم الحصاد:

وكما أن لكل جهد ثمرة يجنيها مَن قام بهذا الجهد فإن الحصاد يُعتبر ثمرة جهد الفلاح لمدة خمسة أشهر متواصلة من العمل الشاقّ الدؤوب، ويستبشر الفلاحون بقدوم هذا الموسم، فإذا اصفرّ الزرع واكتسب اللون الذهبي فمعنى هذا امتلاء سنابل القمح بفصوص الذهب الأحمر، واكتنزت سنابل الشعير بالحبوب المتراصّة ومالت سنابل القمح الصلب «اللقيحي» بما أثقلها من الفصوص الذهبية الصفراء، عند هذه البوادر يظهر على الفلاح علامات الاستبشار، فيبدأ بحصاد الشعير أولاً، ثم القمح الطري بعده ثم اللقيحي وهو الأخير وذلك باشتراك الرجل والمرأة في هذا العمل الجماعي التعاوني، الذي يقوم به الفلاحون وذووهم وجيرانهم بعملية الحصاد في صفوف متراصّة، بحيث يحصد كل منهم جنباً من الزرع، صف من الحياض ابتداء من طرف المزرعة إلى طرفها وذلك باستخدام المخلب، المنجل، حيث يخلّفون وراءهم أكواماً متراصّة من الزرع تسمّى «غموراً» وأثناء عملية الحصاد يردّدون بعض الأهازيج المعبّرة عن الفرحة والسرور التي تملأ النفوس، مثل:

١٧ ـ يـا فـرحَـتي بـالـغـالي
مَــن سَـهّـرَن لـيـالي

١٨ ـ نَـبْـدا بـحـصـد الحَـبّـي
بَـارِك لـنـا يـا ربيّ

وتجرى مسابقات في الحصاد تشبه مسابقات الحرث بين فريق وآخر، ومن يستطيع الوصول إلى آخر الزرع أو القطعة قبل الأول يكسب الرهان، وتستمر عملية الحصاد من الصباح الباكر مع طلوع الشمس حتى أذان الظهر، وبعد صلاة العصر حتى غروب الشمس وفي نهاية كل فترة يجمع الحصّادون ما تركوه من «غمور» في كدوس واقفة رأسياً على جذوع القصب والسنابل تكون إلى أعلى، بحيث يصبح كل كدس «تكس» على دائرة قطرها يتراوح بين ٢ ـ ٣ متر

وتُجمع الكدوس في أماكن متقاربة من بعضها أو تكون بجانب «المِـدْرَس» وهو ما يُدرس فيه الحَبّ، هذا بالنسبة للشعير. أما القمح فأحياناً يضعونها بيادر وهي أن يطرح القصب في دائرة أفقية تكون السنابل إلى الداخل وجذوع القصب إلى الخارج، على دائرة قطرها من ٢ ـ ٣ متر وذلك للمحافظة عليه من أكل البهائم، غير أن عيب هذه الطريقة في حالة هطول أمطار عليها أن يلحقها ضرر بما يعلّق بالحَبّ من «الجفر» وفي موسم الحصاد يستفيد مَن ليس له زرع بأن يساعد الفلاح مقابل أن يعطيه عن كل يوم «غمر» حضن، وهو ملء ما بين يديه مما على الأرض من الزرع للرجال والنساء على السواء، وحتى الصبية والصبايا الصغار يذهبون إلى مكان الحصيدة ليحصلوا على «الغمر» من الفلاح مجاناً، الذي يوزّع عليهم بكل سرور قبضات متوسّطة من الزرع في جو يغمره الفرح والدعابة مع الصغار، فينصرفون فرحين مسرورين بما حصلوا عليه. ويخصّص الفلاح لمن يريد مبرّتهم، أو من يتعاونون معه كراعي الغنم وراعي الإبل والنجّار والحداد وخادم الأمير وسائق السواني ومفجر الماء وغيرهم «غمر» لكل واحد منهم في وقت الحصـاد، يستفيدون منهـا ويحتوي «الغمـر» من ٢ ـ ٣ أصواع حَبّ، وفي السنوات الصعبة نجد موسم الحصاد موعداً لانفراج الأزمة الغذائية، فنجد بعض الناس يبدأ بفرط السنابل الرطبة ويجفّفها ثم تُطحن وتُطبخ ليأكل منها بعد ذلك، وفي موسم حصاد الشعير يتم فرط سنابل الشعير الرطبة ثم تحميصها وطحنها ثم خلطها بمريسة التمر مع شيء من السمن البرّي لتصبح «بسيسة» وهي ذات مذاق لذيذ ونكهة فاخرة وغذاء مفيد، أما عند حصاد الحنطة فإنهم يأخذون قبضة من خيار السنابل «شلواطة» ليتمّ شويها على نار خفيفة حتى تنضج السنابل ثم يفركها المرء بيديه وينفخ قشورها بفمه حتى يبقى الحب براحته صافياً، ثم يلتهمه ويمضغه مشويّاً طريّاً لذيذاً، وأحياناً يأخذ السنابل فينقّب حبها واحدة بعد الأخرى بشوكة وذلك كنوع من التسلية، خاصة سنابل «اللقيحي».

وهكذا نجد الفلاح يخدم قطاعاً كبيراً من مواطنيه بالمنفعة المشتركة.

□ درس الزرع وتصفيته:

يُعتبر درس الزرع بالِمدْرَس هي المرحلة النهائية إذ يقوم الفلاح باختيار بقعة صلبة من الأرض وينقل إليها نوعاً من الطين الجيّد يكفي مساحة الـمِدْرَس المقرّرة بحدود ٣٠ × ٣٠ متراً تقريباً، ويتم خلطها جيّداً ومساواتها بحيث تصبح صلبة يبقى الحَبّ فيها صافياً نقيّاً ويركّز بوسط المِدْرَس خشبة غليظة وطويلة تكون بمثابة مركز الدائرة، ويتعاون الفلاحون على خلط المِدْرس كغيره من الأعمال الجماعية، وبعد أن يجفّ جيّداً تنقل إليه الكدوس على كميات مختلفة ١٠، ٢٠، ٣٠، ٤٠ كدساً، يتم درس كل كمية مرة واحدة وذلك بأخفاف الإبل أو حوافز الحمير بعد قرنها مع رقابها بحبل طويل وقوي وربط طرف هذا الحبل بالخشبة المركوزة في وسط المِدْرَس بحيث تبدأ دورانها حول الخشبة وتدوس في أخفافها وحوافرها الزرع الجاف حتى يصير تبناً وحبّاً، ثم بعد ذلك يطلقونها، ويزيحون الزرع الذي تمّ درسه جانباً على شكل مكعّبات على جوانب المِدْرَس بواسطة المحراث، كل نوع من الزرع على حدة، ويسمّى هذا المكعّب «دريخة» وهكذا حتى ينتهي الزرع كاملاً ويقوم بعملية الدرس الفلاح ومعاونوه، ثم يأتي دور الذري وهو تصفية الحَبّ عندما تهبّ الرياح متوسّطة السرعة فإن الرجال والنساء يشتركون بهذه العملية وذلك بالوقوف على جانب «الدريخة» وأخذ كل واحد منهم غرزة ملء يديه ورفعها إلى محاذاة رأسه ثم إفلاتها شيئاً فشيئاً، بحيث يسقط الحَبّ إلى أسفل ويطير التبن مع الريح على مسافة مترين أو ثلاثة، وليس للذري وقت معينّ، فهو يتوقّف على هبوب الرياح المناسبة، فمتى هبّت بدأ الفلاحون الذري حتى تتوقّف، ويقول المثل «لياهبّت هبوب أذر فيها لا بدا لهبوب من السكون» وهكذا حتى تنتهي هذه المكعّبات من الزرع المدروس وتصفّى كميات الحبوب ويتمّ إيفاء صاحب الدين حقّه، ويبيع الفلاح ما يزيد عن مئونة بيته لمدة عام كامل، أما ما يخصّ البيت فيخزنه في بيته، وتسمّى فترة درس الحَبّ وتصفيته «الصَّايِرَة» وفي هذا الموسم تكثر المراصيع وهي أرغفة من طحين القمح الخالص مدهونة بالسمن البرّي مخلوطة بالبصل المقطّع، أو السمن والدبس. وعملية الذري من الأوقات الممتعة خاصة إذا كان

الهواء عليلاً بالليالي المقمرة، وبعد تخزين الحبوب وتصريفها، وتخزين التبن كعلف للبهائم تنتهي عملية الزرع بعد أن جنى الفلاح ثمرة عمل استمرّ ما يزيد على نصف السنة، ليستريح قليلاً، وأنىّ له ذلك!!!، فما إن ينتهي من عمل حتى يبدأ بعمل آخر على مدار السنة وذلك ديدنه.

□ زراعة الخضروات والفواكه:

وما إن يقطع الفلاح الماء عن الزرع حتى يصرفه إلى مجالات أخرى منها سقي النخل وزراعة الخضروات التي تكون زراعتها على نطاق ضيق لأن الفلاح لا يبيع انتاجها وإنما يتم استهلاكه للبيت والجيران يعطون من هذه الخضار مجاناً ويهدي الفلاح من هذه الخضروات لغير جيرانه ومن لهم حق عليه أو ارتباط به، وتنقسم الخضار المزروعة إلى نوعين منها الخضار المطبوخة كالباذنجان والطماطم والكوسة والخيار والقرع بنوعيه الأبيض الكروي والمستطيل الأصغر «مصرية» واللوبيا والفلفل الحار «حبجر».

النوع الثاني الخضار التي تؤكل نيئة مثل الجبحب «جح» بأنواعه المختلفة والشمام «البطيخ» بأنواعه المختلفة، فهذه الأنواع بالاضافة إلى ما يهديه الفلاح ويوزعه على جيرانه كما أسلفنا فإنه يقدمه في موسمه مع صينية الرطب للضيوف والزوار الذين يقصدونه في مزرعته أو في قهوته في مجموعات متتابعة.

وبحكم العادة فإن الزوار «المسايير» يكثر ترددهم على الفلاح في بداية موسم الرطب وعند نضج أي نوع من أنواع الفواكه كالعنب، والتين، والخوخ، والرمان، والبرتقال، والأترج فهذه الأصناف الرئيسية التي يزرعها الفلاح رلا يبيعها وإنما هي للاستهلاك المجاني يقدمها لزواره وقاصديه مسروراً بجانب صينية الرطب في موسم كل نوع بالاضافة إلى القهوة العربية إذا كان ذلك في المقهى.

لذلك فالخضروات والفواكه لا يتوسع الفلاح كثيراً في زراعتها بل يزرع

ما يكفي حاجته آنفة الذكر، وتزرع الخضار الومي إليها إما في حياض مربعة كالباذنجان والفلفل الحار، أو في مشاعب مستطيلة كالحجب والشمام والقرع اللوبيا وذلك بعد أن يتم تسميد الأرض وتقليبها جيداً واختيار الأرض المشمسة وتتم زراعة الخضروات على فترات مختلفة كالقرع تبدأ زراعته في أول فصل الربيع دخول «السماك» والحجب والشمام في منتصف فصل الربيع قبيل طلوع نجم الثريا ويزرع الطماطم والباذنجان في نفس الوقت في حياض صغيرة حتى يكون شتلات بطول ١٠ سم ثم توزع هذه الشتلات في حياض كبيرة على مسافات متباعدة نسبياً، أما الفواكه فإن زراعتها تتم على حياض النخيل وعلى السواقي أو على الجابية غير أنها رغم ذلك تحمل بشكل كثيف وأثمار ممتازة جداً.

من هذا يتضح لنا أن الخضار والفواكه موسمية، وليس لها سوق مستمر على مدار السنة كما هي عليه الآن، وإنما تتوفر في وقتها وتوزع بالمجان ينالها الفقير والغني في نفس الوقت بدون حرج ولامنه، وعلى هذا الأساس تعتبر زراعة ثانوية.

□ زراعة الصيف:

الذرة ــ الدخن بأنواعه:

يستمر هذا العامل المعطاء في الجهد المتواصل الخير، فما إن ينتهي من زرع موسم الشتاء حتى يبدأ في زراعة موسم الصيف التي تتمثل في الذرة والدخن بأنواعه الثلاث «التكسة» و«المليسا» «الحصنية»، والدخن العادي وتبدأ زراعة هذه الأنواع عند طلوع نجم الثريا، ويزرع كل نوع في جزء منفصل من الأرض بعد تسميد الأرض جيداً وتقطيعها إلى حياض كما هو الحال في زراعة القمح والشعير، غير أن المساحة المزروعة بهذه الأنواع تكون أقل مساحة من تلك ومدة سقي الذرة أربعة أشهر، أما الدخن بأنواعه فمدة

سقيه ثلاثة أشهر يتم بعدها قطاف سنابل هذه الأنواع وهي واقفة يبقى بعد ذلك قصبها علفاً للمواشي، وتجمع السنابل في مكان صلب مدرس ثم تدق بعصي غليظة وتصفي حبوبها ويتم تخزينها. وبعض الفلاحين يخزن هذه الأنواع من الحبوب بسنابلها بغرف خاصة وذلك لتبقى مدة طويلة قد تصل إلى بضع سنوات دون أن يصيبها عطب وذلك تحسباً لسنوات الشدة. والدخن بأنواعه كلما حال عليه الحول زاد جودة في عيشة، وعادة يتم طحن حبوب الذرة، وجرشها، وكذلك يتم طحن أحد أنواع الدخن «التكسة» الشامية. أما النوعين الباقيين، الدخن العادي و«المليسا» «الحصنية» فيتم هرسها بالمهراس ويتم طبخها وتسمى «هبيشة» ويزرع أحد أنواع الدخن «التكسة» كعلف للمواشي على حياض النخل وعلى السواقي، وفي حياض مستقلة، كما يتم زرع البرسيم على مساحات متوسطة لاستخدامه كعلف للمواشي أيضاً وخاصة في السنوات التي يتأخر فيها المطر، وهكذا نجد الفلاح يكمل كل جزء من عمله الجزء الآخر.

□ الجذاذ:

الثمرة الرئيسية الثانية التي يجنيها الفلاح خلال العام هي جذاذ النخل أي صرامه ويسبق عملية الجذاذ خطوتان، على فترات متباعدة الأولى هي «تشييف» النخل وتلقيحه، فالتشييف هي تجريد جريد النخل من الشوك الذي يكون عادة في أسفل السعف وذلك اتقاء وخزه عند العمل بفرع النخلة ثم تلقيح النخل بلقاح «البار» فحل النخل بحيث يأخذ الفلاح أو عامله شمراخاً من عرق الفحل ثم يصنعه في وسط عذق النخلة الجديد بعد أن تنشق عنه الكافورة ثم يربطه بشريحة من الخوص ومتى كبر البسر انقطعت، ويأخذ هذه العذوق الواحد تلو الآخر إلى نهايتها، لأن البسر إذا لم يلقح في وقته يتساقط من عذوقه، ولعذق النخلة عندما تنشق عنه الكافورة رائحة عطرية فواحة، وله بياض ناصع جذاب، يشبهون خدود الفتيات بشقائق كافور النخل كما قال الشاعر:

١٩ ــ خــده شقـاق مهــزعـات الــرطيبي
قبــل الفـوات وقبــل يـرقــاه وبــار
(عبد الله القضاعي)

وعندما تكون النخلة حاملة أكثر مما تطيق فإن الفلاح يقتلع بعض العذوق منها، باجتذابها من أساسها حيث يكون في نهايتها، جمار العذق وهنا تكمن لذة المذاق، وطراوة الملمس، وبياض اللون، وطيب الرائحة، وحلاوة الطعم، ويشبه الشاعر ساق محبوبته بجمار النخل حيث يقول:

٢٠ ــ العـين عين الـوحش يـا ظبي رمـان
والساق جمــار غــرس لاح بقـنيــه
(علي السلامة)

هذه الخطوة الأولى. أما الخطوة الثانية فهي تعديل النخل، وهي وضع عذوقة على الجريـد حسب مقاس العـذوق وإلصاقـه في فرع النخلة حتى لا يضيمها ولا ينكسر عندما يكبر البلح، ووقت التعديل عندما يكون البسر بحجم حبة الزيتون ثم يتغير لون البلح بعد ذلك «مصي» إلى أصفر ذهبي، واحمـر أرجواني عند طلوع الجوزاء ثم يتلوه موسم الرطب، ولقط الرطب «الخراف» ويكون لبعض النخل في البداية وهي الأنواع التي تنضج مبكره وذلك عند طلوع الشعراء المرزم، وعندها يتوفر الرطب في كل نخلة، حيث يقول الشاعـر:

٢١ ــ ليـا ظهر المرزم شبـع كـل كـالف
من الغيــد وانحن الليـال الشــدايـد(١)
(راشد الخلاوي)

---

(١) راشد الخلاوي، ص: ٣٠٥ ــ ٣٠٦.

وعندها يتمتع الناس بجني ألذ وأطرى أنواع الرطب، وتقديمه للضيوف والزوار «المسايير» مع شيء من الخضار، أو الناضج من الفواكه إضافة إلى القهوة العربية وبشاشة الجبين، ولا يفوتني الاشارة إلى «القريم» وهي الرطبة التي يأكل منها العصفور وهي في أمها ثم تذبل مركزة فيما بقي منها أكبر كمية من السكريات، مع أخف نكهة فيها، فإذا سقطت على الأرض أو التقطت مع الرطب تسابقت الأيدي إليها، وذلك لما لها من طعم حلو، ونكهة مميزة، كما قال الشاعر:

٢٢ ـ أحلى من اللي ينقد الطير رأسه
ليا ناشها بين الجريد نواش
(راشد الخلاوي)

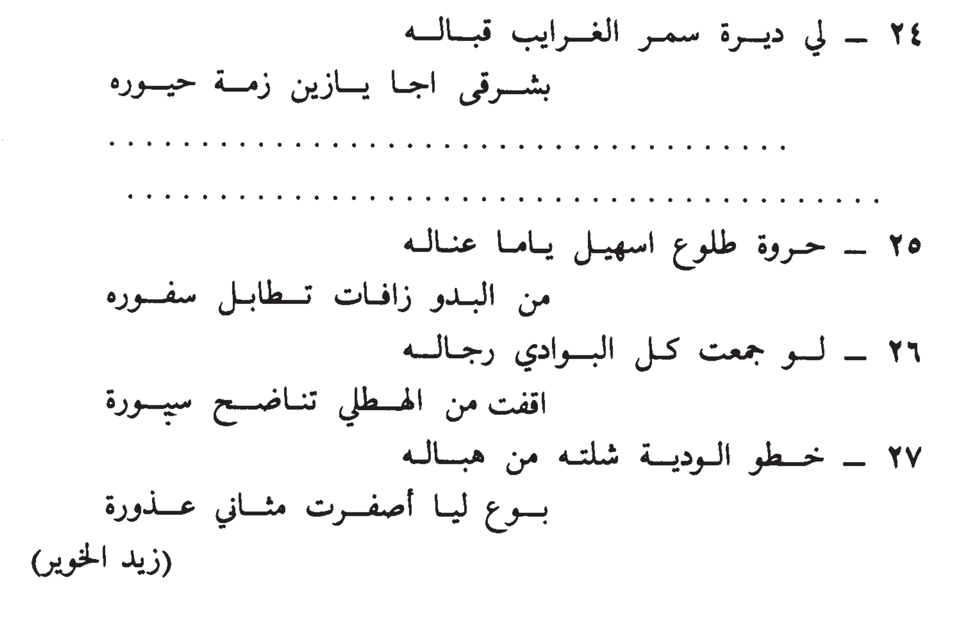
وفي هذه الفترة يمنح الفلاح أقاربه أو جيرانه المستحقين أو من لهم علاقة فيه لكل واحد منهم نخلة تسمى منيحة يلقط رطبها في كل يوم وقد يشتري البعض الآخر نخلة لنفس الغرض وبعد طلوع سهيل يتوفر الرطب في كل نخلة، ويقول المثل الشعبي: «إذا طلع سهيل تلمس التمر بالليل» وبعد ذلك يبدأ موسم الجذاذ وهو صرام النخل بعد غياب نجمي «النسرين» كما أشار إليه الشاعر:

٢٣ ـ ليا غابت النسرين بالفجر علقوا
مخارف في لينات الجرايد[1]

ويبدأ الاستعداد لموسم الجذاذ، بتجهيز زنبيل كبير، له أربع عراوٍ ورشاء من الليف الجيد المجدول من ثلاثة فروع، وقطع كبيرة من سفيف الخوص بمساحات تتراوح بين ٦ × ١٠ متر وأكبر من ذلك وأصغر لفرشها ووضع أكوام التمر عليها، بعد تنزيله من النخل، تمهيداً لبيعه في موقعه، سواء على تجار

(١) راشد الخلاوي، ص: ٣٠٥.

التمور، أو على الممتارين من البادية الذين يأتون في مجموعات، وترى الناس غادين رائحين في تلك البساتين «الحيور» بين تلك الأصواب من التمور، إما معاوناً لأهل «الحير» أو ممتاراً منهم، أو متفرجاً آكلاً بالمجان، وتكثر الحركة التجارية في هذا الموسم، وقد أشار الشاعر إلى ذلك بقوله:



٢٤ ـ لي ديـرة سمـر الغـرايب قبـالـه
بشـرقى اجـا يـازين زمـة حيـوره

. . . .

. . . .

٢٥ ـ حـروة طلوع اسهيـل يـاما عنالـه
من البـدو زافـات تـطابـل سفـوره

٢٦ ـ لـو جمعت كـل البـوادي رجالـه
اقفت من الهـطلي تناضـح سيـورة

٢٧ ـ خـطو الـوديـة شلتـه من هبـالـه
بـوع ليـا أصفـرت مثـاني عـذورة

(زيد الخوير)

وعملية الجذاذ يتعاون فيها الرجال والنساء، فالرجال يصعدون النخل، فاثنان منهم يصعدان النخلة فيتفرعها واحد يتولى قطع العذوق والثاني يتعلق «بالكر» ويمسك المجذاذ ومتى امتلأ صله إلى الأرض حيث تتلقفه النساء، ويقمن بتفريغه بزنابيل أصفر ليتم نقلها إلى فراش التمر المعد لذلك، ليجد التمر هناك من ينظفه من عذوقه وعزل البسر منه وتنقيته من الشوائب الأخرى، ليبقى التمر نقياً، ومن هذا الفراش يسدد الفلاح دينه، ويقبض بيديه النضار الأصفر والأحمر والفضة البيضاء، ورنين النقدين في هذا المكان ينسيه متاعب يومه، ويدفن آلام عامة، كما أنه يوفي بالتزاماته، نحو من له علاقة فيه، فيعطي هذا ويبر ذاك

---

(١) الأزهار النادية، ج ٣ ص ٩٩.

ويرسل لتلك العجوز أو ذاك المقعد، أو أولئك اليتامى ما تجود به أريحته، من هذه الثمرة، ويكتنز لبيته ما يكفيه كمئونة لمدة عام من أطايب التمر، وعادة يكال التمر بوعاء متوسط الحجم يسمى «طاسة» كل كيلة فيها تساوي خمسة أصواع ومتوسط انتاج النخلة من ٦٠ ـ ١٠٠ صاع من التمر ويصل في بعض الأحيان إلى ٢٥٠ صاعاً حسب موقع النخلة وطيب صنوها وغزارة الماء لها ولا يفوتني أن أشير إلى أن النخلة تمر بثلاث مراحل في تسميتها فهي تبدأ «بغرسية» حتى ترتفع عن الأرض بمقدار متر ونصف ثم تسمى ودية حتى تكون على ارتفاع ثلاثة أمتار ثم تسمى نخلة ومتى طالت تدعى عيدانه.

□ جمع الحطب:

يعتبر الحطب جزءاً من الغلاة ويقوم بهذا العمل الرجل في الغالب إلا أن المرأة تشارك فيه ولكن بنطاق ضيق عند الحاجة إلا في بيئة العرب الرحل فهي التي تقوم بهذه المهمة ويجمع الحطب من أماكن قريبة من المدينة أو القرية أو أماكن تواجد بيوت الشعر، وجلب الحطب للاستعمال الضروري كل شخص يؤمن ما يكفي بيته والبعض منهم يكون جمع الحطب وبيعه مصدر رزق لهم حيث يحضره من البر ويبيعه يومياً بما يكفيه قوت يومه والناس مضطرون للحطب لعملية الطبخ والتدفئة في فصل الشتاء خاصة ويعتبر من السلع الضرورية، وحول مضارب البادية وقرب القرى تقوم المرأة بتقليع وجمع شجر الحطب ثم تحزمه في حبل معها وبعد ذلك تحمله على رأسها وتحضر الحزمة إلى بيتها، وإذا كان مكان الحطب بعيداً فإن الذي يقوم باحضار الحطب هم الرجال على ظهور الحمير أو الابل ويتم تقليع الحطب بالفأس أو «الفاروع» إذا كان الحطب أرطى أو (طلح) أو (سلم) أو (طرفا) أو (أثل)، أما إذا كان من شجر الرمث أو الشنان فيتم «بالمنساف» أو عمود الحديد ثم ينضد بعد تجميعه على الشبكة التي مر ذكرها على مكعب يختلف حجمه باختلاف ثقل الحطب من عدمه ويكون مكعب الرمث أو الشنان بطول ٣ × ١ × ١,٥ متر^{٣} ويربط ويمس بالحبال الليفية المخصصة لذلك ثم يحمل على ظهر الحمار ويحضر

للبيوت، أما إذا كان الحطب ثقيلاً فإن حجم المكعب المذكور يقل ارتفاعاً ويزيد طولاً إذا كان من الأغصان الطويلة، وإن كان احضار الحطب على ظهور الابل فيوضع على شكل فردتين تسهيلاً لحمله وينضد على شبكتين أصغر من السابقة تسمى «الشبقان» وتوضع كل واحدة على جنب من جنبي البعير لتكون الفردتان حملاً متعادلاً وفي العادة تقرن الفردتان على ظهر البعير وهو بارك، ثم ينوض بحمله متجهاً به إلى حيث يريد صاحبه ويكون الحطب من الغطاء الشجري المتوفر بالبقعة موضع البحث، مثل الرمث وهو ذو رائحة طيبة عند وضعه على النار وبالذات جذوعه المنغمسة في الأرض «الجروم» وعلى الأخص الهشيم البالي منها «الحفاير» فإن رائحتها طيبة فواحة. كذلك الغضا له رائحة زكية وناره شديدة الحرارة ويصف الشاعر حرارة نار الغضا إذ يقول:

واقلبي الـلي بـين الأضـلاع جـاش

كنه على جمر الفضا يوحش أو حاش

(. . . . . .)

والأرطى لا يقل طيبه في الرائحة عن سابقيه فلها بنة منعشة عند وضعها على النار فإن رائحتها كذلك مقبولة ما عدا الطرفا والأثل فإن رائحتها لا بأس بها.

□ □ □

الفصل الرابع:

المنتجات الزراعية

□ حبوب موسم الشتاء:

رأينا أثناء مرورنا بأعمال الفلاحة أن المنتجات الزراعية من الحبوب السنوية هي كما يلي:

١ ـ **القمح الطري الحنظة**: وهي القمح الأحمر بأنواعه «الهلبا» وهي ذات القصب المتوسط من ١٠٠ ـ ١٥٠ سم والسنابل الطويلة ١٠ ـ ١٥ سم و«السفى» الأسود سهلة التفتت من جيوبها، حبوبها مستطيلة، و«الجربيا» وهي ذات سنابل متوسطة الطول من ٥ ـ ١٠ سم وبدون «سفى» متوسطة الصلابة في التفتت من جيوبها وحبوبها قصيرة والنوع الثالث هي ذات السنابل القصيرة ٥ ـ ١٠ سم الغليظة و«السفى» الأشقر وهي سهلة التفتت من جيوبها والنوع الرابع هي «المعية» وهي ذات سنابل متوسطة ٥ ـ ١٢ سم «وسفى» رمادي وهي صعبة التفتت من جيوبها صلبة الب أيضاً وجميع ألوان حبوب سالقة الذكر حمراء.

٢ ـ **القمح الصلب «اللقيمي»**: وهي ذات قصب متوسط ٧٠ ـ ١٠٠ سم وسنابل مصفحة مجدولة من ٥ ـ ٧ سم و«سفى» أشقر حبوبها مستطيلة صفراء، صعبة الاخراج من جيوبها ويشبهونها «بظروس الخيل» والنوع الثاني هو «المتليقمة» تشبه سابقتها في بعض المظاهر وتختلف عنها في شكل

السنبلة وجودة الحب وتعتبر درجة ثانية بالنسبة للأولى النـوع الثالث «الطيارة» وهي تشبه سنابل «اللقيمي» غير أن «سفاها» أسود وهي أسرع استواء من سابقتها وأسهل في اخراج الحب من جيوبه ويميل لون حبها إلى الحمرة قليلاً.

٣ ــ **الشعير**: وهو أنواع أشهرها «الجهيلي» وهو ذو قصب متوسط الطول وسنبلة قصيرة ٥ سم مكتنزة بالحبوب البيضاء والكثيفة سريعة الاستواء، أما النوع الثاني فهو «أبو دوسة» وهو ذو قصب طويل وسنابل طويلة قد تصل إلى ١٥ سم إلا أن حبوبه أقل تـراصـاً من سابقه ويعوض عن ذلك بطول السنبلة وهو بطيء الاستواء.

□ الحبوب الصيفية:

١ ــ **الذرة البيضاء والحمراء**: ويرتفع قصبها إلى ما يغطي قامة الرجل من ١٥٠ ــ ١٨٠ سم وعندما تمتلىء جيوبها بالحب تركع السنبلة حانية رأس القصبة، وتكبر السنابل وتصغـر حسب خصوبة التربة ووفرة المياه من عدمها مكونة كرة مستطيلة يتراوح قطرها من ٧ ــ ٢٠ كم، أما الذرة الصفراء فإنها شبيهة بالنوعين السابقين غير أنها ذات حب أكبر وأجود يصطبغ لون قشور الجيوب باللون الأصفر أما الذرة الشامية ذات السنابل المستطيلة الملفوفة بوشاح من أوراقها ذات الحبوب الكبيرة فإنها لم تدخل إلا على نطاق ضيق وفي الزمن المتأخر.

٢ ــ **«التكسة»**: وهي النوع الجيد من الدخن لها قصب طويل يصل إلى ٢٠٠ سم ولها سنابل مستطيلة تتراوح بين ١٠ ــ ٣٠ سم وتخرج من الشجرة الواحدة مجموعة من السنابل في القصبة الرئيسية وفروعها، ويمكن أن تقطف السنابل في عدة أجيال على فترات متتالية مما يخرج من الأصل أو الفروع وعلى هذا فانتاجها كثيف إذا ما قيس بالأنواع الأخرى النوع

الثاني هو «المليسا» «الحصنية» وهو نوع من الدهن له قصب قصير ٥٠ ــ ٨٠ سم وسنبلة مستطيلة من ١٠ ــ ١٥ سم معتكلة يتراكم الحب فيها بشكل متراص ويخرج من الشجرة سنابل محدودة لفترة واحدة فقط، أما النوع الثالث فهو الدخن العادي وله قصب قصير من ٤٠ ــ ٦٠ سم وسنابل قصيرة من ٥ ــ ١٠ سم ذات خصل متراصة مملوءة بالحب ويخرج من الشجرة عدد من السنابل لفترة واحدة فقط.

٣ ــ **التمور**: وتنقسم التمور إلى عدة أنواع منها الجيد ومنها ما هو أقل جودة، كذلك يختلف لونها عند زهوها بين أصفر ذهبي وبرتقالي وأحمر وردي ومتوسط أرجواني وتبعاً لذلك فإن التمر يتلون بالأشقر، والأصفر، والبني، والأسمر، ومن أنواع التمور الجيدة الحلوة ــ السكرية ــ نبوت سيف ــ السلجة ــ الخلاص ــ المجهولة ــ الرخيمي ــ البرحى ــ المقفزي ــ السري ــ الحديري ــ المكتومي ــ دقلة المفتاح ــ أم الخشب ــ الغساني ــ الزامل ــ القسبة شقراء ــ روثان ــ أم حمام ــ قطارة ــ ونان ــ دقلة خلف.

والنوع الثاني الحمراء ــ الخضري ــ الصويري ــ الحدقي ــ الصادرة ــ التقبلي ــ القناية ــ الأصباع ــ الدبية ــ الطريق ــ الخشرم ــ الرزيزي.

ويتراوح إنتاج النخلة الواحدة من ٢٠ ــ ٢٥٠ صاعاً الصاع ٣ كجم تقريباً حسب خصوبة أرضها وطيب مجثها ووفرة مائها.

ويكنز التمر في حياض مخصصة له داخل الغرف مبنية ومعدة إعداداً جيداً بارتفاع يتراوح ما بين ١ ــ ٢ × ٣ × ٢ م^{٣} أو أصغر أو أكبر كما يكنز في إناء دائري كروي مبني من الجص فتحته العليا ضيقة يسمى «الجصة» وعادة يوضع بأسفل الحوض أو «الجصة» مجرى صغير يخرج منه دبس التمر ليصب في حوض صغير، يغرف منه كلما امتلأ وكذلك يعبأ التمر في أوانٍ

أخرى كالقدور وما شابهها، أما عندما يراد نقله من مكان لآخر عند تجار التمور أو البادية فإنه يعبأ بالخصف وهو نسيج من خوص النخل أو بالعيبة وهي وعاء جلدي كبير من جلود الابل المدبوغة ومخروز بسير من نفس الجلد بحيث يسد السير مداخله وتصبح العيبة جيدة الامساك للتمر ودبسه.

٤ ـ **الفواكه**: وتتركز الفواكه في الأنواع التالية: المشمس وهو أسرع أنواع الفواكه نضوجاً، يليه التفاح الصغير الحالي. ثم العنب بنوعيه الأبيض والأحمر يأتي بعدهما التين بنوعيه الأصفر والأخضر الضارب إلى الرزقة، ثم الخوخ بنوعيه الأخضر والأصفر الوردي «العرامي» فالرمان الحالي والرمان الحامض والرمان «الشهربان» الذي يجمع بين الحلاوة والحموضة ثم البرتقال الحالي، والبرتقال العادي، والليمون «أبو زهيره» وآخرها الأترنج، وهذه الأنواع تزرع كما أسلفنا بكميات ثانوية تفي بالاستهلاك المحلي المجاني.

٥ ـ **الخضروات**: وتتمثل في الحجب «الحج» بأنواعه المختلفة كالسيدلان المستطيل والكروي بأنواعه، والشمام «البطيخ» بأنواعه أيضاً السكري والحامض، والطويل والخيار والباذنجان بأنواعه الأسود والأبيض المستطيل والكروي، والقرع بنوعيه الكروي الأبيض والأصفر «الدُّبَّا» والمستطيل الأصفر «المصرية» والكوسة، والطماطم.

وهذه الأنواع من الخضروات تزرع كما هي عليه الحال بالنسبة للفواكه على نطاق ضيق على قدر الاستهلاك المحلي المجاني.

٦ ـ **البقول والأفاوية**: وتتكون من البصل ـ والثوم ـ والكراث ـ واللوبيا ـ والحلبة ـ والرشاد ـ والحبة السمراء ـ والحبة الحلوة ـ والكمون ـ والكزبرة ـ والعصفر.

هذه الأنواع هي من نصيب المرأة على الغالب تعتني بزراعتها ورعايتها وتصفية حبوبها والتصرف بها ومعظمها تزرع في فصل الشتاء ما عدا البصل والثوم واللوبيا فتشذ عن هذه القاعدة.

□ □ □

الفصل الخامس:

الـــرعي

□ استلاع أماكن نزول المطر:

ما إن تزل جمرة القيظ ويظهر نجم سهيل ويبرد الجوّ، حتى يشتهي العرب الرحّل الضاربون حول أماكن المياه النزوح عنها قليلاً، استعداداً لمغادرة المكان إلى مساقط المطر، وتمضي عليهم هذه الفترة التي تقارب الشهرين وهم في ترقّب مستمر لظهور الغيوم على صحن السماء، وتوجّس لأخبار البرق، متعطّشين لنزول المطر، في تلك الفترة لم تكن المخترعات الحديثة تنشر الأخبار بالصوت والصورة، وإنما يعتمد على الرؤ يا المجرّدة للبرق وأخبار الركبان الذين يغدون من أماكن بعيدة أو قريبة، وبما أن الغيوم في هذا الفصل من السنة تكون مرتفعة، فإن البرق يلوّح من مسافات بعيدة نسبياً في مقياس تلك الفترة، وتظلّ العيون متلهّفة للاكتحال بوميض البرق وتبقى الآذان متفتّحة لاستقبال نغمات الرعد التي تضاهي بأزيزها أرفع معزوفات «بتهوفن» في سمع من يرتجيها.

وتكاد تطغي على الأخبار ومداولات المجالس وندوات السمر أنباء المطر ورؤ ية البرق، وما إذا كان قد تأخّر عن العام الفائت، فتلهج الشفاه بالرجاء الحار والتضرّع إلى الله لإغاثة عباده، وكلّ يراجع نفسه إن كان قد عمل عملاً يستحقّ التـوبة، فعليـه أن يتوب إلى الله، ومـا أن يرى أو يسمـع الفرد أو المجموعة هذه الظواهر الطبيعية الحبيبة إلى النفوس حتى تتهلّل الوجوه وتمتلىء الجوانح بالفرحة والاستبشار، وتغصّ الحناجر بمختلف المشـاعر والكلمـات

الفيّاضة الشاكرة للّه تعالى على مَنّه وفضله بإنزال الغيث، ويردّد الجميع قول الشاعر:

٢٨ ـ البـرق لاح وتـويـا حمـود شفنـاه
جعله عـلى الـلي يشتهي من وطنـا

٢٩ ـ يسقي طـويق ومـا بقي من شفـايـاه
وليـا ارتؤى حدّر عـلى ضلع بنـا

(دعسان بن حطاب)[١]

أو كما قال الشاعر الآخر:

٣٠ ـ كـريـم يـا بـارق سـرى
تـسـمـع نـزيـز الـرعـد فـيـه

٣١ ـ مـا حـلا روضـه لـيـا أخـضـرا
والـطرش تـرعـى مـفـالـيـه

أو كما قال الشاعر الثالث بصورة جمالية أخرى وتصوير بديع:

٣٢ ـ كـريم يـا بـرق سـرى لـه تلضي
بخشـوم مـزن كـل مـا نـاض يـاضي

ويجسّد أحد أبناء هذه البيئة في أعزّ أمانيه وكثيراً من أحلامه وآرائه بالقصيدة التي نختار منها ما يلائم الموضوع:

٣٣ ـ يـا مـزنـة غـرا من الـوسم مبـدار
الـلي جـذبنـا من بـعيـد رفيفـه

٣٤ ـ تـومـر عـلى كـل المغـالي بـالأمـطار
وتصبـح بهـا خـدان قـومي مـريفـه

---

(١) من آدابنا الشعبية، ١١٨.

٣٥ ـ غب الحيا فاحت بهاريح الأزهار
تخالف النوار مثل القطيفة
(مقحم الصقري)

وعندما يتحقّق الناس من نزول المطر يرسلون من يستطلع مكان نزوله ومدى غزارته وذلك بريادة مساقطه ليرى مدى إمكانية الانتقال إليه من عدمها ويختار الرائد ممن يمتازون برجاحة العقل وبعد النظر ومعرفة الأرض، وللعرب خبرة ممتازة في توقّع مكان سقوط الأمطار من رؤ ية البرق فقط، وذلك بحكم التجربة ومعرفة الأرض شبراً شبراً، بحيث يستطيع البعض منهم أن يحدّد مرور السحابة بكل دقّة ويشتهر بعض الأفراد بهذه الناحية، كما أشار إليه الشاعر بقوله:

٣٦ ـ قم خايل البرق يا مهنا
والبرق صوب الغضى لاح

وما أن يتباشر الناس في أخبار الأمطار حتى يبادروا للاستعداد للرحيل، تحدوهم الرغبة لانتجاع ذلك المكان قبل غيرهم، وتغمرهم الفرحة والسرور بهذا الحدث السارّ، فيطفق الرجال في تحضير الإبل وتسرع النساء إلى تقويض بيوت الشَعر ولفّها جيّداً تمهيداً لحملها على ظهور الإبل، ويتمّ تزيين الهوادج وترتيبها، وعند ذلك ترتفع جلبة رغاء الإبل التي لم تتعوّد نقل الأحمال، يخلطها أصوات المناداة بين شخص وآخر، وتوجيهات الرجال للنساء والأطفال فيما يفعلون، والحرص على عدم نسيان شيء من لوازمهم. يجلّل هذه الجلبة ثغاء الغنم. كما قال الشاعر

٣٧ ـ تسعين ليلة جانب العد ما هيف
ولا للشديد بطاري يذكرونه

٣٨ ـ وهبت ذعاذيع الوسوم المهاريف
واسهيل يبدي ما بدا الصبح دونه

٣٩ ـ العصر بالمجلس مضاليل توقيف
وأمسو وتالى شعرهم يقطعونه

٤٠ ـ وراحوا مع الربدا وساع الأطاريف
يذكر لهم مرعى ربيع يبونه

(عبد الله بن سبّيل) [١]

وحنين الإبل يتخلّلها في بعض الأحيان صهيل الخيل في هذا الإطار الصاخب، الكل مشغول جداً، وقد صوّر هذه اللحظة الشاعر بقوله[٢]:

٤١ ـ البدو شالو نوهو للمراحيل
وكل ركض للزمل شلاه تومى

٤٢ ـ أحد يخم العلق يخطيه ويشيل
وأحد تقلل مابقى له لزومى

٤٣ ـ وشالو وقفن الضعاين زعاجيل
وشفوا وهفوا واتّقوا بالحزومى

(سويلم السهلي)

ونجد الصورة الثانية تعطينا بعض الملامح التي لم نجدها في سابقتها، حيث يقول:

٤٤ ـ لا والله إلا شدو البدو نجاع
وراع المحبة فرق البعد شمله

---

(١) المجموعة البهية، ص ٥٦.

(٢) ديوان سويلم السهيلي ص ٢٥.

٤٥ ــ طـوّو وروّو وانتـوو عقـد مـربـاع
كــل هــدم مبنـاه واشتــدّ زمله

٤٦ ــ غــدا لهم عنـد الـرفيعة تـزلـواع
والـلي بغى يضـرب طـريق قسم لـه

٤٧ ــ أقفــو كـما حــزن نشرمــاه وانــزاع
بـرقـه يـرفـرف والسداير تــدم لـه

(فهيد المجماج)

أما رعاة قطعان الغنم وأذواد الإبل، الزائد عن نقل البيوت فقد تسرح إلى نفس الوجهة التي سوف يتّجه إليها الظعن، وتتحرّك الإبل حاملة على ظهورها بيوت الشَعر ومستلزماتها ومئونة البيت، تتوّج ظهور بعضها الهوادج الجميلة المنصوبة بارتفاع ما يقارب المتر والنصف، المغطّاة بالمختار من المنسوجات الصوفية والقطنية، والحريرية أحياناً حسب مستوى صاحبة الهودج، تزيّن هذه الأغطية النقوش والزركشات المختلفة، ويُعتبر الهودج المركب الرئيسي في حالة الظعن لبنات الشيوخ والمترفات من النساء وكبار السن والأطفال، تتهادى تلك الهوادج بركّابها على ظهور الإبل متحدّية أفخم مراكب العصر الحاضر، وهذه الهوادج هي كذلك الشرفة المفضّلة التي تطلّ منها بعض الفتيات ليسرِّحن طرفهن يمنة ويسرة بين أفراد الظعن، يرقبن أفراد الظعن ورجاله، وترى البعض الآخر من النساء يمتطين ظهور الإبل بدون هوادج بل على الأحمال مباشرة، تومي أجسامهن إيماء لطيفاً إلى الأمام والخلف مع إيقاع خطوات الراحلة، بينما تجد الرجال كلّ قد تمنطق بحزامه وتقلّد سلاحه وامتطى ظهر جواده أو هبّ مسرعاً على قدميه، يباري الأظعان كالأسد الهصور، وقد أُعجبت إحدى الفتيات المطلّة من على الهودج بالرجال المتمنطقين بالمحازم فانطلق لسان حالها يقول:

٤٨ ــ الـغــوش مــا أحــلا محــازمــهــم
الــغــوش عــوش الــرمــالات

(......)

ويستمر الظعن متّجهاً إلى المكان المقصود، فإن كان قريباً يكفيه مسيرة يوم كان به، وإن كان أبعد من ذلك فإن الظعن إذا جن الليل أناخوا الإبل ووضعوا عنها الأحمال واستراحوا حتى صباح الغد تحوطهم مواشيهم، فإذا طلع الفجر استأنفوا المسير مرة أخرى وهكذا حتى يصلوا إلى المكان المقصود.

□ وصول موضع الكلأ:

وبعد أن يصل الظعن إلى المكان المختار تضرب بيوت الشَعر وما أسرع ارتفاع أعمدتها بسواعد الفتيات والسيدات في سباق مع الوقت في أيهّن تنصب بيتها وتركّب أروقته أولاً، بينما تنطلق الأخريات إلى الغدران لملء القِرَب بالماء الزلال وإحضاره للبيوت لاستعماله للشرب والطهو والنظافة والوضوء، والقِربَة إناء من جلد الغنم المدبوغ والمدهون وهو وعاء للماء يملأ فيه ويُحمل على الظهر معلّقاً بحبل غليظ على الرأس، وترى حاملة القِربَة وقد انحنت قليلاً لتسهيل حمل القِربَة، وتكثر الغدران في هذه البقاع الطيّبة بعد سقوط الأمطار، وتعبق الروائح المنبعثة من الشجيرات العطرية التي توشي حواف الرياض غب سقوط الأمطار كما يصوّرها الشاعر بقوله:

يــا أرض نجـد سقــاك الله منعبقــاً
من الغمــام غــزيــر المــاء مــلآنــا[1]

إذا تضــاحـك منــه البــرق ملتمعــاً
في حــافتيـه أرق الــرعـد أرنــانــا

أرض تــرى وحشهـا الآرام مـطفلة
وفي منــابتهــا القيصــوم والبــانــا

---

(١) بحوث المؤتمر حـ ص١٨٣٨.

وإن تجـل في ثـراهـا طـرف مختبـر
لا تـلق إلا حـديـقـات وغـدرانـا
(الشريف المرتضى)

وينصرف بعض الرجال الشبان إلى توجيه إبل الأحمال بعد وضع أحمالها وإلحاقها بالأذواد السارحة، وما إن يعودوا حتى يجدوا الشيوخ بعد أن نصبت لهم البيوت قد تجمّعوا في «رُفّة» البيت وهو الجزء الخاص بالرجال، وقد دقّ «نجر» القهوة الهاون بعد أن فاحت رائحة الحمسة الأولى من القهوة العربية التي ينوج ريحها مع روائح الرياض الزكية، مكوّناً رائحة جذّابة، تنافح الأنوف «بخنّتها» المميّزة، ويجلس الرجال في المكان المعدّ لهم يفترش البعض منهم وخاصة كبار السن الفرش الصوفية المزركشة، متّكئين على أشدّة الإبل المغطّاة ببعض الأرائك الليّنة، والبعض الآخر، الشباب يفترش الجرعاء الناعمة، ويحتسي الجميع القهوة العربية مع ما تيسّر من تمر أو غيره، متجاذبين أطراف الحديث، كلّ يقصّ ما صادف بطريقه وعن رأيه في هذا المكان وما إذا كان هناك مكان أفضل منه، والرأي الأخير دائمًا لذوي الرأي وكبار السن فيهم، ويستمر بقاؤهم بهذا المكان فترة من الزمن. وتجمع النساء حطب الرمث وتبني منه العِنّة وهي شبه غرفة نصف دائرية بلا سقف ويكون في بعض البيوت عنينة واحدة تابعة للنساء والأخرى تكون امتداداً «للرفّة» تابعة للرجال، والغرض من هذا البناء الشجري هو الاستفادة من يابس حطب العنّة في الوقود وفي نفس الوقت يلوذ بها أهل البيت إلى جانب موقد النار فيها عن لفحات الهواء البارد، الذي يهبّ في فصل الشتاء وخاصة في الصباح الباكر والأصيل المتأخّر، غير أن الصبا إذا صافحت تلك الرياض المعشبة الغضّة وتسلّلت خلال الشجيرات العطرة غطّت بعرفها كل لسعات البرد القارس وأبدلتها دفءاً مريحاً كما يصوّرها الشاعر بقوله:

رق حـتى خـلتـه مـن رقـة
أرج الـشيـح وأنـفـاس الخـزامى[1]

---

(١) المؤتمر جـ٥، ص١٨٦٣.

أو كـما هـبّت صبـا في روضـة
تنبت الـرنـد صبـاهـا والثمـامـا
(عبد الغفار الأخرس)

□ عمل الرجل والمرأة في بيئة المراعي:

كما مرّ بنا في بيئة الفلاحين فإن الرجل والمرأة يقومان بالعمل بالمشاطرة بينهما، فالرجل يقوم بالأعمال الآتية:

١ ــ يتولىّ الشباب رعي الغنم والإبل وسقيها في فصل الصيف.

٢ ــ يقوم الرجال بارتياد الأماكن القفر لتوجيه الرعاة إليها.

٣ ــ يضطلع الرجال بجميع الأعمال اليومية العنيفة التي لا تستطيع المرأة القيام بها.

٤ ــ الحراسة الدائمة للنزل والمواشي من أي حائف.

٥ ــ الذود عن إبل وأغنام العشيرة والجيران ضد أي معتد عليها.

٦ ــ الصيد بواسطة الطير الصقر وكلب الصيد «السلوقي».

٧ ــ الدفاع عن بيوت وممتلكات النزل من أي طارىء.

٨ ــ تداول الرأي في أي عمل من شأنه أن يكون مفيداً للنزل.

٩ ــ التخطيط للغزو والإعداد له في حالة تزعزع الأوضاع.

وتقوم المرأة بالأعمال الآتية:

١ ــ حلب الأغنام.

٢ ــ إرضاع البهم وهو الصغار من الغنم والماعز.

٣ ــ مخض اللبن الرائب، وفي الغالب تكون قد أعدّت الصبـوح وهو اللبن الطبيعي الطازج وهو بمثابة طعام الإفطار، حيث يشرب كل فرد من هذا اللبن الذي لم يمزج بالماء، ويُعتبر وجبة متكاملة يرتوي منه حتى ترتفع أضلاعه مع شيء من التمر أو ما تيسّر، والكثير منهم لا يحب أن يتناول مع اللبن شيئاً بل يفضّله وحده.

٤ ــ تنظيف وخياطة ملابس الرجال بيدها بالخيط والإبرة.

٥ ــ تنظيف الأوعية المخصّصة لترويب اللبن ومخضه واستخراج زبده.

٦ ــ العناية بالقشدة، وهي إذابة الزبد متى توفّرت الكمية اللازمة منه، قد تكون أسبوعياً أو يومياً أو بعد ثلاثة أيـام حسب توفّـر كميات اللبن المستخرج منه الزبد، وتقوم المرأة بجمع الزبد في قدر مناسب وتضعه على نار هادئة ومتى بدأ بالغليان أضافت إليه كمية من الطحين أو دقة الجريش ليتمّ ترسيب العالق بالزبدة من شَعر أو غيره، ويرتفع السمن صافياً، أصفر ضارباً إلى الخضرة، وبعد أن تصبّه في النُحْو وهو وعاء السمن المصنوع من جلد الماعز والمدبوغ والمشبّع من الـداخل بـالدبس حتى لا ينضح السمن الذي بداخله، بعد ذلك يبقى عيش القشدة يضاف إليها أرغفة البر، أو التمر، وتصبح وجبة جاهزة للوقت الذي تعمل فيه غداء كان أم عشاء.

٧ ــ طبخ الأكل اليومي والولائم المقدّمة للضيوف التي تذبح فيها الذبائح، وتنحر الإبل وما أكثر هذه الولائم بتلك البيئة كلّ بحسب قدرته ومركزه، وبحسب الضيف القادم ومركزه.

٨ ــ جلب الحطب من قرب البيوت وإضافته إلى عِنـيّة البيت متى نقصت.

٩ ــ تربية أطفالها والعناية بهم وتنظيف وخياطة ملابسهم ومداواتهم إذا مرضوا.

١٠ ــ عمل الأقط «البقل» حيث تجمع المرأة من الفائض اليومي من اللبن

الزائد عن الاستهلاك في قدر كبير، وتقوم بطبخه حتى يتبخّر الماء الذي يحويه اللبن، بحيث يبقى سائلاً غليظاً، وبعد أن يبرد ويكاد يتجمّد تقوم المرأة بتنظيف يديها وتأخذ منه، قبضة قبضة وتضغطه بكفّها لتكوّن كتلة بحجم اللقمة ترى بصمات أصابعها عليها، ثم تنشره على نسيج من الخوص أو على ظهر البيت، حتى يجفّ، وإنك لترى بيوت الشَعر السمراء مغطّاة بطبقة من حبات الأقط الأبيض الناصع، وأحياناً إذا كان اللبن قليلاً فيضاف للأقط أثناء الطبخ بعض الأعشاب والنباتات المفرومة، كالبورق، والطرثوث والحمصيص ليزيد من كمية الأقط وليكسبه نكهة خاصة، وأثناء عملية طبخ الأقط أحياناً يطبخ معه بعض قطع اللحم أو الأرانب البريّة، بحيث تنضج لذيذة جداً وتتراوح الطبخة الواحدة من الأقط من ٥٠ ــ ٣٠٠ لتر من اللبن وربما أقل أو أكثر من ذلك.

١١ ــ غزل الصوف من شعر الماعز أو صوف الغنم أو وبر الإبل وتغزل كل لون على حدة وتحرص على اللون الأبيض لأنه قابل للصبغ بمختلف الألوان، وتجد المرأة تغزل في أي مكان كنوع من التسلية المنتجة لا تجلس ويدها خالية من المغزل في المرعى مع الغنم، وقرب الماء، وفي ظل البيت، ومع صويحباتها.

١٢ ــ تقوم المرأة بأعمال النسيج حيث تنسج من الصوف والوبر الملوّن عدة منسوجات منها:

(أ) خُرج المطية وتولّيه النساء عناية خاصة، وتختار له الألوان الزاهية من مختلف الألوان وزركشته بمختلف النقوش، والإبداع في نسج «سفائقه» الطويلة وعثاكله «دلاله» الكثة.

(ب) «المزودة» وهي كيس صغير من نسيج الصوف المزركش والمنقوش بمختلف الألوان، ولها في أعلاها حافة جلدية بها عرى صغيرة

تتداخل مع بعضها وتنتهي بقفل، وهي بمثابة حقية السفر في الوقت الحاضر ينقلها الرجل معه في أسفاره، وتتفنّن المرأة باختيار ألوانها والإبداع في نسيجها.

(ج) تعتني عناية خاصة بنسيج غطاء هودجها وما يعلّق به من الستائر المنمّقة والحبال المزخرفة حتى يصبح كتلة متناسقة جذّابة زاهية لا تملّ العين النظر إليها.

(د) نسيج بيت الشَعر وتحرص أن يكون نصف البيت من شَعر الماعز لقوّته ومثانته، أما القواطع والعوارض فتنسجها من صوف الغنم وتجعل فواصل في هذا النسيج الأسمر من الصوف أو الوبر الأبيض والملوّن أحياناً لتزيّن بها قواطع البيت بمنظر جذّاب مريح، كنوع من «الديكور» الداخلي لبيت الشَعر.

(هـ) «السياح» وهي البسط الصوفية الرائعة التي تضاهي بدقّة نقوشها ومتانتها ما تنتجه المصانع الحالية، فقد تعمّر مثل هذه البسط إلى خمسين عاماً، وهذه البسط يزيّن بها المجالس وأروقة البيت الداخلية الخاصة بالنساء.

(و) نسج «العدول» وهي البسط السمراء التي تفي بالاستعمالات البيتية العادية من فرش داخل البيت وأغطية وخروج عادية وما في مستواها.

١٣ ــ تعتني بدباغة الجلود للاستعمالات البيتية كالقِربَة ــ الشكوة ــ والصميل ــ والمروب ــ والمكرش ــ والنحو والعكة ــ والعيبة والجلود المفرودة «كالنطع» المعمول من الجلد المدبوغ الناعم بدون شَعر، و«الجاعد» وهو الجلد المدبوغ الناعم وعليه شعره، ويستعمل كفراش فردي أو على ظهر المطية أو الخيل ودائمًا يفضّل اللون الأبيض أو الأشقر أو الأبرق.

١٤ ـ جزّ الصوف من الماعز والغنم.

١٥ ـ رعي الغنم والإبل الذي تقوم به الفتيات أحياناً عند الحاجة.

هذه الأعمال تمثّل الغالبية العظمى من النساء أي ٩٠٪ إذا استثنينا مَن يوجد لهن من يخدمهن في هذه الأعمال الآنف ذكرها.

□ توليد الأغنام والابل وتربيتها:

ما إن يحين موعد توليد الأغنام في بداية فصل الشتاء بعد مرور خمسة أشهر على تلقيحها حتى يفرح أصحاب هذه الأغنام خاصة إذا كانت قد هطلت الأمطار واكتست الأرض بثوبها السندسي وشبعت الغنم من العشب بدأت بالتوالد بسهولة وفي أوقات متقاربة، قد يلد في اليوم والليلة أعداد كثيرة، وعندها يحين وقت أكل طبخة «اللبي» وهو اللبن الموجود في ضرع الشاة أو العنز عند ولادتها، فيتم حلبه منها ثم طبخه حتى يتخبر الماء لذي يحويه ويبقى اللبن على هيئة الجبن الأبيض الصافي ومتى أضيف إليه شيء من الفلفل الأسود والملح وبعض البهارات أصبح طعمه لذيذاً ونكهته طيبة، وتتكاثر الأغنام فتلد النعجة الفرد والتوأم خروفاً ورخلة أو يكون الفرد أو التوأم من جنس واحد، كما تلد العنز الفرد والتوأم التيس والعناق أو يكون الفرد أو التوأم من جنس واحد أيضاً وان المرء الساكن حوالي هذه البيوت ليسمع مع الصباح الباكر الصخب الناتج عن ثفاء البهم ومأمأة السخال خاصة عندما تقوم المرأة بارضاعها من أمهاتها وكل شاة أو عنز تعرف ولدها ومنها الرءوم التي تتلقف ولدها وتداعبه أثناء الرضاع ومنها غير الرءوم «القحوص» وهذه تحتاج من يمسكها حتى يرضعها ولدها ومتى رضع البهم كله وارتوى من ضروع أمهاته أعيد إلى حضيرته مرة أخرى ويستعمل للبهم رباط من حبل يثبت من طرفيه فيه عرى كثيرة يسمى «الربق» ويدخل رأس كل واحدة منها في عروة من هذه العرى في صفوف تفصل بينها مسافة متناسبة، حتى إذا سرحت الغنم ثم اطلاق البهم من «اربقته» يسرح به حوالي البيوت أحد الصبية أو أحد كبار السن ممن لهم خبرة طويلة في الرعي

ومتى كبر البهم وبدأ يتذوق العشب. فطموه عن رضع أمهاته وبعد فترة يلحقونه بالغنم الكبيرة، وأحياناً تكون الأم رؤوماً على ابنها أكثر من اللازم فعند ذلك يوضع لها «شمالة» على ضرعها وهي كيس من القماش يربط على الضرع ليمنع ولدها من رضعها.

وفي هذه الأثناء تلد الابل كذلك وهي التي لقحت منذ عام ومدتها سنة كاملة وتلد الناقة «الحوار» إما بكرة أو قعوداً والناقة من الحيوانات الرءوم جداً لدرجة تفوق بعض بني البشر وترضع «حوارها» وتغدق عليه اللبن وتداعبه أثناء الرضع بشم رائحة جسمه وتجد متعة في ذلك، وهي حريصة عليه جداً لا تريده أن يغرب عن عينها، وما أن يغرب عنها حتى تبدأ بالحنين والبحث عنه حتى تجده، وإذا أصابه مكروه أو فقدته، فإنها تفقد اتزانها ويصيبها الهلع والجنون، ولربما ماتت جزعاً لفقده وخير تصوير لحالة الناقة عند فقد ولدها ما رسمه الشاعر بهذه الأبيات:

٤٩ ـ كنى خلوج يـوم صفق الرعـايـا
تحـف بـالمـفـلي لمـا رو حـنى

٥٠ ـ عـلى ولـدهـا كيف سـوت سـوايا
طـبـايـع مـاظـنـتي يـعـلمـني

٥١ ـ سـاجت وراجت مالقت لـه حـلايا
وخـرشت ونشـت والقـوايـم جثـني

٥٢ ـ تصن مثـل الـلي يـوصي وصـايـا
تـبى لـعـل اسمـوعـهـا يسـمـعنى

٥٣ ـ لاجت وشـافت بـالنـواظـر هفـايـا
حـوايـم عـلى مـداسـة هـفـني

٥٤ ـ جتهن وشـافت بس نـثر الحـوايـا
وجـلده ومـدراج الحمـر يـوم ثـني

٥٥ ـ وعـرقت وشافت من لحـومه شوايـا
تـاتقت بـطيحـة والضلوع العـولني

٥٦ ـ والـدود مـا بـين الضلوع الحنايـا
قـطع عـلايـق قـلبـهـا وأصـرمـني

(سويلم العلي)[1]

وقال الآخر:

٥٧ ـ خلوج تجر الصـوت بـاتـلا عـوالهـا
وان طـوحت صوت تـزايد اهجـالهـا

٥٨ ـ تهيض مفجـوع الضمـير بحسـهـا
تكسر بـعـبـرات يحـطم سـلالهـا[2]

(محمد العوني)

وكما أسلفنا هي شديدة الولع بولدها ومتى كبر وبدأ يرعى العشب يفطم عن لبنها وذلك «بصرها» وهو ربط عود على شطر ضرعها يمنع ابنها من الرضاع ويفك عندما يراد حلبها ثم يربط مرة ثانية حتى يسلو عنها ابنها وينسى رضاعها، ولحليب النوق خاصة ميزة لا تتوفر في ألبان الحيوانات الأخرى وبالذات إذا كانت الناقة بكراً فهو مادة غذائية متكاملة لا يحتاج الانسان لطعام غيره وعلى الأخص إذا كانت ترعى من زماليق الرياض الفواحة، ولحليب الناقة البكر الساخن الذي حلب لتوه من ضرعها ميزة صحية ممتازة إلى جانب مادته الغذائية فهو منظف للجهاز الهضمي ويقضي على كثير من العوالق والجراثيم والديدان التي قد توجد في البطن. ومن تعود على شرب حليب النوق لا يصبر عنه والكثير يفضلونه حليباً على أي نوع من الألبان أما إذا مخض فتقل قيمته ويفضل عليه

(١) ديوان سويلم العلي ص: ٢١.
(٢) شعراء النبط، ص ٢٣٥.

لبن الضأن وينتج منه زبدة غليظة، سمنها متخثراً قريب الشبه بالودك، ويصف الشاعر ريق محبوبته بحليب الناقة البكر:

٥٩ ـ حب الحبيب حليب النوق
من مِشَّة الزور لاجاني

(.......)

وآخر يقول:

٦٠ ـ له حبة أحلى من الما على الظما
وألذ من الدنيا وكل معاش[١]

٦١ ـ وألذ من در المباكير بالشتا
لياجت من بعض الرياض تحاش

(راشد الخلاوي)

أما الخيل فليس هناك وقت معين لتوالدها، وكذلك الحمير، ويبقى العرب الرحل في فصلي الشتاء والربيع في بحبوحة من العيش قوامه الألبان ومشتقاتها، والتمور، والحبوب بأنواعها، وقد تكاثرت لديهم الأغنام أضعاف ما كانت عليه واختزنت من الشحوم ما تعجز عن حمله وتكاثرت الابل وانبنى على ظهورها من الشحوم ما يسر ناظرها عندما تتهادى الناقة أو الجمل يتمايل سنامها يميناً وشمالاً وكأنه شرفة القصر المنيف.

□ جمع المنتجات الحيوانية وبيع الأغنام:

من الطبيعي أن لكل جهد ثمرته، وكما مر بنا فإن الحيوانات وما ينتج عنها يعتبر العمود الفقري لبيئة الرعي، ويتركز الانتاج الحيواني من الألبان ومشتقاتها،

---

(١) راشد الخلاوي ص٣٠٨.

فالألبان تستعمل كغذاء رئيسي يومي بالاضافة إلى ما يصاحبها من أطعمة أخرى والفائض من هذه الألبان يعمل منه الأقط كما مر بنا، والأقط هي الألبان المجففة التي يتم الاحتفاظ بها على مدار السنة وتؤكل مباشرة وأحياناً يتم مرسها بالماء وخلطها بالتمر أو الملح أو السكر، فتصبح سائلاً لذيذاً يسمى مريسة يشرب مع التمر وهو ذو مادة غذائية جيدة.

والأقط على درجات متفاوتة فمنه الأبيض الناصع الهش وهو ما يعمل في أول الربيع ويعتبر الدرجة الأولى ويعد للأكل مباشرة والنوع الثاني هو الأبيض الضارب إلى الصفرة وهو أصلب من الأول وأكثر حموضة وهو انتاج منتصف الربيع ويعد للأكل عند الضرورة وللمرس، أما النوع الثالث وهو انتاج آخر الربيع فيكون أصفر اللون داكناً صلباً حامضاً يصلح للمريس فقط والنوع الرابع وهو المخلوط بالأعشاب والنباتات البرية مثل المخلوط (بالبورق» وهو أبيض يميل إلى الخضرة طعمه طيب ونكهته مقبولة والمخلوط، بالحمصيص وهو كذلك أبيض ضارب إلى الخضرة طعمه لذيذ حامض ونكهته طيبة والمخلوط «بالطرثوث» وهو أبيض ضارب إلى الحمرة وردي طيب المذاق ونكهته مقبولة ويجمع كل نوع من هذه الأنواع على حدة في أكياس كبيرة من نسيج الصوف تستوعب الواحدة ما يزيد حوالي ١٠٠ كيلوغرام وتسمى فردة والاثنين يكونان حملاً للبعير، وتكثر أو تقل كمية ما يجمع من الأقط لكل أسرة حسب كثرة أغنامها وعناية ربة البيت وتدبيرها لكنها لا تقل عن حمل بعير أي مئتي كيلوجرام في أغلب الأحيان أثناء فصل الربيع، وربما تصل إلى ٣٠ حملاً أي ٧٠٠٠ كيلوجرام وتجهز هذه الكميات من الأقط تمهيداً لنقلها على ظهور الابل إلى أماكن تسويقها. الانتاج الثاني في فصل الربيع هو السمن، ويعبأ السمن كما مر بنا في أوعية كبيرة من جلود الغنم تسمى «النحو» ويستوعب النحو من ٢٠ ـ ٥٠ لتراً من السمن وربما زاد عن ذلك وتجمع الأسرة من السمن حسب كثرة أغنامها وعناية ربة البيت وتدبيرها، إنما يتراوح ما تجمعه الأسرة من السمن خلال فصل الربيع بين ٢٠ ـ ٥٠ صاعاً أي من ٦٠ ـ ١٥٠ كيلوجراماً وربما أقل من ذلك أو أكثر، ويجمع السمن في هذه الأوعية «النحية» تمهيداً لنقله على

ظهور الابل إلى مراكز التسويق في نهاية فصل الربيع، وتفتخر النسوة بما جمعته من هذين النوعين، الأقط والسمن خلال هذا الوقت ويعتبر مقياساً لاقتصادية ربة البيت وميزة تفخر بها وتنال عليها الهدية التشجيعية من زوجها كقطعة من المصاغ أو غيرها، العنصر الثالث الذي يدعم سابقيه هو الغنم، فكثير من أصحاب المواشي ممن لهم نظرة اقتصادية بعيدة وتدبير جيد يتخذ الاجراء الآتي: إذا سمنت الغنم في نهاية فصل الربيع عزل كبارها ذكوراً وإناثاً مع الخراف ثم باعها ولا يبقى لديه إلا الثنية وهو ماله سنة، والرباعية وهو ماله سنتان وفحل الغنم فقط وبذا يكسب مبالغ من المال إلى جانب سلامته من الكبار ومشاكلها خاصة إذا تأخر نزول المطر. أما البعض الآخر ممن تكون نظرتهم قريبة ويحبون كثرة الأغنام ويطربون لمنظرها ويفتخرون بسلالاتها فإنهم يحتفظون بكبيرها وصغيرها لا يبيعون منها شيئاً ولا يستفيدون مالاً. وعند تأخر نزول الأمطار في العام الجديد يقعون في مشاكلها وربما أكل سمينها ضعيفها.

وبالإضافة إلى ما سبقت الاشارة إليه هناك منتجات أخرى لكنها أقل أهمية من ذلك مثل المنسوجات الصوفية على مختلف أنواعها والجلود المدبوغة والصوف الخام وتعتبر سلعاً ثانوية.

□ تسويق المنتجات الحيوانية:

بعد تجهيز المنتجات الحيوانية في الثلث الأخير من فصل الربيع الذي يعتبر «دخول الصيف» حسب الاصطلاح السائد وذلك عندما يتلوى عشب الربيع ويبدأ بالجفاف كما صوره الشاعر بقوله:

٦١ ــ لا والله إلا حــدر عــمــاش
زل الــشــتــا واصــرم الــعــود

(......)

عند ذلك يتجمع الرجال لتدارس الوجهة التي يبعون بها منتجاتهم بعد عمل مسح عام للأسواق المعتادة ومعرفة أسعار سلعهم في مختلف المدن والأمصار وبعد أن يستقر بهم الرأي يبدأون بتجهيز الحملة لكل فريق أو المجموعة التي تقطن في هذا المكان بعد أن تدخر كل أسرة حاجتها من هذه المنتجات على مدار السنة يبرزون ما يريدون بيعه كل بقدر الكمية التي جمعها، سواء كان حمل بعير أو أكثر من السمن والأقط والمنسوجات والجلود والصوف وغيرها وقد تصل الحملة إلى ٣٠٠ بعير أو أكثر ويصاحب هذه الحملة التي تسمى «الحدرة» أو «الهبيط» وتعني انحدروا أو هبطوا إلى مراكز التسويق مجموعتان من الرجال المجموعة الأولى تسمى «الزماميل» وهم الذين يتولون وضع الأحمال على ظهور الابل وإنزالها عنها عند الراحة ومساعدة الآخرين عند الحاجة والمجموعة الثانية وتسمى (الجنب) وهي الفئة المسلحة التي ترافق الحملة وتحميها من أي اعتداء عليها منذ انطلاقها وحتى عودتها، وعادة يتم تجزئة الحملة وارسالها لوجهات مختلفة، حتى لا يكون فيها اغراء لذوي المطامع، وعرضة لقطاع الطرق، وأحياناً تصاحب الحملة قطعان من الغنم المجلوبة للبيع وأحياناً أخرى، يذهب بها أصحابها منفردة لأقرب مدينة، وربما جاء تجار المواشي إلى مضارب البادية، لشراء الأغنام والابل، وتباع المنتجات الحيوانية وللأغنام والابل بالعملة المتداولة في أي وقت، والأسواق التي تتجه إليها هذه المنتجات إما أن تكون من المدن الرئيسية في نجد أو المناطق الواقعة على الخليج العربي أو البحر الأحمر والهلال الخصيب العراق، وعمان «الغربية» فلسطين وعادة يشترون بأثمانها ما يكفي لتموينهم لمدة عام كامل من المواد الغذائية الرئيسية كا «التمن» الرز العراقي والقمح بنوعية الهش والصلب وأنواع الحبوب الأخرى والتمور والملابس والمواد الاستهلاكية الضرورية كالقهوة والهيل إلى جانب شراء ما يحتاجونه من الأدوات كالأشدة والهوادج والأسلحة وأدوات الزينة والأواني المنزلية وغيرها، بمعنى أن هذه الحملة تهبط للمدينة بما جمعوه خلال فصل الربيع من المنتجات الحيوانية مع ما اختاروا بيعه من الأغنام ويحضرون بدلاً عنه بعض أو جميع مستلزماتهم التموينية والاستهلاكية لمدة عام أو أقل على قدر مبيعاتهم وأحياناً تحدث مقايضة بدون استعمال النقود كأن يشتري الرجل السلعة المعلومة

بشيء مما معه، مثل أن يعطي الرجل للتاجر مقداراً من السمن أو الأقط أو رأساً من الغنم مقابل مقدار من الحبوب أو التمور أو سلعة معينة يداً بيد وهذه العملية تتم برضى واتفاق الطرفين. وهنا لابد أن نشير إلى أن الانسان في ذلك الوقت طاهر القلب نظيف الطوية، إذا قال كلمة وفى بها مهما كانت التضحيات، بعيداً عن المراوغة واختلاف النية، ومن هذا المنطلق فإن المشاكل الناتجة عن هذه المبادلات التجارية تكاد تكون معدومة، وان وجدت على سبيل الافتراض وجدت من يحلها في كلمة واحدة دون اللجوء إلى لسلطة وغيرها.

□ المراعي في نجد:

دعنا ندرك هذه الرياض الفيح قبل أن تلوي بزهورها وأعشابها لفحات رياح الصيف، فنلقي نظرة تكتحل بها عيوننا ليبقى هذا الكحل منعكساً بحدقاتها حتى العام القادم ويعود الله على هذه الأرض بصائب الوبل، وتكتسي بثوبها الأخضر الرائع مرة أخرى، ذلك الثواب الذي لا يصدق به الامن رآه وعاش بين طياته ومثانية، ذلك الثوب الأخضر السندسي الموشى بأفانين الزهور الفواحة، وأفواف الأغصان العبقه، ومائس «الزماليق» المزهرة، والذي تمثل فيه الحزون والوهاد منعطفات رائعة الجمال، وتبين الجبال السامقة الشماء روعة وجلال تلك الأطراف المرتفعة من الثوب التي يتموج لونها بمنظر سحري خلاب، عند ارتفاع درجة الحرارة قبيل الظهر، ذلك الثوب الذي يفوح من مثانيه وإردانه خلاصة أريج تلك الزهور الذي لا يجاريه أي عطر جمعه وركبه الانسان، حيث أن هذا العطر من تركيب الخالق العظيم الذي نسج سدى ولحمة هذا الثوب من شذا تلك الأزهار بمقادير احتفظ بسرها لنفسه فجاءت ذات رائحة نفاذة، تحيي النفوس، وتبعث فيها الحيوية والنشاط وتذكر برائحة جنة الخلد كما ورد وصفها في القرآن الكريم والأحاديث والأقوال المأثورة. ويرفرف فوق هذا الثوب الأخاذ، الطيور المغردة التي تصدح بأعذب ألحانها منذ بزوغ الفجر وحتى يطل ذهب الأصيل هذه الأغاريد تعزف للحياة أرق الألحان إلى الأسماع وأقواها تأثيراً على العقول وأعمقها صدى في النفوس مترجمة لغة

تلك الطيور التي تسبح بحمد ربها، وتدعو الإنسان إلى مثل ما تفعل، وبين شقائق هذا الثوب وفي نتوآته وحزونه يجد طعاماً حلالاً طيباً، من خيرات هذه الأرض الطيبة ألا وهو الفقع الكمأة بنوعيها «الزبيدي «الجبى».

و«الجبى» وإلى جانبه الفطر الأبيض وغيرهما مما تنبت الأرض، الذي يتخذ منه الانسان طعاماً لذيذاً طرياً، إذا فهذا الثوب الأخضر الفضفاض يطعم الإنسان ويسقيه، وينعشه، ويسليه، ويربطه بخالقه، ويعلمه البساطة والجمال، ويكون مرتعاً لأنعامه.

ومتى نافحت هذا الثوب نسمات الرياح بهباتها اللطيفة تكونت منها صبا نجد الذي تغنى به الشعراء على مختلف العصور والأزمنة والذي يحن إليه كل من تضلع منه بملء رئتيه في يوم من الأيام والأمثلة على ذلك كثيرة تفوق الحصر ونورد منها:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادني مسراك وجداً على وجد

(مجنون ليلى)

فيا حبذا نجد وطيب ترابه
إذا هضبته بالعشى هواضبه[1]

وريح صبا نجد إذا ما تنسمت
ضحى أو سرت جنح الظلام وجائبه

بأجرع ممراع كأن رياحه
سحاب من الكافور والمسك شائبه

---

(١) بحوث المؤتمر الأول، ص ١٨٢٥.

وأشهد لا أنساه ما عشت ساعة
وما أنجاب ليل عن نهار يعاقبه
ولا زال هذا القلب مسكن لوعه
بذكراه حتى يترك الماء شاربه

(أم حسانة المرية)

أقول لصاحبي والعيس تهوى
بنابين المنيفة والضمار[1]
تمتع من شميم عرار نجد
فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد
وريا روضه غب القطار

(الصمة بن عبد الله القشيري)

فمن «روضة الخفس» التي فاع عطرها
إلى «روضة التنهات» في الغور والوهد[2]
تطاول فيها العشب حتى كأنه
سنابل أكمام تفتحن عن ورد
بدا أصفراً في أبيض فكأنه
سماوة قرص الشمس قد لف في برد
وفاح شذاه بالأريج كأنه
عبير سرى رياه من جنة الخلد

---

(١) بحوث المؤتمر الأول، ص ١٨٢٧.
(٢) بحوث المؤتمر الأول، ص ١٨٤٧.

سقـاه ولي الغيث صيب مـائـه
كأن قد سقاه الورد في صـورة الورد

تنـاوحـه ريـح الـصبـا فـتهـزه
فيختال إذ يهتز في الـروض من بعد

تصـافحـه شمس الأصيـل تحيـة
كما صافحته الشمس من قبل في رأد

(فؤاد شاكر)

ميثـاء جـاد عليهـا مسبـل هـطل
فـامـرعـت لاحتيـال فـرط العـوام

إذ يجـف ثـراهـا بـلهـاديـم
عن كـوكب نـازل بـالماء سجـام

كـأن ريـح خـزامـاهـا وحنـوتهـا
بـالليـل ريـح «يلنجـوج» واهضـام

(النمر بن تولب العكلي)

سـألتـك عن منـازلنـا بنـجـد
وهـاتيـك الأجـارع والـبـطاح

وهـل نـبـت الـثـمـام أو الخـزامـى
فـعـطر فيـه أنـفـاس الـريـاح

(عبد الغفار الأخرس)

---

(١) المؤتمر الأول ١٨٣٦ .
(٢) المؤتمر الأول ١٨٥٣ .
(٣) المؤتمر الأول ١٨٦٠ .

وعن الأشجار الوارفة الظلال في هذه البقعة الطيبة يرسم لنا الشاعر هذه الصورة المجسمة الناطقة بالأسرار الكامنة التي أودعها الله فيها إذ يقول:

وسرحة بربى نجد مهدلة
أغصانها في غدير ظل يرويها

إذا الصبا نسبت والمزن يهضبها
مر النسيم على أين يناجيها

تقيل في ظلها بيضاء آنسة
يكاد ينشرها لينا ويطويها

سود ذوائبها بيض ترائبها
حمر مجاسدها صفر تراقيها
عارضتها فاتقت طرفي بجارتها
كالشمس عارضها غيم يواريها
والعين من حب اعرابية عرضت
تعوم في عبرات كنت أذريها
فليتها لي والأيام أكثرها
تعذب النفس بالدنيا وما فيها

(محمد الأبيوردي)

وغير ذلك ممن تعرض بالوصف لرياض نجد ورباها وطيب صباها.

□ البحث عن أماكن المياه:

من الطبيعي أن يخضع الإنسان لتقلّبات الجو على مدار السنة من شتاء وربيع وصيف وخريف، وعلى هذه المعطيات يجري حساباته ويرتّب أموره بما يتناسب وكل فصل وخاصة العرب الرحّل الذين يهجرون مواطن المياه في فصلي الشتاء والربيع ويكتنفونها في فصلي الصيف والخريف، فما إن يقترب فصل

الصيف ويرون بوادره بارتفاع درجة الحرارة وذبول الأعشاب التي تصبح رماماً حتى يذكّر كلّ منهم صاحبه من الحضر المقيمين في القرى والمدن الصغيرة، أو يتذكّروا الآبار الواقعة بقرب المراعي سواء أكان ماؤها غزيراً أم من الرسوس والثمائل والمشاش التي توجد في جوف الوديان الكبيرة أو مراكد المياه، هذه الأخيرة عادة لا يركنون إليها كما قال الشاعر:

٦٢ ـ الرَّسْ لو أنك تساودت جمته
على الطول تملأه الخشاش دمال

٦٣ ـ والعد لو أنك تعاسرت مجذبه
يزمي على الجذاب والميال

(سويلم العلي)[1]

فلذلك تراهم يقصدون الآبار الغزيرة التي تروي ظمأ مواشيهم حينما يحسّون بقرب حلول الصيف، كما رسمها الشاعر بريشته في القطعة التالية:

٦٤ ـ سقوى لياجا نقضت الجزّ بالصيف
وأبعد ثرى نقعه وكنت مزونه[2]

٦٥ ـ والعشب صفر به شعوف من الهيف
والراعي أخلف شربته من سمونه

٦٦ ـ وجتنا جراريرهم تدق المشانيف
البيت يبنى والظعن يقهرونه

٦٧ ـ وتقاطروا مثل الحرار المقاييف
وراع الغنم عن مرحهم يفهقونه

---

(١) ديوان سويلم، ص ١٨٠.

(٢) المجموعة البهية، ص ٥٥.

٦٨ ـ وتــواردوا عــدّ شــرابــه قــراقيـف
العــدّ لـو هــو بـالفضــا يشحنـونــه
(عبد الله بن سبيل)

وبهذا تبدأ تلك المضارب بالتحفّز والتجمّع استعداداً للنزوح إلى أماكن تواجد المياه، وتعقد الاجتماعات لتداول الرأي في أي الآبار القريبة من المراعي تفي باحتياجاتهم من الماء طيلة فصل الصيف، وأيّها أعذب ماء، وفيما إذا كان على هذه الآبار فرق أخرى قد ينشأ من تواجدها مشاكل، أما من تعوّدوا على الشرب من القرى فلا تصادفهم أي مشكلة في الحصول على الماء ذلك أن لكل واحد منهم رفيقاً من الفلاحين في القرية التي يقصدونها يسقي إبله وأغنامه من بئر رفيقه، حيث يعدّ الفلاح مشرعاً بطرف الفلاحة يجري إليه الماء يومياً لتشرب منه الغنم والإبل، أما من المشرع مباشرة أو بحياض من الجلد المدبوغ والمدهون مشدودة على أغصان ثخينة من الشجر محنية ليكون للجلد قعر يصل إلى ٨٠ سم، وتباعد هذه الحياض عن بعضها ويسكب فيها الماء تشرب منه الغنم، وتوضع مثل هذه الحياض إذا خشي أن تتزاحم الغنم على البركة ولا تطلق قطعان الغنم مرة واحدة، بل يقهرها الرعاة ويرسلون منها أرتالاً تتوالى كلما شرب رتل وارتوى أزيح عن الماء وأطلق مثله، وهكذا حتى تشرب قطعان الغنم كلها، أما الإبل فهي ترد منفردة عن الغنم في يوم آخر، وتقهر الأذواد ويرسل منها مجموعة بعد أخرى، وكلما شربت مجموعة أزيحت عن الماء وتم إيراد مجموعة أخرى، ولأصوات الإبل وهي ترتشف الماء، إيقاع موسيقي يشبه صوت الأوتار الغليظة المكثّفة شبيه بأوتار الجاز على إيقاع ارتشافها لجرعات الماء، وكلما شربت دفعة من الماء رفعت رأسها ونفضت شفارها لتأخذ نفَساً عميقاً ثم تشرع بالشرب مرة أخرى حتى ترتوي ثم تنصرف عن المشرع، والفلاح وصاحب المواشي على علاقة جيّدة ببعضهما قوامها المعرفة والمصلحة المتبادلة بينهما، إذ يهدي صاحب المواشي للفلاح السمن والأقط والغنم وأحياناً الإبل ويمنحه «عرقة» البعير ليقوم «بسنيه» مدة الصيف بدون كراء ومتى انتهت المدة أعاده إلى صاحبه، والفلاح يمنح صاحبه النخلة والنخلتين أو يعطيه مقداراً من التمر عند صرام النخل

وتتصف هذه الهدايا من الجانبين بالجزالة والمروءة، كما أن وجود الأغنام والإبل في أرض الفلاح تزيد من خصوبتها لما تتركه في مواطنها من سماد.

وحول مشارع ويرك وحياض شرب المواشي تجري تبادل نظرات الإعجاب بين الشباب والشابات من رعيان وراعيات المواشي وشباب القرية مما يترك أثراً عميقاً في النفوس، وذكريات لا تنسى، لا سيما بعد تكرار اللقاءات وتبادل الأحاديث على حذر ومن بعيد كما قالت إحداهن:

٦٩ ـ لا تهـرجـن كـود بـعـيـونـك
واهـرج وهـرجـك عـلى بـالي

٧٠ ـ إن كـان أهـيـلك يـعـذلـونـك
أنـا تـرى الـسـيـف يحـنى لي

وتبقى ذكريات هذه اللقاءات تلهب عواطف الشعراء ولا سيما بعد أن يحين موعد نزوح العرب الرحّل عن مواطن المياه في بداية فصل الشتاء كما أشار إلى ذلك الشاعر:

٧١ ـ الـبـدو هم واضـعـينـهـم عـذبـوبي
هـنيـت قـلـب لا عـرفـهـم ولاجـوه

٧٢ ـ شـدّوا ومـدّوا بـالغـزال العجـوبي
يـالـيتـهـم مـن جملة الحـضـر خلوه

(عبد الله بن سبيل)

وتشرب الغنم يومياً من شدّة الحر وإذا برد الجو تشرب يوماً بعد يوم وتسمّى «مغبّة» أما الإبل فإنها في شدة الحرارة تشرب لليوم الثالث ويومين بدون ماء ويسمّى هذا النمط «الربع» وعندما يبرد الجو فإنها تشرب لليوم الرابع وتسمّى «خمس».

هذا بالنسبة لمن يرِدُون على القرى، أما من يردون على الآبار المنفردة الواقعة بقرب المراعي إذا كانت البئر طويلة فإنهم ينصبون عليها مركازين من الخشب تكون على فم البئر يضعون عند التقاء رأسيهما بكرة ــ محالة ــ والرشا «المحص» والدلو التي يجرّها البعير عند نزف الماء من البئر، ويسوق البعير شخص ويتلقّى الدلو شخص آخر ثم يسكبها في الحوض الجلدي الذي سبق ذكره وربما ساعده شخص آخر في هذه العملية، ويردّد أثناء عملية السقي أهازيج تطرد السأم وتبعث النشاط في النفوس، منها، كما صوّره الشاعر:

تمطو الرشاء فتجري في ثنايتها
من المحالة نقاً رائداً قلقاً[1]

لها متاع وأعوان غدون به
قتب وعزب إذا ما أفرغ انسحقا

وقابلاً يتغنّى كلما قدرت
على العراقي يداه دائماً دفقاً

(زهير بن أبي سلمى)

أما إذا كانت البئر قصيرة من ١٠ أمتار وأقل فإن سقي المواشي يتم بجذب «متح» الماء من البئر على الأيدي بدلو صغير «قلص» يتناهبها اثنان من الشبان يقفان بجانب بعضهما كل يتلقّف «المحص» مرة نهباً سريعاً بنشاط وحيوية حتى تخرج الدلو من البئر ثم يأخذها مَن تنتهي الدلو في يده ويسكبها في الحوض الجلدي لتشرب منه الإبل أو الغنم وهكذا دواليك حتى ترتوي رعيّته أو ذوده، ويكون شرب الغنم قبل الإبل أو يكون لكل منهما شرب يوم معلوم، ويردّدون أثناء متح الماء من البئر أناشيد من الوزن القصير والإيقاع الحاد القابل للسرعة متمشّياً مع إيقاع أكفّهما على الحبل مثل:

---

(١) ديوان زهير، ص ٤١.

٧٣ ـ يـا دلـونـا   يـا دلـيـه
صـبّـي عـلى الـرعـيـة

٧٤ ـ الـبـل   مـا يـرويهـا
إلا زعـب راعـيـهـا

٧٥ ـ هـب الهـوا شـمـالي
جـانـا بـريـح الـغـالي

٧٦ ـ يـا محـلى سـقـي الـذودي
واسـقـيـه أنـا بـعـضـودي

٧٧ ـ هـذي الـوضـيحـا تـردى
تـقـول هـذا وردي

٧٨ ـ جـانـا غـزال الجـردى
يـلبس ثـويـب وردي

يردّدون هذه الأبيات وأمثالها عدة مرات وهذه الأهازيج تبعث فيهم النشوة وتجنّبهم الإرهاق والتعب ولا سيما عندما يرون الجنس اللطيف من راعيات الغنم يسقين قطعانهن، أو يملأن قِرَبهن من هذا الماء الذي ينزفونه وتحدث قرب الماء لقاءات بين الشباب يتبادلون خلالها نظرات وكلمات الإعجاب على حذر كما مرّ سابقاً.

ويبدأ احتياج المواشي للماء في الشهر الأخير من فصل الربيع عندما يغيب نجم الثريا «على حسابهم» مع أذان المغرب وتقترن الثريا بالهلال في أول ليلة، والثريا تقترن بالقمر بعد كل شهرين أي يكونان بمحاذاة بعضهما على سمت واحد متّجهين إلى المغيب، ويقول العرب الرحّل «قران تاسع برده لاسع، وقران سابع مجيع وشابع، وقران خامس بالربيع غامس، وقران ثالث رحيل ولايث، وقران حادى على الجو اترادى».

□ حداء الإبل:

وما دمنا في مضارب البادية يحسن بنا أن نلمّ بجانب معينّ يتعلّق بالموضوع ألا وهو حداء الإبل، فكما رأينا سابقاً أن النياق ذات عاطفة فيّاضة على ولدها وهذه صفة نجدها تنطبق على الإبل بوجه عام، حيث أنها لها التصاق بالإنسان العربي لا يماثلها في ذلكَ إلا الخيل، ولا غرابة في ذلك فهي رفيقة حياته منذ القدم وهي سفينته عبر الصحراء، وقد طوى على ظهرها الفيافي والقفار وأدلج الأصقاع والأمصار، وهي شريان حياته النابض في مواصلاته وتنقّلاته.

وعلاقة مداها آلاف السنين لا بد أن تبقي من الجذور ما لا يسهل انتزاعه، فنجدها طوع بنانه يوجّهها بصوته كيف يشاء، ويطربها بغناه إن غنىّ، فترقل به بعد الوخد والذميل طرباً لغنائه فوق ظهورها ويجذبها بصوت حدائه، وتستجيب لندائه فرحة مسرورة، إذا صاح راعي الإبل بصوته تجمّعت عليه من أقاص مرعاها، وكأنه ينادي جنوداً طيّعين وتحيط به إحاطة الخاتم بالإصبع منتظرة أوامره وتوجيهاته، ومتى صاح الراعي بصوته، قطعت الشكائم والعقل والقيد إن كانت مربوطة أو معقولة أو مقيّدة، وإن كانت في «المنحاة» بدأت تتلفّت يكاد صوت الحداء يمزّق أفئدتها، ويخرجها عن طورها، وتكاد تخرج بكامل عدّتها من المنحاة فإن لم تستطع إلى ذلك سبيلاً ألّمت بها حالة «هستيرية» لبعض الوقت ثم تنزف عرقاً وتتدحرج الدموع من عينيها جزعاً على عدم المقدرة لتلبية هذا النداء الحبيب إلى نفسها، وهذا الحداء على نوعين: النوع الأول هو نوع من الغناء المجرور جداً والذي يفصل بين البيت والآخر صيحة طويلة حادّة مثل:

٧٩ ـ يا فاطري يا شعيلة
حنّا سرينا الليلة

«واه»

٨٠ ـ مـا نهتـني بمـراحـي
ولا نـشـرب الضـحـضـاحـي

«واه»

وهذا الحداء يتم في المرعى عندما يريد الراعي العودة بها إلى مضارب البيوت، ولكل راع صوته المميّز الذي تعرفه إبله. أما النوع الثاني فهو الحداء الذي يطلقه راعي الإبل عندما يريد أن يسرح بها، ويتكوّن من كلمات يفصل بينها صيحات طويلة حادّة مثل: دوها... العليا... واه، دوها... العليا... واه، يردّد الراعي هذا الحداء سواء في مضارب البادية أو في القرى، غير أنه في القرى يختلف بعض الشيء، حيث أن له صيحتين فقط للمرة الأولى، وتعني أن يبدأ سائق السواني في الانتهاء من السياق، يحطّ عنها عدّتها ويحضرها في مكان تجمّع الإبل، وبعدها يبدأ بحدائه للمرة الثانية لثلاث صيحات وهذا دليل على أن الإبل ستتحرّك سارحة إلى الفلاة، ويفصل بين الحداء الأول والثاني ما يقارب نصف ساعة، ولما كانت الساعة لم تنتشر فإن موعد سرحة الإبل يحدّد بارتفاع الشمس وتحديد الظل أي ما يقارب الآن الساعة التاسعة والنصف صباحاً، و«دوهات» الراعي مضرب للمواعيد بين الناس، قال الشاعر:

٨١ ـ وإن حل لي وقت الضحى والديش قاد
سـرحت لـلأجـواء طلق بـلا قيـد

٨٢ ـ تلقى القهاوي عندهم ضـرب حداد
ومـا يسّـر الله من وجـود الأجـاويـد

(عبد الله القضاعي)

□ تلقيح الأغنام والخيل والإبل:

ويستمر العرب الرحّل، كما أسلفنا، على مواطن المياه وقرب الآبار وفي القرى طيلة فصل الصيف وأوائل الخريف «وهذه الفترة كلها يحسبونها قيظا» وفي

أثنائها عند طلوع الجوزاء إذا بقي ستة أشهر على دخول «الوسم» في الثلث الأخير من الخريف الذي يتوقع فيه هطول الأمطار، ولأن مدة ضريع الغنم ستة أشهر، عند ذلك يبـدأون بهد الفحل، وهو اطلاق العنان له ليبدأ بقرع الغنم لمدة شهر ونصف تقريباً ويكون الفحل قبل ذلك «مكموماً» وهو أن يعلق قطعة من الجلد أو من القماش الغليظ بظهره تتدلى على بطنه وتمنعه من الوصول إلى أنثاه، وعندما يرغبون في تلقيح الغنم يزيلون هذا الحاجز، وخذا الفحل للرعية كلها من جنسه وعادة يتم اختيار الفحل من السلالات الممتازة ذات مواصفات معينة، منها طول الأعضاء وطول الرقبة وارتفاع عـرنون الأنف، وتنـاسق الأعضاء، ويولون عناية فائقة في اختياره سواء من الضأن أو الماعز، وبقية الذكور من النوعين يتم خصيها بعد مرور خمسة أشهر على ولادتها، وذلك بفرض صفن الخصية وانتزاعها منه، وتمتاز الخراف والتيوس الخصيان باقتناء الشحم بسرعة ولذة لحمها، كذلك يبذلون جهوداً كبيرة، في اختيار فحل الابل والخيل وربما أدى في بعض الأحيان إلى غزو معين بسبب اقتناء هذه السلالات الممتازة من الخيل مثل: كحيلان ـ الصقلاوي ـ الحمداني ـ وغيرها. وهذا الحصان الذي يتم اختياره «لتشبيه» المهار الأصيلة لينتج من هذه السلالة الصفوة الصافية من الخيول العربية الأصيلة التي تنفع عند الحاجة وقد افتخر الشعراء والفرسان بهذه السلالات مثل أدهم عنترة بن شداد، وكروش ابن رشيد.

٨٣ ـ يا بيه أنا «بكروش» لا أعطي ولا أبيع

قبلك طلبهـا فيصـل وابـن هـادي

(عبيد بن رشيد)

وقـال آخـر:

٨٤ ـ لا وأجـوادي تـلحـق الـلي مقافي

ليـا حـركـو حبـل الشبيـلي ربـوعي[1]

---

(١) آدابنا الشعبية، ص ٩٩.

٨٥ ـ تهذل كما السرحان لا صار حـافـي
ليـاحـل بـأطـراف السبـايـا فـزوعي

(قاسي بن حشر)

وكما هي الحال بالخيل فكذلك في الابل يتم اختيار الأصائل من نجائب الابل، كالحرار العمانية، وحرار عِلْوى من مطير، وحرار الرمالات من شمر والدرعية العمانية: وحرار الشرارات، وغيرها من القبائل التي تعتني بالسلالات الممتازة وقد تغنى بها الشعراء كذلك قال الشاعر:

٨٦ ـ يـا راكب من فـوق حـرمشـذر
مـادنق الـرقـاع يـرقـع رمـوقـه(١)

٨٧ ـ يـشـدا ظـليـم مـع حمـاد تحـدر
والا النـداوي يـوم تـطلق سبـوقـه

٨٨ ـ أمـه لغتنـا من عـمـان تـذكـر
وأبـوه من قعـدان عِلْوَى عمـوقـه

(كنعان الطيار)

وشاعر آخر يصف جمله بقول:

٨٩ ـ يـا راكب من عنـدنـا فـوق عنسى
سـحـوان قـطاع الـفيـافي عـمـاني(٢)

٩٠ ـ عنسى سبـرس بالسـواد الوغسـطي
قـطاع دو هـوذلي سـوسـحـاني

---

(١) من شيم العرب، ص .
(٢) أبطال من الصحراء، ٢١٢.

٩١ ـ هـزتـه بعــود اللوز من غـير لمسى
ويـامـا قـطع من نـازح السمهــداني

(مجدي الهبداني)

وثالث يقول:

٩٢ ـ يـا راكب اللي مـايداني الصفيـري
هميلع مـن نقــوة الهجن ســرحــاح[1]

٩٣ ـ أمـه نعـامـة واضـربــوهـا بعيــري
جــا مشبهــاني عــلى خف وأجنــاح

(تركي بن حميد)

ورابع يقول:

٩٤ ـ يـا راكب من عندنـا فوق مـذعـور
أمخـمــر مــاطـق عـقـب الـعســافي[2]

٩٥ ـ مـا فوقـه إلا الخـرج والـزل منشـور
وأد ويـرع من فـوق الأمتــان وافي

(ساجر الرفدي)

وكما تغنى الشعراء بالحر الأصيل كذلك تغنوا بالذلول النجيبة، قال الشاعر:

٩٦ ـ يــا راكب حمـرا بــراسـة صعــالــه
هي منـوة الطارش ليـا صنقر الـلال

---

(١) آدابنا الشعبية ٤١.
(٢) آدابنا الشعبية ١٠٦.

٩٧ ـ حمرا ولا رضع الحوير مشاله
ولا قلطه لمقطب الحمل جمال

٩٨ ـ ليا هبطه حيد وحيد نباله
ليا كنا الرابدا اليا شافت ازوال

(عبد الله القضاعي)

وثاني يقول:

٩٣ ـ يا فاطري ذبي خرايم طمية
إلى اشمخرت مثل خشم الحصاني[1]

١٠٠ ـ ذبي طمية والرياض العذية
تنحري يرزان زين المباني

(راكان بن حقلين)

وثالث يقول:

١٠١ ـ يا راكب حمرا تذب الطواريق
جدعيه قطع الفيافي مناها[2]

(ساجر الرفدي)

ورابع يقول:

١٠٢ ـ ليا صار لك من عوص الأنضار زماله
حمرا تورد بك ليا صنقر اللال[3]

١٠٣ ـ خله مع الديان تمشى لحاله
ليا صار ما أنت اللمسة الخشم حمال

(أبو زويد)

---

(١) آدابنا الشعبية، ص ٦٣.
(٢) أبطال من الصحراء، ص ١٣٤.
(٣) الشوارد ١٥١.

وكما هي الحال بالنسبة لذكور الغنم الغير مرغوب فيها يتم خصيها كذلك بالنسبة للابل وأحياناً الحمير، من هذا المنطلق نجدهم يحرصون على السلالات الممتازة، كفحول لمواشيهم ينتج عنها أنواع جيدة من المواشي وربما اشتهرت قبائل وأسر بالسلالات الموجودة لديهم من الخيل والإبل والأغنام، أما الذين يغفلون السلالات الممتازة فتجد مواشيهم من النوع الرديء.

وكما رأينا موعد تلقيح الغنم هو فصل الصيف فإن الابل تختلف عن ذلك حيث يطلق الفحل في أول الشتاء «الأربعانية» وذلك حتى تلد الناقة بعد عام كامل لأن مدة لقاحها سنة كاملة في وسط «الربيع»، والجمل الفحل الهائج لا يثنيه عن الناقة أحد، هذا الحيوان الأليف الوديع إذا هاج تغير وضعه ومزاجه، وبدأ بالهدير يقف منتصباً ويحني رقبته شامخاً برأسه ويبدأ بالزفير الشديد والهدير، ويخرج من فمه «الهدارة» وهي غشاء رقيق وردي اللون يشبه «البالون» الذي يلعب به الأطفال يكبر حجمها مع شدة الزفير والهدير حتى تصبح بحجم ثمرة الأترنج وأكبر، ثم تبدأ بالضمور حتى تتلاشى ثم تدخل في فمه مرة ثانية وهي غده ملتصقة بلهاته العليا، ثم يطفو الزبد الكثيف على شدقيه وتصطك أسنانه ويتضرس بأضراسه فتسمع لها قضيضاً شديداً في هذه الحالة «الهستيرية» ومتى بركت أو بَرَّكَ أنثاه «المجسر» جثم عليها، وعلامة الناقة «المجسر» أن ترفع ذيلها إذا أحست بقرب الجمل منها، ومن الخطر التحرش بالجمل الهائج لأنه يسحق من يتحرش به بزوره بعد أن يبرك عليه ويقضمه بأسنانه، وضحاياه في هذه الحالة كثيرون ويأنف الجمل الحر من «تضريب» أمه ويقال انه ربما عميت عيناه وقت «التضريب» فإذا اكتشف أنها أمه مات جزعاً.

أما الخيل فليس هناك وقت معين لتلقيحها إلا أنه يفضل أن يكون التلقيح إذا أعطت المهرة أو الفرس وتوفر الحصان الأصيل في فصل الربيع حتى تلد في الربيع القادم لأن مدة لقاحها سنة كاملة، ويأبى الحصان الأصيل أن «يشبى» ينزي على أمه مهما كانت الأسباب، وفيما لو عمي عنها واكتشف فيما بعد أنها أمه مات جزعاً وقهراً في الحال ويروي المجربون قصصاً واقعية في هذا

الشأن. أما الحمير فالبعض يحتفظ بالسلالات الطيبة منها والبعض الآخر يتركها للصدف وتلد الحمارة بعد سنة وعشرة أيام كما قال «الصليبي» «ما عقب عشر للحمار مزيد» أي عشرة أيام بعد السنة والحضر ينتفعون من هذا الحيوان أكثر من البدو لأنه سبيل مواصلاتهم اليومية لذلك فعنايتهم به أكثر.

وهكذا يستمر البدو الرحل قرب أماكن المياه طيلة فصل الصيف وأوائل فصل الخريف ومتى تحسن الجو مائلاً إلى البرودة تراهم ينزحون قليلاً عن أماكنهم السابقة حتى يروا بوادر نزول الغيث ثم تبدأ دورتهم الجديدة بالرحيل إليه كما حدث منذ عام.

□ □ □

الفصل السادس:

التجارة

□ تجارة المواشي:

لم تكن التجارة آنذاك كما هي عليه في الوقت الحاضر منظمة حسب لوائح وقوانين وأنظمة تجارية دولية، وإنما كانت تعتمد على الجهد الفردي والجماعي المبسط، وتخضع لقواعد العرض والطلب على السلع الموجودة المحلية وبما أن المجتمع يعيش في معظمه على قطاعي الزراعة والرعي فلذلك نجد التجارة في هذين النوعين من السلع التي ينتجها هذان القطاعان، والتجارة في ذلك الوقت محفوفة بالمخاطر، إذ إن الأعداد الهائلة من المواشي والمبالغ الطائلة من الأموال وضروب التجارة الأخرى، تغري الكثيرين ممن ستمر بأراضيهم للاستيلاء عليها، ولا سيما أن السلطة المشرفة ليست بالدرجة التي تمكنها من السيطرة على الأوضاع الداخلية تماماً إذا والحالة هكذا، فلابد من أن يتخذ التاجر احتياطاته وترتيباته مع ممثلي هذه السلطة أو ممثلي شيوخ القبائل الذين سيمر بأراضيهم وذلك بدفع أتاروة معينة تعد كضريبة مرور أما مبلغاً مقطوعاً من المال على الحملة كلها أو مبلغاً معيناً على كل رأس من الماشية لمندوب كل إمارة أو قبيلة في طريقه وذلك من أجل حمايته وممتلكاته أثناء مروره، ولما كانت المكاتبات لم تنتشر آنذاك فإن التاجر يصطحب معه أحد الأفراد الذين يمثلون السلطة أو شيخ القبيلة وعند تعرض القافلة لأي خطر من فرد أو أفراد في حق هذه القبيلة من الأرض يخبرهم هذا المندوب أن هذه الحملة «بوجه» فلان أي بحمايته ومنها يفهم المقصود ولا أحد يتعرض لهم بسوء، وهكذا على طول الطريق حتى يصل

إلى منتهاه، ولا شك أن التاجر يضيف هذه الأتاواة إلى تكاليف البضاعة عند احتساب الأرباح، وإذا أمعنا النظر نجد التجارة تتشعب إلى أبعد من ذلك وهي كما يلي:

تجارة المواشي من الابل والأغنام وهذه تكون على محتويات متعددة، المستوى الأول وهم من يسمون «عُقَيْل» وهؤلاء يشترون الابل بأعداد كبيرة من نجد ويصدرونها إلى الشام وفلسطين ومصر ويسمون تلك النواحي «الغربية» وتبلغ اعداد الابل التي يشترونها إما من مضارب البادية أو من الأسواق القريبة منها بالمئات، وتبلغ المسافة التي يقطعونها بما يقارب عشرين يوماً وليلة ويتخذون استعدادهم بالحماية المسلحة للحملة بالاضافة إلى ما يدفعونه لمن يمرون بأرضهم من أتاوات، ويستأجرون من الشباب الأقوياء من يساعدونهم أثناء مسيرة الحملة ويتبعون الطرق التي يتوفر بها الماء للابل لكل ثلاثة أيام على الأقل، ووقت شرائهم للإبل في نهاية فصل الربيع عندما تكون الإبل قد اقتنت الشحم وهذا الوقت مناسب للأسفار، فنهاره معتدل وليله بارد نسبياً، ولا تحتاج الإبل فيه إلى الماء كثيراً مما يساعدهم على قطع مسافات طويلة دون الحاجة إلى الماء وحتى وصلوا إلى مراكز التسويق باعوها وعادوا بأثمانها وربما أبقوا على البعض منها مما تحمل الاثقال واشتروا بأثمان ما باعوا بضائع أخرى من نفس البلد مما لا يوجد ببلدهم وعادوا فيها ليجدوا فيها صفقة مربحة. ويحرصون على البضائع الثمينة مما خف حمله وغلا ثمنه، ولابد لبائع الأغنام أو الابل من الاستعداد لفئة تسمى «الشريطية» وهي التي تشتري الأغنام والابل بأعداد كبيرة وهي فئة محترفة لهذا النوع من التجارة فلابد أن يكون البائع رحب الصدر، صلب العود، مرنا، رزيناً لا تزحزحه الكلمة، ذكياً يعرف كيف يتصرف مع هذه الفئة، التي تذيق البائع أنواعاً شتى من اللعب بـالأعصاب في تخفيض الأسعـار والتجاذب، بالمساومة، والإلحاح الشديد بطلب البيع، والمغالطة فيما بينهم، أحدهم يزيد في السعر والآخر يثنيه عن ذلك وترى «ترمومتر» الأسعار يرتفع فجأة من أحدهم ويهبط هبوطاً حاداً من الآخر، وأحياناً يعزفون عن المساومة جميعاً وينصرفون عنه وبعد فترة يأتيه واحد منهم يدعي الحذق والعقل والصدق، ذلك لجس النبض،

ويسوم بسعر منخفض قليلاً عما سبقه فإن باعه كان ذلك ما يريد وإن أصر البائع على سعر معين انصرف عنه وربما عادوا إليه واشتروا ما معه، وأحياناً إذا عجزوا عنه ورأوه مغادراً المكان بابله أو أغنامه لحقوا به واشتروا ما معه، خاصة إذا كان معه ما يغريهم حسب معرفتهم وخبرتهم بهذه المواشي وهذه الطرق يعتبرونها فناً من فنون التجارة والمضاربة التجارية وهو شبيه بما يحصل الآن في أسواق البورصة في الدول المتقدمة وأسعار الابل في ذلك الوقت حسب العملة الدارجة في بعض الأحيان من ٧٠ ــ ٣٠٠ ريال وربما أكثر من ذلك أو أقل.

المستوى الثاني هي مؤلفي الأغنام ويتم شراؤها عادة من مضارب البادية حول المياه سواء على الآبار أو بقرب القرى وذلك بعد انقضاء فصل الربيع وامتلائها بالشحم ويشترون منها أعداداً كبيرة قد تصل إلى الآلاف من رؤوس الغنم ثم يتجهون بها إلى مراكز التسويق القريبة متمشين حسب مسير الأغنام يتتبعون بها الأماكن التي توجد بها المياه والكلأ حتى لا تتأثر الأغنام وينقص شحمها ويصدرون هذه الأغنام إلى مراكز تسويقها على ساحل الخليج العربي والبحر الأحمر بالاضافة إلى المدن الرئيسية في ذلك الوقت، وإذا علمنا أن استهلاك الناس من اللحوم في ذلك الوقت أقل مما هو عليه في الوقت الحاضر، مع توفر اللحوم لدى كل فرد في بيته أو مزرعته فإننا ندرك انخفاض أسعار الأغنام نسبياً لكن كما أسلفنا حسب العرض والطلب، وبعد بيعها يستبدلون اقيامها بعروض التجارة المتوفرة في ذلك البلد مما يمكن تصريفه ببلدهم ويفرض التاجر السعر الذي يريده حسب الطلب على سلعته ولعدم وجود المنافسة، وأحياناً انعدام هذه السلعة في السوق إلا ما عنده مما يدخله في نطاق الاحتكار، والتجارة مغامرة منذ أقدم العصور ومتى نجح المغامر فإنه يفرض نفسه على من حوله سواء في ميدان التجارة أو غيرها.

ولابد لبائع الأغنام من المرور على «شريطية» الغنم الذين مر ذكرهم، وأسعار الأغنام في ذلك الحين تتراوح ما بين ٣٠ ــ ٥٠ ريالاً وتزيد أو تنقص وقد وصلت في بعض الأحيان إلى أن الخروف بريالين وثلاثة والتيس بريال واحد، وتحكى قصة بها شيء من الطرافة وهي أن أحد بائعي الغنم جلب تيوساً إلى

السوق وعندما مساومته للتيوس. بريال ونصف ريال وربع وريال وثلث قال أنا ما أعرف هذه «الحراوين» الذي يريد التيس بأخيه يأخذه أي بريال واحد؟!! وعند ذلك أخذوا جميع ما معه في زمن قصير.

□ تجارة المنتجات الحيوانية:

تتمثل المنتجات الحيوانية بشكل رئيسي من السمن والأقط «البقل» وأشياء ثانوية كالمنسوجات الصوفية والجلود المدبوغة والصوف وعادة يقصد التجار مضارب البادية لغرض التبادل التجاري إما أن يكون شراء هذه المنتجات نقداً بالعملة المتداولة بسعر الصاع من السمن والأقط والقطعة من المنسوجات والجلود وأحياناً يحضر التجار معهم بضائع وسلع مما يحتاج إليه الناس من السلع الضرورية كالأقمشة والملابس والقهوة والهيل والسكر والشاي والأواني واللوازم المنزلية والمصوغات وأحياناً بعض التوابل والأفاوية والأدوية ويتم استبدالها بالمقايضة في المنتجات الحيوانية الآنف ذكرها. والتاجر يأخذ حقه كاملاً لاسيما بالمقايضة وخاصة إذا كان الزبون امرأة ولديه سلعة دخلت نظرها فإنها تشتريها بالسعر الذي يفرضه بلسانه طالما أن الثمن مما أنجزته يدها وفي متناولها، (وهذه طبيعة المرأة في كل زمان ومكان إذا دخل مزاجها سلعة معينة وخاصة ما يتعلق بمظهرها فإنها لا تبالي بأي ثمن كانت،) وهكذا يجمعون من هذه المنتجات كميات كبيرة يعودون بها إلى مراكز تجارتهم. وهذه التجارة موسمية تتم مرة في العام بعد فصل الربيع مباشرة وبعض البادية لا ينتظرون قدوم هؤلاء التجار بل إنهم يجلبون منتجاتهم إلى مراكز التسويق في المدن والقرى القريبة منهم، أو التي عرفوا أن أسعار سلعهم مرتفع فيها، وتتم المقايضة أو البيع بالنقد.

وتختلف صورة العرض والطلب في هذه الحالة عن سابقتها فحينما نرى التجار إذا حضروا إلى مضارب البادية يفرضون السعر الذي يريدونه لخلو الجوله وعدم وجود المنافس، نجدهم إذا نزلت السلع المجلوبة لديهم في السوق يتنافسون أشد المنافسة عليها سواء بالمزايدة في أسعار هذه السلع المجلوية

أو بتخفيض أثمان السلع الموجودة لديهم، أو بالتسهيلات الخاصة بالمقايضة وربما بالاغراءات الأخرى كأن يدعو البائعين إلى تناول القهوة أو طعام الغذاء والعشاء، وربما حصلت مشاحنة بين تاجر وآخر في صالح البائع، وأحياناً يحصل العكس تماماً إذا تضامن هؤلاء التجار فيها بينهم واتفقوا على سعر معين لا يزيدون عليه ربما أقل من قيمة البضاعة الحقيقية مما يحطم نفسية البائع ويجعله إما ان يخضع لهذا العرض ويبيع أو يغادر المكان، وغالباً ما يبيع بسعر أرفع مما عرضوه عليه خاصة إذا كانت البضاعة المجلوبة لديه كميات منها أو غير قابلة للنقل مرة أخرى، ويمتار بأثمانها لاحتياجاته الضرورية من الأطعمة والكساوي، وأحياناً يجلب هذه السلع ويقايض فيها باحتياجاته من مواد غذائية وأقمشة وملابس جاهزة وأدوات منزلية ولوازم ومعدات بيتية سواء أكانت هذه الأخيرة من التجار أنفسهم أو من أصحاب المهن الذين يقومون بصنع هذه الأدوات المنزلية واللوازم والمعدات الضرورية. وإذا أمعنا النظر في حجم هذه التجارة وجدناها ذات حجم متوسط لا تتعدى في أنواعها المواد والأدوات الضرورية وبعض الكماليات على نطاق ضيق، تجد التاجر الكبير في ذلك الوقت يملك من رأس المال ما يقابل في الوقت الحاضر من ٥٠ ــ ١٠٠ ألف ريال تقريباً أما التجار الصغار فإن رساميلهم لا تتعدى ما يوازي عشرة آلاف ريال في الوقت الحاضر.

□ تجارة المنتجات الزراعية:

القطاع الثاني الذي تقوم عليه التجارة هو القطاع الزراعي، وهي تجارة موسمية أيضاً إذ يقوم التجار في موسم تصفية غلة الزراعة الشتوية «الصايرة» بشراء الحبوب بمختلف أنواعها القمح بنوعيه الطري والصلب «اللقيمي» والشعير بنوعيه وذلك بسعر الصاع = ٣ كيلوجرام بالعملة المتداولة، ويجمع التجار كميات كبيرة من الحبوب يتم تخزين كل نوع على حدة تمهيداً للبيع والمبادلات التجارية مع رواد السوق من البادية والذين يمتازون من المدن والقرى المجاورة لهم سواء بالنقد أو المقايضة بمنتجاتهم الحيوانية التي سبقت الاشارة

إليها، ويجري شراء الحبوب من الفلاحين، كل واحد حسب الكمية التي يعرضها للبيع وذلك بعد أن يختزن الفلاح ما يكفي قوت عامه كاملاً مع الوفاء بالديون التي علقت ذمته، خلال موسم الزرع، والباقي يعرضه للبيع، ويتم تسويق هذه الحبوب في المدن الرئيسية، مثل مكة المكرمة، والمدينة المنورة وفي بلدان الخليج العربي والبحر الأحمر، وبعض التجار المحترفين يخزنون هذه الحبوب بمستودعات خاصة، ارتقاباً للفرص التي قد تسنح لبيع ما لديهم بأرباح جيدة وقد تصادف بعض السنين وقت جفاف وتقل الموارد الغذائية، وهنا يجد البعض من هؤلاء التجار فرصتهم فيبيعون ما لديهم بأثمان غالية، وربما قاست بعض الأسر من الطبقة الفقيرة من شظف العيش في مثل تلك الأوقات العصيبة بحيث يبعون الغالي رخيصاً في سبيل الحصول على الغذاء ولا تلبث هذه الظروف أن يحلها الله بفرج من عنده وقد يحضر هؤلاء التجار الرز العراقي «التمن» بأنواعه ضمن صفقاتهم التجارية.

النوع الثاني من المنتجات الزراعية هي التمور بأنواعها والتي يشتريها التجار من الفلاحين في موسم الجذاذ، الصرام، ويتم شراؤها إما بالصاع أو الوزنة أو الزنبيل أو بالنخلة وربما مجموعة النخل والصاع حوالي ثلاثة كيلوجرامات وتساوي الوزنة ١,٣٥ كيلوجرام تقريباً والزنبيل خمسة عشر صاعاً، ويكتنز الفلاحون من أنواع التمور الفاخرة ما يكفي مؤنة بيوتهم، أما التمور العادية فيكتنزونها لغرض البيع إما بحياض كبيرة أو بأوعية من «خصف» سفيف خوص النخل أو بأوعية جلدية «عيبة» ويحتفظون بها إلى وقت الشتاء حينما يحتاج الناس إلى التمر لمساعدتهم بمادته الغذائية وطاقته الحرارية للتدفئة وعندها يتم بيعه بأرباح ممتازة، وقد يشتريه التجار منهم ويعملو له نفس الترتيب إلا أنهم يعبئونه «بالخصف» تسهيلاً لنقله من مكان إلى اخر على ظهور الابل، وتجارة المنتجات الزراعية كذلك تجارة موسمية وتعتبر من تجارة الضروريات.

□ تجارة الكماليات:

تجارة الكماليات يومئذ ليست بمستواها في الوقت الحاضر، وإنما تعتبر كماليات قريبة من الضروريات، منها:

١ ـ تجارة الأقمشة التي تباع بالذراع «يساوي ٥٤سم» من مختلف الألوان بأنواعها القطن والكتان، والحرير السادة، والحرير المطرز بخيوط من الذهب وهو خاص بثياب العرائس، والملابس الجاهزة كالعبي «والبشـوت» و«الغـتر» و«الشماغ» ولوازم الخياطة كالابر والخيوط الحريرية «بريسم» والخيوط المذهبة «زرى» الذي يوشي بها حواف وأكمام وجيوب الملابس النسائية، أما الملابس القطنية فتتم خياطتها من خيوطها.

٢ ـ أدوات الزينة للمرأة كالكحل، والحناء، واللبان، و«المشاط» «البلالة» وهو مخلوط من عدة عناصر عطرية تضعه المرأة بشكل عجينة رخوة على شعرها وتمشطه فيه، و«الذرير» «القدود» وهو مسحوق عطري مركب أصفر ضارباً إلى الحمرة تذر المرأة على مفرق رأسها.

٣ ـ العطورات بمختلف أنواعها ومستوياتها منها المجهز خارجياً ومنها الذي يتم تركيبه في الخارج وأشهرهـا، دهن الورد، ودهن الـعـود، والمسك، والعنبر، والزباد، والكادي.. الخ وعود «القماري» البخور العودي الذي يرد من الهند وجنوب آسيا، بمختلف مستوياته كالجاوي والهندي، وكذا البخور المخلوط «المعمول» «الجاوني» وهذا يتم تركيبه محلياً من عدة عناصر عطرية بنسب معينة وهو أرخص من سابقه، ورائحته طيبة عند وضعه على النـار إنما لا يضـاهي «عود القمـاري» ويستعمل عنـد الحاجـة وأكثر ما تستخدمه النساء.

٤ ـ المسوغات الذهبية والفضية المصنوعة بدرجة رئيسية للمرأة منها ما يعلق بالعنق كالمورقة، والقلادة، ومنها ما يثبت في جيب الثوب وهي أزرار ذهبية

مرصعة بفصوص من الفيروز والأحجار الكريمة، وهذا الزر دائري مستطيل بحجم البلحة وأكبر أو أصغر، وتثبت المرأة بجيب ثوبها من ٣ ــ ٧ أزرار، ومنها ما يعلق بالأذن كالأقراط «الخزاري» بمختلف أنواعها وأحجامها، ومنها ما يثبت على مقدمة الرأس وتسمى «الجبهة» «الهامة» وهي أشكال مختلفة من ورق الذهب لها قاعدة تتدلى منها بسلاسل أو حلقات ذهبية تغطي على الجبين، ومنها على شكل مربع ذهبي مرصع بفصوص من الفيروز أو الأحجار الكريمة ويوضع في وسط القلادة المرجانية على الحلق تسمى «الشميسة» ومنها ما يثبت بالمعصم قبل خروج الساعة وهي أسوارة عريضة مرصعة بفصوص الفيروز والأحجار الكريمة تسمى «السعيفة» ومنها الأساور العادية «مجاول» بالاضافة إلى الخواتم ذات الفصوص الفيروزية أو الأحجار الكريمة الأخرى والخواتم بدون فصوص «محابس» بالاضافة إلى عقود اللؤلؤ على مختلف مستوياته وأشكاله وألوانه، وعقود المرجان الأحمر والوردي، والعقيق والخرز بمختلف أنواعه وأحجامه والذي يستخدم عقوداً في الأعناق «مخناقة» ومع الأساور في المعصم «خصر» بالاضافة إلى المطاوي وهي من اللدائن الشمعية المقواة مطوية بشكل حلزوني تدخل بالمعصم وهي ذات لونين أسود وبني.

والمسوغات الفضية كالأساور الفضية «منافيخ» و«بناجر» وقلادة ذات المربعات والسلاسل الفضية «الصدرية» والخواتم الفضية، والحجول الفضية وهو ما تلبسه المرأة في أسفل ساقها فوق القدم مباشرة وفي بعض الأحيان تكون الحجول من الذهب.

العطارة وهي تشمل مختلف أنواع التوابل والأفاوية والأبازير التي تبلغ بأصنافها المئات نذكر منها، الحلبة، الرشاد، الحبة السمراء، والحبة الحلوة، الكمون العصفر، الكزبرة، حب البصل، حب الكراث، .. الخ. والأدوية المركبة من الأعشاب كالصبر، والحلتيت، والمر، وصمغ الريح، الخ. والصمغ العربي، واللبان بنوعيه الطري للمضغ والصلب

«مستكا» ويستعمل كدواء. . الخ والأصباغ ومركباتها والأعشاب البرية التي تستعمل كأدوية. والأبازير التي تستعمل مع الأكل كالكركم والفلفل الأحمر والأسمر. . الخ.

٦ ـ الأحذية المصنوعة محلياً والأسلحة الخفيفة كالخناجر، والسكاكين والأواني المنزلية المصنوعة من النحاس كالقدور بمختلف المقاسات والصواني النحاسية المطلية «بالرصاص» الخارصين، وأواني الشرب «الطاسة» بمختلف المقاسات وآنية جلب الماء «الجذعة» والأواني المصنوعة من الخشب، كالأقداح الخشبية «والموقعة» و«المغارف». . . الخ.

وهذه الأنواع من الكماليات قد تجدها لدى الكثير من الناس ماعدا المسوغات فهي من اختصاص الصائغ وكذلك التوابل والأفاوية والأبازير فهي من اختصاص العطار والمصنوعات غالباً ما تجد كل سلعة عند صانعها، وتجد لها تجاراً يشترونها ويبيعونها، والتجارة في هذه الأصناف تباع بالنقد والمقايضة بالمنتجات الزراعية والحيوانية وحجم تجارة الكماليات لا تمثل سوى نسبة صغيرة من حجم التجارة في ذلك الوقت بما يوازي حوالي ١٥٪ تقريباً.

□ تجارة المتفرقات:

بالاضافة إلى ما ذكرنا يوجد نوع من التجارة يقوم بها فئات معينة كتجارة ملح الطعام وهو ما يجمع من الأراضي السبخة والقيعان المالحة بعد هطول لأمطار عليها، يطفو على سطح المياه الراكدة طبقة من الملح الأبيض الناصع تختلف نقاوته ودرجة ملوحته من مكان لآخر، وحسب كمية الأمطار الساقطة لى تلك البقعة المالحة، كما أن هناك مواضع أخرى هي مناجم الملح تتكون من بقات صخرية ملحية مغمورة بطبقة من الرمال يتم إزاحة الرمال عنها وتقطيعها ، كتل وأحجام يسهل نقلها على ظهور الجمال وسواء أكان الملح من الفتاة لقطع الصغيرة أو من القطع الكبيرة نسبياً فإن بيعه بأثمان رخيصة سواء بالنقد

أو المقايضة ويكون بيعه بالصاع أو بالفردة (٨٠) كجم من نوع «الكراشيف» أو الكتل الصخرية.

السلعة الثانية وهي الفحم النباتي المتخذ من أخشاب الطلح والسمر والغضى والسلم والأرطي وغيرها من الأشجار ذات الفحم الجيد ويستخدم الفحم كوقود مساعد وللتدفئة وأكثر ما يستخدم بالمدن ويباع أيضاً بفردة البعير (٨٠ كجم) وهو رخيص الثمن نسبياً، ويباع بالنقد والمقايضة.

والسلعة الثالثة هي «العرن» وهو جذوع وأغصان أشجار العرن الذي ينمو بالجبال وله أغصان وجذوع حمراء غليظة شديد مرارة الطعم وتكسر هذه الجذوع والأغصان إلى قطع صغيرة ويستخدم لدباغة الجلود، لتصبح بنية اللون طرية الملمس، ويباع بحمل البعير حوالي ١٢٠ كجم من هذه الجذوع المربوطة «بالشبقان» وهو شبكة صغيرة من الحبال والعرن رخيص الثمن نسبياً ويباع كذلك بالنقد والمقايضة ويصل حمل البعير من ريالين إلى خمسة ريالات وربما يزيد أو ينقص عن هذا المبلغ حسب العرض والطلب.

السلعة الرابعة هي الأرطى وهو ورق الأرطى وغصونها الدقيقة تجمع من شجر الأرطى وتوضع في فردة كبيرة لأن وزنها خفيف وتباع بحمل البعير الذي يساوي ١٥٠ كجم تقريبا وهي رخيصة الثمن من ٣ ــ ٥ ريالات للحمل تزيد أو تنقص وتباع بالنقد والمقايضة وتستعمل الأرطى بعد دقها لدباغة الجلود لتكسب اللن الأصفر والنعومة المميزة.

السلعة الخامسة هي: «الخبط» وهو ورق الطلح تقطع أغصان الطلح وتجمع حتى تجف وتسقط أوراقها فتجمع في «رزمة» وهي أكياس كبيرة من النسيج الصوفي وتزن الرزمة حوالي ٢٠٠ كجم أما فردتا البعير فتزنان حوالي ١٦٠ كجم ويستخدم «الخبط» علفاً «للابل» حيث يخلط مع العلف العادي ويعلف الابل وخاصة السـواني وهو مادة نافعة بدرجة ممتازة وأسعاره رخيصة أيضاً من ٢ ــ ٤ ريالات لحمل البعير أو الرزمة تزيد عن ذلك أو تنصص حسب

العرض والطلب وهذه السلع تكاد تكون ضرورية وقد لا يخلو بيت منها وخاصة أصحاب العلاقة بهذه السلع كالفلاح والذي يعمل بدباغة الجلود وهذه السلع بحد ذاتها ليست سلعاً دائمة وإنما هي موسمية أيضاً.

□ المداينات:

هناك نوع آخر من ضروب التجارة وهي المداينات بالأنواع الآتية:

١ ـ النوع الأول المداينة «الوعدة» وهي بيع سلعة حاضرة إلى أجل معين بزيادة في السعر عند ذلك الأجل، وتتم هذه الطريقة عند التجار المستقرين بالمدن، يأتيهم صاحب الحاجة فيبيعونه هذه السلعة التي قيمتها مثلاً مائة ريال إلى أجل قدره عام بثمن قدره من ١٠٥ ـ ١٢٠ ريالاً أي بنسبة زيادة ٥٪ ـ ٢٠٪ وان زادت المدة زادت النسبة ويقبض الزبون هذه السلعة حيث يبعها على حسابه الخاص تزيد أو تنقص حسب سعر السوق الحالي وعادة يطلب التاجر من الزبون كفيلاً ضامناً لحقه يكلفه عند حلول الأجل المعلوم، ويلجأ لهذه الطريقة الأشخاص الذين لديهم مشاريع معينة كزواج وشراء بيت أو مزرعة.. الخ والبيع في هذه الحالة سلعة بنقد.

٢ ـ النوع الثاني هو إعطاء مبلغ حاضر بسلعة غائبة إلى موسم تواجد هذه السلعة وتسمى «ثمنه» كأن يعطيه مبلغاً من المال على موسم الحب أو التمر بسعر يتفق عليه ويأتي بحدود المألوف مع نقص معقول يقابل المدة الزمنية ولا يوجد الغبن لدى الزبون وأكثر من يتعامل بهذه الطريقة الفلاحون، وذلك عند بدء موسم حرث الزرع خاصة للطبقة الفقيرة من الفلاحين وأكثرها في سنوات الجدب ومن الشروط المتعارف عليها أن يكون الوفاء بالدين من النوع الجيد من الحبوب والتمور لا هو بالممتاز ولا بالرديء من الثمرة.

٣ ـ النوع الثالث هو إعطاء مبلغ حاضر بنوع معين من الماشية الغنم أو الإبل وتسمى هذه الطريقة «طلاع» وهي أن يعطيه مبلغاً من المال مقابل عدد

من رؤوس الغنم لكل رأس سعر معين إلى أجل توالد الأغنام وفطامها عن أمهاتها أو إذا كانت لها سنة وأن تكون هذه الأغنام من الأنواع الطيبة لا من خيار الغنم ولا من أدناها، وتكون أقيامها بالأسعار المألوفة مع نقص معقول يقابل المدة الزمنية ولا يوجد الغبن لدى الزبون ويتعامل بهذه الطريقة العرب الرحل. وتجري هذه المعاملات «الثمنة» و«الطلاع» أحياناً بالمكاتبات وأحياناً أخرى بدونها، يحكمها طيب النية ونقاء الطوية اللذان يطبعان ذلك المجتمع، وفيما لو حصلت كارثة طبيعية لثمرة الزبون أو ماشيته وليس له يد فيها فإن هذا الدين يبقى للعام الثاني.

٤ ـ النوع الرابع هو إعطاء مبلغ من المال أو سلعة من السلع أو ماشية من المواشي لشخص يوثق به إلى أجل غير مسمى ينمي هذه السلعة لديه وتسمى «عدولة» ومتى تمت تنميتها بحجم طيب ردها من هي عنده إلى صاحبها، والمتعارف عليه أن يعيدها مع كامل نموها إلى صاحبها وله عرقتها وألبانها وأصوافها مقابل عنايته بها أما رأس المال والنمو فهو لصاحبه.

وان تنازل صاحب المال عن جزء منها لمن قام بينهما فهي عن طيب نفسه وقوام هذه الطريقة الأمانة والصدق وهذان العنصران متوافران في هذا المجتمع، وهذه الطريقة ليست لفئة من الناس دون أخرى.

٥ ـ النوع الخامس: وإن كانت ليست من ضروب التجارة بقدر ما هي نوع من الاستفادة المشتركة وشائعة الاستعمال وخاصة في قطاع الزراعي وهي «الصبرة» كأن يعطي الفلاح أرضاً يزرعها على مقدار معين من غلتها أو يعطيه أرضاً يغرسها على مقدار معين من ثمرة نخيلها أو عدد من نخيلها، أو يعطيه مبلغاً من المال يتاجر به على نسبة معينة من الربح أو يعيره أرضاً يقيم عليها بيتاً ومتى انتهى من البيت تركه لصاحب الأرض، ويحكم هذه الطريقة حسن الجوار وطيب السريرة وحب المنفعة المتبادلة ويتعامل بهذه الطريقة كثير من الناس وخاصة الطبقة الفقيرة من المجتمع.

□ □ □

الفصل السابع :

المهن

◻ الجمالة :

«الجمالة» مشتقة من اسم الجمل و«الجمال» هو الرجل الذي لديه مجموعة من الجمال ينقل عليها البضائع من مكان إلى آخر، وهي في الواقع ليست مهنة لها أسرارها أو فنياتها التي لا يعرفها إلا أصحابها، وإنما هي نوع من الخدمة ذات مصلحة مشتركة و«الجمالة» هي تهيئة بعير أو مجموعة من الإبل لنقل البضائع والسلع من مكان آلى آخر وبين مدينة وأخرى وهي بمثابة شركات النقل في الوقت الحاضر، والواقع أنها تعتبر في ذلك الوقت جزءاً من عصب الحياة الضرورية ويتطلب أن يكون الجمّال قوي البنية نشيطاً مفتول العضلات حتى يستطيع مع رفاقه وضع الأحمال على الابل وتنزيلها عنها عند وقت الراحة وتختلف مستويات حجم الجمالة على النحو الآتي:

١ ــ **الحجم الكبير من «الجمالة»**: وهي تتطلب أعداداً كبيرة من الابل لنقل البضائع الكثيرة من مسافات طويلة من المدن البعيدة ومراكز التجارة الواقعة على البحر الأحمر والخليج العربي والعراق والشام وفلسطين وهذه تحتاج إلى عدد كبير من الأفراد وإلى حماية مسلحة من صاحب البضاعة، ودفع ما يترتب على هذه البضاعة من الأتاواة التي مر ذكرها وما على الجمال إلا تأمين نقل هذه البضائع من مركز وجودها إلى مركز تسويقها، مقابل أجر معين على حمل البعير أو على البضاعة كلها وبالطبع يكون

الجمال لديه الاستعداد الكافي من الابل وما تتطلبه من مستلزمات كالأشدة وأدوات الري والحبال وغيرها، مع تأمين أماكن لوجودها في أحواش محصنة بالمحطات الرئيسية أو في المدينة التي يقيم فيها.

٢ ـ **الحجم الوسط**: وهو أقل من حيث عدد الابل والأفراد وعادة لا تتعدى إبله من ١٠ ـ ٢٠ بعيراً تزيد أو تنقص قليلاً عن ذلك وهو يتولى نقل السلع ذات الكمية المتوسطة بين المدن المتقاربة بأجور تتناسب والمسافة التي يقطعها ويحتاج إلى حماية مسلحة عن قطاع الطرق وتعتمد على هذا النوع من «الجمالة» تموين المدن بمختلف السلع المتوفرة بالمدن الأخرى.

٣ ـ **الحجم الصغير**: وهو من يملك من ١ ـ ٣ من الابل وهذا النوع أكثر احتكاكاً بالجمهور ويقوم بالعمل بين المدينة والقرى المجاورة لها وهو في الواقع يقوم بمهمة رئيسية في تموين القرية بكامل احتياجاتها من كل شيء فهو إلى جانب نقله للسلع الرئيسية التموينية وغيرها ذات الحجم الكبير، يقوم بقضاء لوازم أهل القرية الصغير منها والكبير، وإذا علمنا أن الحوانيت والدكاكين لم تنتشر في ذلك الوقت فإن كل أسرة في القرية تحتاج إلى خدمة «الجمال» فتجدهم حواليه صباح مسيره إلى المدينة وكل منهم قد أحضر نقوده ومعها قائمة باحتياجاته من المدينة وبعضهم يحضر النقود ويبدأ بعد الأشياء التي يطلب من الجمال أن يحضرها له من المدينة وتسمى هذه العملية «سَفَرْ» وقد تكون متطلبات هذه الأسرة من ابرة الخياطة حتى الأشياء الكبيرة، وهذه الخدمة التي يقوم بها الجمال لا يأخذ عليها أجراً وإنما تدخل في إطار المروءة والتعاون وحب قضاء الحاجة، وكمبادلة للمعروف، إذا كان لدى رب الأسرة سلع تحتاج إلى نقل من وإلى المدينة فإنه يوعز لهذا الجمال بنقلها للاستفادة من كرائها وربما وجدها فرصة فأعطاه أكثر من حقه مكافأة لمعروفه السابق على هذه الأسرة.

وإذا أمعنا النظر في حجم التبادل التجاري البسيط ودخل الأسرة السنوي المحدود بالاضافة إلى رخص السلع في ذلك الوقت، أدركنا مدى

احتياج هذه الأسرة من الأشياء الضرورية، من هذا المنطلق فلا غرابة إذا أحضر رب الأسرة مبلغ ريالين يطلب من الجمال أن يحضر له فيها ثمانية أو عشرة أشياء بهذا المبلغ الزهيد ويخصص لكل حاجة ربع ريال وربما أقل أو أكثر، وأحياناً «تكثر الظباء على خراش» فتجر البعض من الجمالون يحاولون التخلص من بعض الناس ذوي الحاجات المتعددة كثيري اللغظ والالحاح، فتجد الجمال يتهرب من أسفارهم مما حدا ببعضهم أن يقول «واعد من الجماميل عشرة» وقد ذهب هذا القول مثلاً سائراً بين الناس حتى الوقت الحاضر. وهنا لابد من الاشارة إلى أن قوام هذه الخدمة هو الأمانة والصدق في القول والعمل وهما متوفران بشكل جيد.

□ النجارة:

تشغل مهنة النجارة موقعاً مهمًا في ذلك الوقت إذ يترتب عليها كثير من الضروريات التي لا غنى عنها فالفلاح لا يمكنه الاستغناء عن النجار وصاحب البيت في أمس الحاجة إليه، والعرب الرحل يحتاجون إليه وكذلك التاجر وغيره، من هذا نرى أهمية موقعه والخدمة التي يؤديها لكل فرد حسب حاجته ويتقاضى على هذه الخدمة أجراً مناسباً، ومعظم الأعمال التي يقوم بها هي من الضروريات، فالفلاح يحتاج إلى تركيب المعدات الخاصة بالبئر بشكل جيد وسليم ومريح من محالة ودراجة وأعمدة واقتاب وغيرها وصاحب البيت يحتاج إلى صنع وتركيب الأبواب ومتطلباتها والشبابيك والسواقف وغيرها والبدوي يحتاج إلى الأقتاب والأشدة والهوادج وبكرات الماء.. الخ هذا فيما يتعلق بالأشياء الضرورية، أما إذا ألقينا نظرة على السلع الكمالية فاننا نجد بصماته واضحة على الأبواب الداخلية ذات النقوش والزخارف الفنية الرائعة كما نجده يتفنن في صنع الصناديق الخاصة بالنساء والصناديق الخاصة بالرجال «الفاتية» وأبواب «الصوالين» الرئيسية وأبواب «الكمار» وهو الجزء المزخرف الذي توضع فيه الدلال والأباريق وكذلك صنع المبخرة ذات الأشكال والزخارف الجذابة وغيرها من القطع والتحف الفنية الرائعة. وإذا ألقينا نظرة أخرى على الأدوات التي يستعملها وجدناها تتكون من المناشير بمختلف أحجامها وأشكالها والتي تستعمل

لتقطيع الخشب والقدوم وهو الأداة التي يصنع بها الخشب ويصيره إلى الأشكال التي يريدها والفأس وهو ما يقطع به الخشب الرطب، والمطارق بمختلف أحجامها وهي ما يدق بها و«المشاعب» بمختلف أحجامها والمستخدمة لتخريق الخشب و«المناقير وهي ما يستخدم لنقر الخشب والمبارد بمختلف أحجامها وأشكالها وهي ما يملس بها الخشب بالاضافة إلى الخيوط التي تستعمل للقياس والتخطيط مع مجموعة من الأصباغ المختلفة التي يقوم بتركيبها بنفسه لاستعمالها عند الزخرفة وينتج النجار مجموعة من المصنوعات هي كما يلي:

أولاً ـ ما يخص الفلاح:

١ ـ **المحالة**: وهي بكرة كبيرة سبقت الاشارة إليها في فصل تجهيز البئر.

٢ ـ **الدراجة**: وهي بكره اسطوانية سبقت الاشارة إليها في فصل تجهيز البئر.

٣ ـ تركيب عدة البئر من «توضيب» للأعمدة والحوامل و«الجنابيع».

٤ ـ عمل الشرخ المحراث وتجهيزاته والأقتاب ولوازمها سبقت الاشارة إليها.

٥ ـ المحاور والعراقى وعصى «المساحي» و«المناسيف» و«الفواريع» والمخالب وغيرها.

ثانياً ـ ما يخص البيت للفلاح وغيره:

١ ـ **الأبواب الخارجية** المصنوعة من ألواح خشب الأثل وشرائح «شطيب» النخل وتكون عادة من الحجم الكبير ذات الألواح الثخينة والعصى الغليظة والحلقات السميكة و«الضباب» القوية، وعادة يشرح النجار الأخشاب بطريقة رأسية بعد وضع المقاسات بخطوط طولية وبنفس السمالة ويخرج من الخشبة الواحدة مجموعة من الألواح حسب سماكة تلك الخشبة ويلاقي جهداً كبير في هذه العملية الشاقة.

٢ ـ **الأبواب الداخلية**: وتكون أيضاً من ألواح الخشب الأثل ولكن أدق ألواحاً وأدق صنعاً وأجمل منظراً وهي على مستويات منها المزخرف بالنقوش

والألوان الفنية الجذابة، ومنها العادي المخطط والمنقط باللون الأسود فقط.

٣ ــ **«الضبة» مصراع الباب**: وهي الأقفال المصنوعة من الخشب من جزأين رأس «الضبة» وسلتها فالرأس هو ما يثبت على الباب بمسامير غليظة ويكون فيه «البكرة» و «الغلق» أما السلة فهي الجزء الطويل المثبت من خلال الرأس ويتحرك بداخله وبه ثقب المفتاح وثقوب «الغلق» ويدخل في سارية الباب حوالي ٣٠ ــ ٤٠ سم وعندما تريد فتح هذا القفل تدخل المفتاح ذا الأسنان الطويل ثم ترفعه باصبعك ليرفع «الغلق» من ثقوبها وبذلك تستطيع فتح الباب ويتفنن النجار في صنع «الضبة» وصنع مفتاح الخشب لها وكذلك مفتاح الحديد الذي يعمله الحداد حتى لا يستطيع أحد أن يفتحها خاصة إذا أوجد لها بعض الضوابط والحواجز داخل سلة «الضبة» والنوع الثاني من «الضبة» هو «المجلاز» أو «المدقار» وهو رتاج الباب من الداخل ويعمل بدون مفتاح ما عدا إصبعاً طويلة لها فرض من سيف «المجلاز» تسقط فيه فلا يستطيع فتحها إلا من هو داخل البيت إلا إذا عمل لها خيط من الخارج.

٤ ــ **الشبابيك**: وهو ما يوضع للطبقة الثانية من البيت «المصباح» أو داخل الدهاليز والقاعات الرئيسية في البيت.

ويعتني بهذه الشبابيك بالزخرفة والنقوش الجميلة والحلق الحديدية والنحاسية والقضبان الحديدية وهي في الواقع روعة في الجمال والتلوين أما الشبابيك في المقاهي «القهاوي» فهي عادة تكون من جريد النخل المعمول على شكل أقفاص لأن تلك الشبابيك عادة تكون مرتفعة بقرب السقف ولذلك يصعب فتحها أو إغلاقها.

٥ ــ **صناديق النساء المزخرفة والمنقوشة بالألوان الجذابة والمنمقة بالمسامير النحاسية والقطع النحاسية** من مختلف الأشكال والألوان تتوسطها قطع من المرايا من مختلف الأحجام ومقمسة بطريقة هندسية متناسقة وصناديق من

نفس النوع إلا أنها أصغر حجمًا مخصصة للأشياء الثمينة من مصاغ ونقود وغيرها وهي غاية في الدقة والجمال.

٦ ـ **المباخر** الخشبية المصنوعة من قطعة واحدة وتزيين جوانبها بالمرايا من دائرية ومربعة وتطعم المساحات الفاصلة بينها بالخارصين المثبت على شكل حبيبات وتوشي أطرافها بمسامير نحاسية صفراء وحمراء وتبدو روعة في الجمال وتستعمل الحرق البخور «عود القماري» وتعتبر من ضمن تحف البيت وهي على عدة مستويات منها المتقن الصنع ومنها ما هو دون ذلك.

٨ ـ **الأقداح الخشبية الكبيرة والصغيرة** و«المواقع» الخشبية الكبيرة والملاعق الخشبية.

ثالثاً ـ ما يخص العرب الرحل:

١ ـ **الأشدة المخصصة لمطية الركوب**: وتكون جميلة ورشيقة وطويلة ذات نقوش وعصى عريضة مزخرفة.

٢ ـ **الأشدة العادية** «المسامة» وهي معدة لشد الأحمال عليها ولها من العصي القوية ما يجعلها تتحمل ذلك وهي أقل عناية وأناقة من سابقتها وأرخص ثمناً.

٣ ـ **الأقتاب**: وتشبه سابقتها إلا أنها أصغر حجمًا.

٤ ـ **الهوادج**: وهي من الأشدة ذات السواري الطويلة مثبت عليها عدد من الأغصان المحنية بما يشبه القبة والمثبتة بشرائح من القد الرطب ومتى يبس عليها مسكها بشكل جيد وتتحمل ما يوضع عليها من الستائر والبسط وغيرها.

٥ ـ **بكرة الماء**: وهي بكرة تستعمل عند إخراج المياه من الآبار لسقي المواشي بالاضافة إلى لوازم أخرى صغيرة مثل مركاب الطير ومبرادة القهوة وغيرها.

والنجارة كما رأينا تشغل حيزاً مهمًا لجميع فئات المجتمع ويتقاضى النجار أجرته عن أحد منتجاته الصناعية سالفة الذكر إما نقداً أو بالمقايضة إلا ما يختص بالفلاح فإنـه يقوم بصيـانة معـداته طيلة فصـل الشتاء أو الصيف مقابل كمية من الحب أو التمر ما عدا «المحالة» فإن صيانتها خارجة عن ذلك.

□ الحدادة:

تشغل الحدادة في ذلك الوقت حيزاً مهمًا في ذلك الوقت أيضاً حيث يقوم الحداد بعمل المستلزمات الضرورية والكمالية لكافة طبقات المجتمع يستوي في ذلك طبقة الفلاحين والعرب الرحل والتجار وغيرهم ولا يستغني بيت واحد عن الحداد على مدار السنة سواء في صنع السلع الجديدة أو صيانة السلع الموجودة أو صنع تحفة من التحف الفنية النحاسية؛ وذلك قبل أن يجرفنا هذا السيل الغزير من المصنوعات الخارجية من مختلف أنحاء العالم، فالفلاح نجده بحاجة إليه على الدوام لصنع أو تهذيب معدات الزراعة والأمير يحتاج إليه لصنع السيوف والأسلحة الأخرى وحذاء الخيل وأغنتها ولجمها والتاجر لا يستغني عنه لعمل السلاسل والمفاتيح الحديدية وغيرها وربة البيت بأمس الحاجة إليه لتأمين الأواني المنزلية على مختلف أحجامها وأشكالها، وكلما توفر لديها مبلغ من المال اشترت به قطعة مما يصنع، والعروس تنثر دراهمها في حجره لتختـار من منتجاته ما يفي باحتياجها لهذا نرى أنه عنصر فعال في المجتمع آنذاك وإذا تفقدنا الأدوات التي يستعملها وجدناها تتكون من المطارق بمختلف أشكالها وأحجامها وأوزانها، والمقصات بمختلف أشكالها وأحجامها وقوتها، والسنديانات بمختلف أحجامها وأطوالها ودرجة تحملها، وهي مثبت على قطع من الخشب، والمقابض «الكلاب» بمختلف أحجامها وأطوالها والكير وهو مقر النار التي يحمى عليها الحداد الحـديد والنحاس ويتكون من المنافيخ الجلدية والجدار الحاجز بين نافخ الكـير وعـين النـار التي تنتهي إليهـا قنـاة النفـخ وبهـا الفحم والنـار و «الرصاص» الخارصين و «الشناذر» كلوريد الأمونيوم والفرجار «المخط» على

مختلف أحجامه والقواطع «المفاريص» على مختلف أحجامها بالاضافة إلى مسامير النقش وأخرى للحفر وأدوات اللحام الأخرى.

وينتج الحداد الكثير من المنتجات الضرورية وهي:

١ ـ السيوف بأشكالها المختلفة والخناجر وغيرها من الأسلحة.

٢ ـ القدور النحاسية على اختلاف أحجامها وأشكالها وهي مفصلة في باب الأواني المنزلية.

٣ ـ الصواني النحاسية على مختلف أحجامها.

٤ ـ أواني الشرب «الطاسة» وكؤوس الماء النحاسية.

٥ ـ أواني جلب الماء «الجذعة».

٦ ـ الدلال والأباريق النحاسية بمختلف أحجامها وأشكالها.

٧ ـ محماس القهوة على اختلاف أحجامها.

٨ ـ حذاء الخيل والسلاسل الخاصة بالأعنة واللجم.

٩ ـ المعدات التي يستخدمها الفلاح مثل «المساحي» و«المناسيف» و «الفواريع» وأعمدة الحديد وغيرها.

١٠ ـ التحف النحاسية التي يصنعها على شكل مزهريات يبدع في زخرفتها ووضعها.

١١ ـ الأواني الخاصة بتسخين الماء «السمور» والمفاتيح الحديدية ذات الأسنان المتناسقة.

١٢ ـ صيانة الأواني المنزلية من جليها وسوفها وتبييضها «ربها» «بالرصاص» الخارصين مع «الشناذر» كلوريد الأمونيوم.

والحداد، كما رأينا، له مهنة مهمة في ذلك المجتمع الذي لا يستغنى عنه

أحد وبالأخص السيدات ويتقاضى أجره عن منتجاته نقداً أو مقايضة عن كل سلعة، ما عدا صيانة معدات الفلاح فإنه يأخذ مقابلها كمية من الحب والتمر ويعمل بهذه المهنة بالاضافة إلى الحضر المقيمين في المدن والقرى فئات رحل يتنقلون من مضارب البادية وتسمع قرب مكان الحداد ضرب المطارق بالحديد والنحاس مما يصم الآذان أحياناً ويشبه الشاعر دق القهوة في مقاهي الكرماء بضرب الحداد الذي لا انقطاع له:

تلقى القهـاوي عندهم ضـرب حداد
ومـا يسـر الله من وجـود الأجـاويـد

(عبد الله القضاعي)

□ البناء:

ولا تقتصر مهمة البناء عن غيره من ذوي المهن المنتشرة في ذلك الوقت فعلى عاتقه تقوم مهمة تخطيط المنازل وتصميمها وتنفيذها بالتعاون مع صاحبها من حيث التصميم، ولما كانت المباني السائدة في ذلك الوقت مكونة من مادة الطين والحجر والجص، فإن البناء يقوم في الغالب بتنفيذ البيت في أساساته من الحجر والجص يرفعه عن خطر السيل والرطوبة ويكون بمقدار متر أو يزيد وربما ينقص وأحياناً يكون الأساس فقط من الحجر والباقي من الطين فقط ويكون بناء الطين أما على شكل قوالب معينة لبن أو على شكل مداميك عروق ويتفنن البناء في اختيار التصميم المناسب مع مراعاة رأي وذوق صاحب البيت ويبدي براعة في استقامة الجدار واعتدال زواياه وتناسق المداميك العرق لتمثل قمة جمال التنسيق وما بصمات أصابع البناء التي تبقى على جانب المدماك إلا نوع من الزخرفة الطبيعية التي تبقى منظراً جميلاً.

وللبناء دور مهم في بناء البيوت والقصور لذوي الجاه والأثرياء وهم بدورهم يسبغون عليه الأموال والهدايا كمكافأة للاتقان والاخلاص الذي بذله

في العمل لديهم، ولا يستخدم البناء من أدوات البناء إلا مطرقة صغيرة لتكسير الحجر فيها، أما في مباني الطين فإنه لا يستخدم أي شيء وإنما يقوم بالبناء بيديه، ويحرص البناء «الأستاد» على الطينة الممتازة ومن واقع خبرته فإنه مجرد لمس الطينة يحكم عليها بمدى جودتها أو عدمها، وعادة يخلط مع الطين كمية من التبن وتسقى بالماء لمدة يومين أو أكثر حتى تتخمر ثم يجري قطعها ووطيها بأقدام الخلاطين وقطعها «بالمساحي» و«المناسيف» مع إضافة شيء من الماء عليها، وأحياناً يجري دوسها باخفاف الإبل حتى تصبح الطينة لزجة قوية مع التبن المخلوط بها ويعمر الجدار الذي يبني بهذه الطينة مئات السنين وحسب معرفتي فهناك مبان من هذا النوع عمرها أكثر من ثلاثمائة سنة لا تزال قائمة متماسكة ويتبع البناء مجموعة من العمال منهم الخلاطون ويقلون أو يكثرون حسب حجم المبنى ويتولى الخلاط خلط الطين وتقطيعه ودعسه واخلاصه حتى يصبح جاهزاً للاستعمال وهناك العامل الخاص بقطع الطينة وهو يجلس بجانبها ويأخذ منها كتلاً صغيرة بحجم ملء اليدين معاً ثم يعطيها للعامل الذي يحملها «المعدى» إلى رفيقه وهذا يعطيها لثالث ورابع حتى تصل إلى السلم ثم تنتقل فوق أكف العمال الذين على ظهر السلم حتى تصل هذه القطعة «اللباقة» بطريقة سريعة إلى يد البناء الذي يتولى وضعها مع مثيلاتها في الجدار الذي يتولى بناءه وزخرفته وربما كان البناء قريباً والجدار سميكاً وعندها يستخدم زنابيل صغيرة «محافر» لنقل الطين من مكان الخلط إلى الجدار، ويدور البناء على البيت كاملاً إذا كان مدماكاً في اليوم الواحد أما إذا كان لبناً فإنه يبني جانباً منه ويتراوح ارتفاع المدماك من ٢٠ ـ ٣٠ سم وعرض ٤٠ ـ ٥٠ سم وربما أكثر ويتفنن البناء في وضع الزخارف داخل البيت وخارجه والشرفات التي تتوج البيت أو القصر «زرانيق» والتي تعطى طابعاً جذاباً وتتراوح أجرة البناء بين ١٠ ـ ٥٠ ريالاً في اليوم وربما أقل من ذلك أو أكثر حسب الوقت وربما يبني هذا البيت مقابل مبلغ مقطوع وربما بناه لأحد دون مقابل إذا كان من أقاربه أو جيرانه أما العمال فإن أجورهم تختلف عن ذلك فالذين يتولون خلط الطين وقطعه أكثر أجوراً وتصل من ٥ ـ ٨ ريالات في اليوم مع تأمين الأكل والشرب وربما أقل من ذلك أو أكثر بالطبع مع تأمين الأكل والشرب لهم وأحياناً يكون بعض العمال دون مقابل خاصة إذا

كان صاحب البيت قريباً لهم أو جاراً، ويرد عمال البناء أغاني وأناشيد تدفع عنهم السأم والملل سنتعرض لها في حينها إن شاء الله.

□ الصياغة:

الصياغة من المهن الفنية الدقيقة وهي من المهن الكمالية التي تزدهر في زمن الرخاء واليسر وهي مهنة لها أهميتها في ذلك الوقت وأكثر زبائن الصائغ هن النساء وبالأخص العرائس ونساء دوي الثراء والجاه واللائي يستطعن شراء المسوغات منه، وكذلك نساء سائر طبقات المجتمع كل منهن على قدر طاقتها لاسيما إذا علمنا أن مصوغاته لا تقتصر على الذهب، وإنما تشمل الذهب والفضة معاً وربما النحاس أحياناً، إذا والحالة كذلك فإن مسوغاته في متناول الجميع كل حسب قدرته ورغم أن عمله يدوي إلا أن إنتاجه يبلغ درجة جيدة من الدقة والاتقان، إذا علمنا أن عمله يحتاج إلى نقوش وزخارف غاية في الدقة وآية في الابداع، وإذا نظرنا إلى المعدات التي يستعملها فنجدها تتكون من المطارق الصغيرة والمتوسطة، والسنديانات الرشيقة، والمقصات الدقيقة الحادة، والقوالب مختلفة الأحجام والأشكال والنقوش، والقضبان الحديدية على مختلف الأحجام، ومساحيق اللحام التي يضيفها على المادة المصنوعة فتزيد من حرارة النار، علماً بأن لدى الصائغ خبرة في معرفة قوة حرارة كل نوع من الوقود، وكذلك مجموعة من مسامير الحفر والنقش بأحجام ودرجات متفاوتة، والمواد الكيماوية الخاصة بصقل الذهب وتلميع الفضة، وغير ذلك وعادة يكون الصائغ إما في بيته أو بجزء منه يطل على الشارع وأحياناً يكون للصاغة مجموعة من المحلات في المدن الكبيرة وعليها أقفال ضخمة وحراسة ليلية، ويعمل الصائغ المنتجات الآتية:

١ ــ تلبيس أغمدة السيوف ومقابضها بالرقائق الذهبية المزخرفة بالنقوش البديعة والمرصعة بالأحجار الكريمة كما يلبس الخناجر الذهبية أيضاً.

٢ ــ **المورقة**: وهي أوراق ذهبية مزخرفة بنقوش رائعة مثبتة ومعلقة بسلاسل ذهبية «شبيهة بالرشرش» في الوقت الحاضر.

٣ ـ **الأقراط**، بمختلف أحجامها وأشكالها.

٤ ـ **«الشميسة»**: وهي مربع ذهبي ذو نقوش وزخارف رقيقه، مرصعة بفصوص الفيروز والأحجار الكريمة وتوضع في وسط القلادة المرجانية بالرقبة.

٥ ـ **أزرار الأنف «الزمام»**: وهو زر ذهبي موشى بحبيبات ذهبية يتوسطه فص من الفيروز أو الأحجار الكريمة يثبت في أرنبه الأنف بعد خرقها وتضعه بعض النساء.

٦ ـ **الأساور العريضة «السعيفة»**: ذات النقوش الجذابة والفصوص الفيروزية وتلبس في المعصم.

٧ ـ **الأساور العادية «المجول»**: وهي سميكة مضلعة وتلبس في المعصم.

٨ ـ **الخواتم ذات الفصوص الفيروزية والأحجار الكريمة الأخرى**.

٩ ـ **الخواتم بدون فصوص «محبس»** ذات النتوءت المنسقة.

١٠ ـ **الأزرار الذهبية الأسطوانية** المستطيلة بحجم البلحة وهي منفوخة وموشات بخيوط ذهبية ونقوش دقيقة ومرصعة بالفيروز أو الأحجار الكريمة الأخرى وتثبت في جيب ثوب المرأة.

١١ ـ **«الهامة»**: وهي جنيهات ذهبية أو رقائق ذهبية مزخرفة مثبتة في سلاسل ذهبية وتوضع على ناحية الرأس لتتدلى أوراقها فوق الجبين. بالاضافة إلى السلاسل الذهبية لمختلف الأغراض.

١٢ ـ **المسوغات الفضية**: كالحجول الفضية أو الذهبية وهو مثل الأسورة الغليظة المفتوحة تلبسه المرأة في أسفل ساقها فوق القدم مباشرة كما قال الشاعر:

الحجل للرجل والتاج الرفيع لما
فوق الجبين ونظم الدر للعنق[1]

(أبو العلاء المعري)

١٣ ـ **الأساور الفضية** الموشاة بسلاسل فضية مطرزة بنقوش جميلة منها النتوءات والانتفاخات ذات الأحجام المختلفة وتسمى «منافيخ».

١٤ ـ **«الصدرية»**: وهي عبارة عن أشكال من الرقائق الفضية المختلفة مثبتة في سلاسل فضية تعلق بالرقبة وتتدلى على النحر إلى أسفل الصدر.

١٥ ـ **الخواتم الفضية للرجال** ذات فصوص من الأحجار الكريمة ويلبسها بعض الرجال ذوي الشهرة والجاه في خنصر أو بنصر اليد بالاضافة إلى الخواتم الفضية النسائية.

١٦ ـ **صيانة المصوغات** السابق ذكرها ولحامها وتعديلها وصقلها وتلحيمها.

من هذه الحصيلة نرى أن الصائغ يحتل مكانة مرموقة على مستوى رفيع في المجتمع يبيع سلعه بالنقد فقط إلا ما ندر بالمقايضة وخاصة من السلع الفضية الرخيصة ويعمل بهذه المهنة بالاضافة إلى الحضر المقيمين بالمدن والقرى فئة متنقلة تتبع مضارب البادية وعادة يقتصر عملهم على المصوغات الفضية.

□ الأسكافي «الخراز»:

يحتل الاسكافي الخراز مكانته أيضاً في ذلك المجتمع حيث يحتاج إليه كافة طبقات الناس يمتطون من انتاجه ما يقيهم حرارة الرمضاء ولسع برد الشتاء ومعسول الأشواك التي تنتشر على الطرقات ولاسيما إذا علمنا أن كافة أفراد المجتمع صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم مجتمع عامل كل حسب طاقته وتحمله في حقل اختصاصه فلذلك لابد لهم من الانتقال مما ينتجه صاحب هذه المهنة

(١) سقط الزند ص ( ).

المهمة، والمواد التي يستخدمها كما هو معروف هي الجلود المدبوغة والمدهونة سواء أكان ذلك من جلود الغنم أو البقر أو الإبل، وكذلك الجلود النيئة التي يقدها شرائح رفيعة ويستخدمها كسيور يخصف بها الأحذية، والخراز من أقل المهنيين عدة حيث تتكون عدة الخراز من السكاكين مختلفة الأشكال والأحجام والمقصات على اختلاف أحجامها والمخاريز على أنواعها وسندان صغير ومطرقة صغيرة والأخرى كبيرة ومسامير للتخزيق والنقش وغيرها وينتج الاسكافي السلع الآتية:

١ ــ الحذاء الممتاز المعروف بنجد وهو عبارة عن دعسة مخروزة بسيور رقيقة بخطوط جميلة منها «المسوبع» و «المتوسع» و «المخمس» ولها أوراق من طبقات ملونة من جلد الغنم الرقيق الناعم مزركشة بنقوش من سيور ملونة رقيقة موشاة بأسلاك معدنية لامعة على مختلف الأشكال الفنية الجذابة. وهذا النوع من الحذاء يتناسب والمناخ السائد في هذا الاقليم على مدار السنة.

٢ ــ الحذاء العادي وهو مكون من نفس العناصر للنوع الأول غير أنه لا يوجد به النقوش والزخرفة السابقة، وربما استعمل جلوداً أغلظ من الأولى وسيوراً أثمن منها وبذلك يكون أمتن من سابقة وأرخص ثمناً.

٣ ــ حذاء النساء وهو من نفس المواد السابقة غير أنه يختلف عنها من حيث عدد السيور والأوراق المثبتة بأعلاه إذ يقتصر على سيرين فقط الأول صغير يدخل به إبهام القدم والثانية كبير على ظهر القدم، ويولي الخراز حذاء النساء عناية فائقة في النقوش والزخارف لينال رضاء زبائنه.

٤ ــ «الدسوس» وهي جوارب منسوجة من خيوط وبر الابل ولها دعسة حذاء عادية مثبتة عليها وفي مقدمتها غطاء جلدي مزخرف وتلبسه المرأة شتاء ليقيها لسع البرد.

٥ ــ بالإضافة إلى الأحذية يعمل الخراز الدلو على مختلف أنواعها سواء ما كان للحضر «غرب» أو للبدو «قلص» كذلك «العيبية» وهي وعاء من جلد

البعير المدبوغ والمدهون وتستعمل أنـاء للتمر بـالإضافـة إلى القرب و «السقي».

من هذا نجد له أهمية ملحة، ويبيع الخراز منتجاته بالنقد والمقايضة ويتقاضى عن عمله أجراً مناسباً وأكثر ما يوجد بالمدن والقرى.

□ الحياكة:

تقوم مهنة الحياكة بدور لا يستهان به من واقع الخدمات التي يقدمها أرباب هذه المهنة، والواقع أنها مهنة نسائية أكثر منها رجالية إلا بنسبة ضئيلة، وتقوم بسد احتياج الناس في ذلك الوقت من البسط والمفارش على اختلاف ألوانها وأشكالها، والخروج من الأوعية المختلفة هذا بالنسبة للحضر، أما البادية فإن الحياكة تؤدي دوراً رئيسياً في صنع بيوت الشعر التي تعتبـر المساكن الأساسية لهذه الفئة بالاضافة إلى الفرش والأوعية اللازمة لتعبئة تموينهم والمادة الرئيسية التي تقوم عليها مهنة الحياكة هي صوف الغنم وشعر الماعز ووبر الابل وأحياناً القطن وتستخدم في الحياكة أدوات بسيطة جداً تتكون من القضبان الخشبية والأوتاد والأنوال الخشبية و «المنشاز» و «الشاصين» إنما تعتمد بدرجة رئيسية على الفن اليدوي الدقيق في طريقة صف الخيوط للسدى واللحمة في النسيج ووضع الزخارف والنقوش الزاهية البديعة ذات الألوان الزاهية، وإذا رأيت بساطة الأدوات المستعملة في هذا النسيج فإنك تتعجب من روعة الانتاج وأحكام الصنعة ودقة الزخارف، ويحتاج الحايك إلى مساعد له ولاسيما إذا علمنا أنه يمد خيوط النسيج على الأرض فوق فراش يقيها الغبار ثم يبدأ بحياكة «الشقة» التي يبلغ عرضها حوالي المتر وربما أقل من ذلك وتقوم المرأة بهذه المهمة ويحتاج إلى من تناولها درعة الخيوط أو من تناولها شيئاً من لوازمها كما أشار إلى ذلك الشاعر:

١٠٤ ــ هذي تهل النـطو من فوق الأوتـاد
وهــذي تلحم لـه وهــذي تسـديـه

١٠٥ ـ وهـذات نجـار وهـذات حـداد
وكـل بشغله والٍ الأقـدار مشقيـه

(عبيد الرشيد)

ومنتجات الحياكة هي:

١ ـ **السِّيَاحْ**: وهي بسط منسوجة من وبر الابل الأشقر ومنقشة بخيوط من الوبر الملون بمختلف الألوان ومزخرفة ومنقوشة بأشكال بديعة وهي تتخذ مفارش في مجالس الرجال وغرف النساء وتعلق على الحائط للزينة.

٢ ـ **البسط الصوفية** المنقوشة بخطوط وزخارف بديعة بمختلف الألوان وتقاسيم دقيقة وهي روعة في الجمال وتتخذ كذلك مفارش لمجالس الرجال.

٣ ـ **خرج المطية** ذو الألوان الزاهية والنقوش الجميلة وهو الذي يوضع على ظهر المطية وتتدلى منه «سفائف» من نفس النسيج والألوان تنتهي بعثاكيل «دلال» إلى ما يقارب المتر تحت بطن المطية ومن نفس الألوان والنسيج رسن المطية وخاصة العذار وهو ما تحت أذنيها خلف الرأس والمزين بالعثاكيل المتدلية في أسفل رأسها وتبدو المطية وعليها هذا الخرج بألوانه الجذابة «وسفائفه» وعثاكيله المتموجة الراقصة كما وصفها الشاعر.

١٠٦ ـ كالديداحانـة يوم تنـظر دلاله
ليـا شاف وصفه مـولـع الهجن.. يهتال

١٠٧ ـ تشدي هنوف صار خله قباله
دلـة تـزين بمشيتـه تقـل تختـال

(عبد الله القضاعي)

٤ ـ **الخروج الصغيرة** «المزودة»: وهي من نفس النقوش والألوان الزاهية

وتنهي فتحها باطار جلدي به حلقات تدخل ببعضها وتنتهي يقفل، وهي بمثابة حقيبة السفر أو الخزانة بالنسبة للمرأة وخاصة بالبادية وكذلك الخروج الصغيرة الخاصة بالفرس والقطع الصغيرة التي توضع على سرج الفرس لتضفي عليها جمالاً إلى جمالها.

٥ ـ **بيوت الشعر السمراء** الموشاة بنقوش من الخيوط البيضاء المتناسقة الجذابة خاصة ما يستعمل بقواطع البيت وبالذات ما يكون «بالرفة» القسم الرجالي.

٦ ـ **البسط السمراء «العدول»**: وهي ما يستعمل للفرش الداخلي والدفء وما يصنع منه أوعية الحبوب «الرزمة» و«العدلة» وهي فردة البعير وخرج الحمار وغيرها من الأوعية الأخرى.

٧ ـ **العبي**: وهذه غالباً ما يقوم بها الرجال وتحتاج إلى غزل دقيق من وبر الابل أو صوف الغنم الناعم للحصول على خيوط دقيقة وتنسج العباءة من شقين يجمع ما بينهما وتكوّن عادة من اللون الأسمر أو البني وتوشى حوافها بخيوط بيضاء وتطرز أطرافها وجبيها بخيوط من الحرير «البريسم» أو الخيوط المذهبة.

٨ ـ **الجوارب**: ويتم نسجها بحجم القدم من وبر الابل الناعم ويوضع لها حذاء ليتم استخدامها في الشتاء وهي دافئة جداً لا يضاهيها أي حذاء في الوقت الحاضر.

هذه المنتجات كما أسلفنا تقوم بها المرأة بصفة رئيسية ولا يعمل الرجل سوى في نطاق ضيق منها وإذا علمنا أن القوام الرئيسي لهذه المنتجات هي الاحتياج الفعلي من ناحية وإذا ما أدركنا متانة هذه المنسوجات التي تبقى مدة طويلة من ناحية أخرى فلا نستغرب إذا رأينا قلة في الانتاج، وتعمل المرأة لسد احتياجها الفعلي وتبيع الزائد منه بالنقد أو المقايضة وأسعار هذه المنسوجات مناسبة في ذلك الوقت.

□ صناعة منتجات الخوص:

وكما رأينا في البادية أن المرأة تقوم بدور رئيسي في عمل الغزل والنسيج، فكذلك نجد المرأة في الحضر تبرز بصناعة منتجات الخوص النخل «السَّفِيفْ» وهي مادة رئيسية تهم الفلاح وربة البيت وصاحب الحانوت وصاحب المبنى، حيث تقوم المرأة بصنع تشكيلة كبيرة من الزنابيل والقفف والأطباق من منتجات خوص النخيل إلى جانب الأوعية المعدة لتعبئة التمور ونقل المواد والأتربة وغيرها ولا تستخدم المرأة في ذلك من الأدوات سوى المخيط والمخراز أما بقية عملها ففي أناملها وأظافرها، والمادة الرئيسية المستعملة هي الخوص وعراجين النخل وليف النخل الذي تفتل منه العراوي للزنابيل وتوشى به حوافها وكما هي حال المرأة في البادية التي تجعل من الغزل نوعاً من التسلية المنتجة كذلك المرأة في الحضر تجعل من «السفيف» تسلية منتجة أيضاً ويبلغ عرض السفيقة من ٥ ــ ١٠ سم وتختار النوع الجيد من الخوص وهو ما يلي قلب النخلة خوص جريد الخوافي الأبيض الضارب للحضرة، أما إذا كان من قلب النخلة وهو الخوص الأبيض الناصع فإنه يخصص للسُّفَر والأطباق الممتازة ويصبغ منه ألوان مختلفة يوشى بها حواف السفر والأطباق والزنابيل الصغيرة ولو ألقينا نظرة على منتجات صناعة الخوص لوجدناها كما يلي:

١ ــ **السُّفَرة الدائرية**: وهي التي توضع تحت صواني الأكل بمختلف أحجامها وتكون عادة من الخوص الأبيض الناصع الموشى بالنقوش أو الخيوط الصوفية أو القطنية.

٢ ــ **الأطباق**: على اختلاف أحجامها وهي ما ينقي بها الحب من الشوائب ذات حواف قائمة وهي تخرز بلف الخوص الأبيض على شرائح من عراجين النخل المبلل بطريقة دائرية وتزين بنقوش من الخوص الملون.

٣ ــ **الزنابيل الصغيرة «مطاحين»**: ذات عراوي رقيقة موشات بحبل من الليف أو القماش أو الصوف وهي من الخوص الأبيض الناعم وتستعمل لنقل الحب والدقيق والتمر وغيره.

٤ ــ **القفف الصغيرة**: من نفس الخوص غير أن استعالها للأشياء الصغيرة وتشبه استعمال السلال في الوقت الحاضر.

٥ ــ **الزنابيل الكبيرة** من الخوص الأخضر المتين ذات عراوي غليظة موشاة بحبال من الليف بمختلف الأحجام وهي ما يستعمل لنقل الحبوب والتمور بشكل أكبر من سابقتها وكذلك لمختلف الأغراض ومنها الكبير جداً وهو «مجداد» التمر.

٦ ــ **الزنابيل الصغيرة «محافر»**: وهي من الخوص الخشن الأخضر ذات عراوي غليظة موشاة بحبال من ليف وتلبس من الخلف بطبقات من الليف لزيادة متانتها وهي ما يحفر بها الآبار وتستخدم لنقل الأتربة وغيرها.

٧ ــ **فرش «السفيف»** على مختلف مقاساتها ودرجة جودة خوصها وصنعها وهي ما يعد للفرش وتكون على شقائق تخاط فيما بينها وهي رخيصة الثمن وتوضع لوقاية الفرش الثمينة من الغبار وهي بطبيعة الحال فراش الطبقة الفقيرة.

٨ ــ **المنقلة**: وهي وعاء من «سفيف» الخوص الأبيض الناصع مستطيلة من طبقتين موشاة أطرافها وحوافها بالليف وتعد للنقل حيث تفرد على ظهر الحمار وتوضع بها التمور المراد نقلها من مكان إلى آخر وكذلك ينقل بها طين المباني والأتربة الأخرى وغيرها من المواد المستعملة.

٩ ــ **الأواني المعدة لتعبئة التمور «الخصف»**: وهي من الخوص أيضاً من النوع المتوسط وتخاط على شكل أكياس مربعة تعبأ بالتمر وتستوعب حوالي ٥٠ كم ويستخدمها الفلاح لنقل تموره إلى مكان آخر كما يستخدمها تجار التمور.

١٠ ــ **المروحة**: وهي من نسيج الخوص الأبيض الناعم تزدهي بنقوش من الخوص الملون مربعة الشكل ذات عصا رشيقة وهي رفيقة الانسان في

أيام الصيف ولا يخلو بيت أو مجلس منها وذلك قبل انتشار الكهرباء ومكيفات الهواء.

هذه المنتجات التي تقوم بها المرأة في الحضر بدور رئيسي تفي بالتزاماتها والزائد عن حاجتها إما تبيعه أو تقايض به أو تهديه وعلى ذكر المقايضة هناك مثل سائر يقول «سَفُّ ثُـرَيَّا الحَامِدْ» وهي سيدة كانت تبدل منتوجاتها المصنوعة من الخوص بخوص خام ثم تبدأ في سفه وخياطته وتجهيزه ثم تبدله مرة أخرى بخوص خام وهكذا دواليك دون أي فائدة لها من وراء ذلك سوى التعب وارضاء الذات ويضرب هذا المثل لمن لا يستفيد من الجهد الذي يبذله.

□ دباغة الجلود:

تقوم دباغة الجلود على العناية بسلعة ضرورية للإنسان في ذلك الوقت حيث يترتب على هذه السلعة كثير من متـطلباتـه اليومية والسنوية فالفلاح يعتبرها من ضرورياته الملحة لاستعمالها لإخراج الماء من الآبار، وكذلك سائر الناس الذين لا يستغنون عن قربة لحفظ الماء وتبريده وهي من الجلد بطبيعة الحال، ناهيك عن المستزمات الأخرى الخاصة بالألبـان ومشتقاتهـا وغير ذلـك من الأغراض التي تتطلب الأوعية الجلديـة بالإضافة إلى الأحذية، ويشترك بهذه المهنة الرجل والمرأة، فإن كانت الجلود من متطلبات الأسرة، فإن المرأة تقوم بها حيث أنه في الغالب كل ربة بيت تقوم بتجهيز ما يلزم بيتها من الجلود لمختلف الأغراض وهذا في قطاعي الزراعة والرعي، أما القطاعات الأخرى فإنها أقل اعتناء بهذه السلع من سابقتها، أما إذا كان الانتاج على درجة أكبر من حيث الكمية فيقوم بها الرجل ويخصص لها معامل مستقلة وهذا عادة في المدن التي يتوفر بها كمية من الجلود يومياً، ويقـوم أرباب هذه المهنة بجمع كمية الجلود وغمسها في أحواض ملآنة «بالتمار» أولاً وتبقى بها مدة قد تزيد على الأسبوع حتى تتخمر وتتشبع من المواد المتخمرة في التمار. والتمار هو من حبوب الذرة أو الشعير المجروشة أو التمر المطبوخة طبخاً خفيفاً ثم تبرد وتغمس بها الجلود

للفترة المشار إليها ثم يتم إخراجها بعد أن تنزع صوفها وتنظف وتجفف ثم تغمس بأحواض أخرى ملآنة بالدباغ لتبقي بها من ٣ ــ ٤ أيام يتم تقليبها بين الحين والآخر حتى تتشرب الدباغ في كافة طبقات الجلد ثم تخرج منه وتنشف وتدهن بالودك لتصبح ناعمة قابلة للاستعمال، والبعض منها يجري دعكه بعد الدبغ وذلك باضافة مواد أخرى تكسبه ليونة ونعومة أكثر وتختلف المواد التي يدبغ بها الجلود عن بعض حيث يعطي كل نوع للجلد لون معيناً ورائحة مميزة وطراوة ملموسة وهي كما يلي:

١ ــ **اَلْعِرْنِ**: وهو أشجار تنمو بالجبال ذات وريقات خضراء صغيرة وله أغصان وجذوع غليظة ولونه أحمر تجتث هذه الأشجار وتبقى حتى تجف ثم تكسر إلى قطع صغيرة ثم يتم طبخها في قدر كبير حتى يكون الماء أحمر قانياً مر المذاق جداً ثم يزل هذا الماء في إناء آخر وتغمس فيه الجلود للفترة المشار إليه ويخرج الجلد المدبوغ بالعرن أحمر قانياً، ويفضل الجلد المدبوغ بالعرن لعمل القرية منه نظراً لنكهته المميزة.

٢ ــ **الأرْطَى**: وهي غصون وأوراق شجر الأرطي لمعروف تجفف وتدق بعصى غليظة أو مدقاة خاصة ثم ينقع هذا المسحوق بالماء حتى يتخثر بدرجة كافية ثم تغمس فيه الجلود لتبقي فترة ٣ ــ ٤ أيام تقلب من حين لآخر حتى ترتوي طبقات الجلد من الدباغ ثم يخرج منه ولون الجلد المدبوغ بالأرطي أحمر فاتح.

٣ ــ **اَلْكِـرْمِعْ**: وهو ثمر شجر الاثل ويتم جنيه من الأثل في موسمه ويجمع بكميات كبيرة ويتم سحقه بمدقات خاصة، وينقع بالماء حتى يتخثر جيداً ثم يغمس فيه الجلد حتى يتسرب الدباغ إلى مختلف طبقات الجلد ويقلب فيه بين الحين والآخر ويخرج منه ويجفف ثم يخرج منه ذا لون أصفر برتقالي ويمتاز الجلد المدبوغ بالكرمع باللين ويفضل استخدامه في الغالب كصميل لمخض اللبن نظراً لنكهته المميزة التي تبقى من آثار طعم الكرمع هذه النكهة التي يحبها البعض.

٤ ـ **العاقول**: وهي شجيرة صغيرة ذات أشواك معكوفة مر المذاق كسابقيه تقطع هذه الأغصان وتدق ثم تنقع بالماء كسابقتها حتى تتخثر ثم يغمس بها الجلد لمدة ٣ ـ ٤ أيام يقلب لفترة معينة ثم يخرج الجلد بعد ذلك أحمر فاتحا كما أن هناك أنواعاً أخرى من الأعشاب والحشائش والشجيرات التي تستخدم في الدباغة. والدباغة كما أسلفنا تقوم على سد احتياج المتطلبات الضرورية وما زاد عن ذلك تقوم المرأة ببيعه أو المقايضة فيه أو إهدائه. أما الكميات الكبيرة التي يقوم بتجهيزها الرجل فيتم بيعها بالنقد وأقيامها على كل الأحوال رخيصة.

□ الجزارة:

ليست مهنة الجزارة كما هي عليه في الوقت الحاضر من الاتساع وإنما تشغل حيزاً ضيقاً وخاصة في المدن أما في القرى والأرياف والبادية فلا تكاد توجد لأن بيع اللحم قليل وذلك لرخص ثمنه فإذا أراد أحد لحمًا فإنه يأخذ من مزرعته أو رعيت شاة ويذبحها بنفسه وإن جاءه ضيف ذبح له شاة أو أكثر وربما جزوراً مما يجعل الناس يشبعون من اللحم ما يجزيهم اسبوعاً وربما جيىء ببعير منسكر أو مصاب وفي هذه الحالة يتم شراء اللحم بالمشاركة ويوزع حصصاً على المشترين ويسمى «شرك» وهذا النوع من أسباب وجود اللحم.

وكما أسلفنا فإن استهلاك الناس من هذه السلعة أقل مما هو عليهِ في الوقت الحاضر أي لا يكون الاستهلاك يومياً مع وجبة كل طعام بل اسبوعياً أو نصف اسبوعي بكميات أكبر. من هذا المنطلق فنجد السواد الأعظم من هذا المجتمع لا يحتاج إلى الجزار وان وجد فهو شبه النادر، وإذاً فهذه المهنة تتركز في المدن ويقوم أفراد هذه الفئة بشراء الإبل والأبقار والأغنام وذبحها وسلخها في أماكن خاصة وعرض لحومها في دكاكين معينة لهذا الغرض والجزار مهنته لها أهميتها، خاصة عند من لا يجيدون الذبح والسلخ حيث يجدون الجزار يكفيهم تعب هذه المهنة كما يهم ذوي الدخل البسيط الذين لا يستطيعون شراء ذبيحة

بكاملها حيث يشترون على قدر احتياجهم من اللحم ومع أنها مهنة متعبة إلا أنها ذات أرباح طيبة تجعل أربابها يتمسكون بها ويتحملون تعبها، ويستخدم الجزار الفؤوس على اختلاف أحجامها، والسكاكين على اختلاف أطوالها وأحجامها والمبارد الحديدية والسلاسل «والكلاليب» لتعليق اللحوم. ويعمل الجزار منذ وقت مبكر قبيل الفجر ومع طلوع الشمس ومعروضاته من اللحوم جاهزة معلقة بمعرضة ليشتري منها الزبائن، وبحكم الخبرة وممارسة العمل فإن له براعة فائقة في سرعة ذبح الذبيحة وسلخها وتقطيعها حيث لا يستغرق منه إلا زمناً يسيراً قياساً على الزمن الذي يستغرقه الإنسان العادي كما أن لبعضهم طرقاً بارعة في تعمية الزبون وإعطائه اللحم الرديء والعظام ضمن اللحم الذي يظنه الزبون لحمًا طيباً حتى إذا وصل إلى بيته وجده خلاف ذلك، كما أن بعضهم الآخر معاملته مع الزبائن طيبة ويثقون به لدرجة إحضاره ما يريدون من اللحم إلى بيوتهم أو إرساله مع صبيانه إليهم، ويستعين بالجزار من لا يستطيع ذبح الذبيحة أو يكون لديه ولائم كبيرة كالأعراس وغيرها وبيع الجزار اللحم «بالوزنة» حوالي ١,٣٠ كجم وبالعضو من الذبيحة، و«بالمشرك» وهو قطيعات من اللحم من مختلف الأعضاء منظومة في خيط تساوي حوالي ربع وزنة وبيع اللحم بالنقد فقط.

لهذا ترى الجزار يشغل حيزاً في هذا المجتمع لا يستهان به يؤدي من خلاله خدمات لمن يطرقون بابه.

□ عمل المرأة في بيئة ذوي المهن:

تعمل المرأة في قطاع ذوي المهن بالاضافة إلى الأعمال البيتية العادية كتنظيف المنزل، وطحن الحبوب، وطبخ الطعام، وهرس الحبوب، وتجهيزها، وتنظيف ملابسها وملابس زوجها وأولادها، والعناية بأولادها وزوجها، وجلب الماء للبيت على رأسها، وجلب الحطب أحياناً وتقوم إلى جانب ذلك بمساعدة زوجها بالأعمال التي تلائمها من أعمال مهنة زوجها سواء أكان ذلك في عمل

التجهيزات الضرورية للجمَّال، وتقطيع الخشب مع النجار، أو صقل الأواني مع الحداد، أو نفخ الكير مع الصائغ والحداد، أو تهيئة الجلود للخراز بالإضافة إلى المهن التي تقوم بها بنفسها مثل الحياكة وصناعة منتجات الخوص والخياطة والتطريز وغيرها وهي عضو عامل فعال في ذلك المجتمع منذ بزوغ الفجر وحتى بعد صلات العشاء الأخير وهي تعمل كالنحلة.

□ □ □

الفصل الثامن:

خدمات السلطة

□ الاشتراك في الغزوات وتجهيزها:

لما كانت السلطة المشرفة آنذاك هي عبارة عن واحدة من الكيانات الصغيرة التي يشرف كل كيان منها على جزء معين من هذه الرقعة قابلة للزيادة أو النقصان حيث لا يوجد حدود دولية ثابتة كما هي عليه الآن بل أن هذه الرقعة تتمدد وتنكمش حسب قوة الأمير أو ضعفه بالنسبة للامارات المجاورة الأخرى وربما للقبائل الذين تحت كنفه وفي حدود إمارته خاصة إذا كانت هذه القبائل على درجة من القوة أو التكتل والتماسك، وطالما أنه لا يوجد جيش نظامي مدرب تحت راية الأمير يمكن أن يوجهه إلى النقاط التي يحدث فيها قلاقل أو تمرد أو اعتداء بين قبيلة وأخرى أو اعتدا ء على جـزء من اراضيه من الامارات والقبائل المجاورة، إذاً والحالة كذلك فلا بد من أن يستعين بمواطنيه مقابل ما يسمى في الوقت الحاضر «بقوة الاحتياط» غير أنه أقل تنظيمًا، وربما كان استدعاؤ ه ارتجالاً ذلك بتعميد ممثله على الوحدات الادارية الصغيرة سواء أكانت مدينة أو قرية أو قبيلة بتجهيز عدد من الجنود غير النظاميين يسمون «الغزو» ويقوم الأمير بتجهيز أسلحة وخيل وركاب الغزو من عنده مع كامل مؤ ونتهم وأحياناً على كل شخص مكلف بالغزو أن يجهز نفسه بكل شيء من سلاح وراحلة أو فرس وغير ذلك مما يلزمه، وأحياناً يفرض على كل وحدة إدارية عدداً من الغزو بخيلهم وركابهم وسلاحهم ومئونتهم وعلى أهل هذه الوحدة أن يتدبروا أمرهم فيكلفوا من يرونه لهذه المهمة ولما كانت المهام المماثلة تتكر عدة

مرات في السنة فإنه يتم التناوب في هذه المهام بين أبنائهم ولا خيار لهم في ذلك، من هنا تراهم يحددون السن النظامية آنذاك ما بين الخمس عشرة سنة إلى خمسين سنة وربما أكثر من ذلك حسب مقتضيات الحاجة وقد أشار الشاعر إلى ذلك بقوله:

١٠٦ ـ ما بين شمطان اللحي والأواليد
نضة أقروم فوق مثل السيالي[١]

(عدوان الهربيد)

ويمكن أن يشار إلى فتى معين بأنه يحمل السلاح وذلك دليل على بلوغه السن القانونية للغزو، وربما صار هناك أغراض شخصية بين المسؤول في هذه الوحدة الادارية وبين فرد أو أفراد معينين فنجده يكلفهم بالغزو دائمًا وما عليهم سوى امتثال أوامره بدون أي اعتراض، وفي حالة مقتل الفرد أو اختفائه فإن السلطة لا تقدم لأسرته أي ميزة ولا تصرف لهم أي معاش يساعد أبناءه على أود الحياة ومتاعبها لاسيما إذا كانوا قُصَّراً، وفي حالة انتصار الغزاة وعودتهم، فإن السلطات المسؤولة تكافئهم على ما بذلوا من جهد وما أدوا من أدوار التضحية أحياناً باعطائهم شيئاً من الغنائم وأحياناً أخرى بمكافأة من خزينتها وربما لا ينالون أي مكافأة وإنما يكفيهم الفخر وسمعة الانتصار التي تملأ الآفاق وهذه الخدمة لا يعفى منها أحد كائن من كان سوى كبيري السن والأحداث، وتطول مدة الغزو أو تقصر فأحياناً تمتد من ثلاثة إلى أربعة أشهر وربما إلى ما يقارب السنة، وذلك في كون المكان المراد غزوه بعيداً أو أن يكون العدو قوياً شديد المراس أو أن يكون هناك أكثر من جهة يجب اخضاعها، ويكون على رأس هذا الغزو الأمير أو شيخ القبيلة نفسه وذلك عندما يكون عدوه قوياً أو يرى لقمة سائغة يريد صدى سمعة التهامها بنفسه، وفي بعض الأحيان يكلف أحد رجاله بقيادة غزوة ما أو القضاء على فتنة معينة إذا كان أمرها سهلاً أو كان مشغولاً عنها بما

---

(١) آدابنا الشعبية، ص ١٥٩.

هو أهم منها وربما كلف أحد أبنائه بمهمات محدودة وذلك لتدريبه على مهمات أكبر شيئاً فشيئاً حتى يستطيع أن يوكل إليه المهام الكبيرة.

مما سبق نرى أن الغزو في تلك البيئة ينفذ ما يسمى الآن «بخدمة العلم» وربما أكثر منها لأن خدمة العلم مدة محدودة يكون الغزو بعدها طليقاً إلا في أوقات معينة، أما ما يؤديه الفرد آنذاك فهي خدمة مستمرة يذهب حصادها عشرات بل مئات من الأفراد دون أي مبرر، سوى المناوشات الحدودية أو حب فرض السلطة أو المطامع المادية والانتقام وغير ذلك من الدوافع الأخرى.

□ تجهيز الغزوات بالمواد التموينية:

وكما هي الحال في تجهيز الرجال بخيلهم ورواحلهم للغزو، فإن سكان هذه الكيان يمدون السلطة بالأموال اللازمة والمؤن الضرورية التي تقوم بأود الغزو، مما تحت أيديهم حيث يكلف الأمير ممثليه في الوحدات الادارية بجباية هذه الأموال والمؤن على اختلاف أصنافها وأغلب الأحيان تكون هذه المؤن على اختلاف أصنافها جاهزة للاستهلاك أو شبه جاهزة كأن تكون من التمور أو تكون من دقيق البر، أو هريس وجريش «اللقيمي» أو جريش الذرة والشعير وغيرها من الحبوب الأخرى، هذه بالنسبة للحضر المقيمين بالقرى والمدن، أما العرب الرحل فيطلب منهم تجهيز شيء من منتجاتهم، كالسمن والأقط أو رؤوس الأغنام أو ركائب من الابل، وتفرض هذه التجهيزات مع المستزمات الأخرى كالقرب والدلاء والحبال على المواطنين أما بنسبة معينة لكل فرد أو أن يكون على أهل القرية أو جزء من المدينة أو القبيلة مقدار معين من هذه الأنواع من الأطعمة والمؤن، وهم بدورهم يتدبرون أمرهم في تجهيزها وحيث أن هذه التجهيزات تحدث تبعاً للطوارىء وما أكثرها، فإنه يتم تنسيق فيما بينهم في صرف هذه الأصناف، وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك مؤناً تجبى في مواسم معينة كالزكاة التي فرضها الإسلام وتجبى على موسمين زكاة الحبوب وموسمها بعد تصفية حبوب زرع الشتاء بالكمية التي

يقررها الخـراص وهم الذين يقدرون كمية حبـوب من الزرع قبل حصاده وهم بالطبع من أهل الخبرة يمرون على الزرع قبل حصاده وعلى النخيل قبل صرامها ويقدرون كمية الحبوب والتمور ويدفع عليها ربع العشر.

كما أن هناك إيراداً ثالثاً وهو «الغروبية» وهو دفع كمية معينة على كل «غرب» أي على البئر غربيـن أو ثلاثـة وخاصـة إذا كانت الأرض تتصف بالاقطاعات الأميرية.

ونعود إلى تموين الغزو فإن مندوب الأمير أو شيخ القبيلة عندما يجمع هذه المؤن أما أن يرسلها إلى بيت المال في الامارة وهي تتولى صرفها على الجهات التي تطلبها كما تقتضيه الحال وأحياناً تكون بصفة مستعجلة فيتم إرسال هذه المؤن رأساً إلى الميدان، وأحياناً تدعو الحاجة إلى تأمين حتى العلف للخيل والركاب، فيأتي طلب لعلف ضمن المواد التموينية المخصصة للغزو، وقد تدعو الظروف من أهل الوحدة ادارية إلى إيصال ما جمعوه من مؤن إلى الجهة التي تطلبه خاصة إذا قلت مواصلات السلطة، ولما كان هؤلاء المندوبون أو الممثلون من العائلات المعروفة أو من الناس العاديين، فقد يركب بعضهم رأسه في تصرف لا يخلو من الحيف على فرد أو أفراد ويجشمهم من المشاق والمتاعب والطلبات فوق طاقتهم باسم الأمير وكما يقول المثل الشعبي: «عنز الشيوخ نَطَّاحة»، وذلك دون علم من الأمير وفيما لو وصله الخبر فإن الممثل يبرر موقفه بما يقنع الأمير، وربما عزله الأمير عقاباً له.

ومن هذا نرى أن المواطن يدفع للسلطة الضريبة التي تحتاجها، غير أن ما يرهقه كون هذا الدفع بطريقة غير منتظمة، مما يجعله في حرج أحياناً، ولاسيما إذا علمنا أن دخل الفرد في ذلك الوقت غير منتظم وخاضع لظروف الرخاء والعسر، ومع ذلك فإنه يدفع هذه الضريبة بنفس طيبة.

□ موارد السلطة:

لما كانت هذه الكيانات الصغيرة المقامة على مساحة من الأرض ذات موارد محدودة تعتمد بشكل رئيسي على قطاعي الزراعة والرعي والتجارة فإن

موارد السلطة تتكون بطبيعة الحال من محتويات هذه الأرض ومن نفس المصادر وهي:

١ ـ زكاة الحبوب والتمور المفروضة على السكان بحكم كونهم كلهم من المسلمين وتمثل ٢,٥٪ ربع العشر وتجبي زكاة الحبوب في موسمها والتمور في موسمها وتدخل خزينة الامارة «بيت المال» إما حبوباً أو تموراً أو تباع وتدخل نقداً.

٢ ـ زكاة الماشية من إبل وأغنام فتجمع في وقتها في نهاية فصل الربيع ويباع جزء منها ويدخل ثمنها خزينة الامارة نقداً وتبقى منها أذواد من الابل وقطعان من الغنم.

٣ ـ الضرائب المفروضة على البضائع والتجارة الداخلة والخارجية المارة في البلد والتي تجبيها دائرة الجمارك في كل إمارة.

٤ ـ المؤن التي تجمع من المواطنين لتجهيز الغزوات، كلما رأت السلطة أنها بحاجة إلى المزيد منها.

٥ ـ الزكاة التي تحصل من الأراضي والنخيل التي تسقى بدون مئونة كزراعة «البعل» على المطر، ونخيل العيون.

٦ ـ جزء من الغنائم التي يتم الحصول عليها أثناء الغزوات سواء أكانت عينية أو نقدية أو مواشي.

٧ ـ الضريبة التي تؤخذ على الحجاج أثناء مرورهم في أراضي هذه الامارة لقاء تأمينهم من الحوادث أو ما يكدر صفوهم، وكيان هذه وارداته لابد أن تكون قوته الاقتصادية على مستوى هذه الواردات إذا نظرناها من الناحية المادية البحتة إنما هي معنوياً أكبر من ذلك بكثير وكثير جداً.

□ السلطة الإدارية:

ويمثل الأمير أو شيخ القبيلة على قطاع معين كمدينة أو قبيلة أو قرية شخص يتم اختياره بترشيح من مواطنيه يسمى «منصوباً» وللأمير الرأي الفاصل

في تأييد هذا الترشيح أو رفضه وذلك بناء على ما يعرفه عن الشخص المرشح من معلومات أو ما يراه من صفات وعادة يتم الاختيار إما من الأسر التي تتصف بصفات معينة كالكرم والشجاعة وسداد الرأي والغنى وهي صفات لا مندوحة عنها إذا علمنا أن منصوب الأمير يأتيه ضيوف من كل حدب وصوب فلا بد أن يظهر أمامهم بالمظهر اللائق وكذلك له احتكاك بمختلف الطبقات والمفاهيم ولابد أن يكون ذا بصيرة ثاقبة بتدبير الأمور دون اللجوء إلى الأمير إلا فيما كبر منها، وإذا علمنا أن السلطة لا تزود هذا المنصوب بأي مصاريف شهرية وإنما يحصل على عليها بشكل غير منتظم على مدار السنة.

ويكتفي بما حصل عليه من جاه في تأييد الأمير لترشيحه «كمنصوب» له ويحصل منافسة على هذا المنصب ربما بين سكان الوحدة الإدارية الواحدة ولا سيما إذا وجد عدة أشخاص يتضفون بنفس الصفات المطلوبة، أو هكذا يرى مؤيدوهم، وربما وصل الأمر إلى شقاق بينهم حتى يحسمه الأمير، ولمنصوب الأمير سلطات مطلقة في نطاق وحدته الادارية الا ما يتعلق بالأمور الشرعية فإنه يحيلها إلى القاضي للبث فيها أما الأمور الادارية فإنه يبث فيها بنفسه إلا ما كان منها كبيراً كما أسلفنا فإنه يرفعه إلى الأمير.

وإما أن يختار «المنصوب» من خدمه أو معارفه الذين يعرفهم تماماً ويرسله لتلك الوحدة إذا كان يتصف بصفة تحتاج إليها كالحزم وغيرها، ويتم تعيين المنصوب بموجب كتاب من الأمير موجه إلى سكان هذه الوحدة يقرأ على مسمع من الجميع بعد صلاة الجمعة أو بلاغ شفهي يتلوه مندوب الأمير بعد صلاة الجمعة يختم دائمًا بجملة «الحاضر يُعلِّمُ الغائب» وما على المواطنين سوى السمع والطاعة، إلا إذا وجد في هذا المرشح عيب شرعي فعلى الجهة المعارضة إثبات ذلك حتى ينظر في استبداله.

أما الأمور الأخرى فلا يلتفت إليها إلا إذا ثبت بعد التجربة لهذا المرشح أن لديه صفة معينة جرته نشوة السلطة إلى انتحالها كالظلم والبطش فإن على مواطني هذه الوحدة اللجوء إلى الأمير فتبين له تلك الصفة وعندها يتم استبدال

«المنصوب» ويعتبر المصوب جهة تنفيذية للأمير وللمنصوب مضيف بارز وله مكان للسجن في غرفة داخلها خشبتان غليظتان مفروض فيما بينهما فتحات تتسع الواحدة لساق الرجل وعندما يريد المنصوب أن يوقف إنساناً ارتكب خطأ فإنه يجلسه في تلك الغرفة وإحدى رجليه بين فكي هاتين الخشبتين الموصودتين بقفل مفتاحه مع مأمور السجن لدى المنصوب وتسمى هذه الطريقة «الربط» ويكون لهذا المنصوب خادم أو أكثر لمثل هذه الأمور.

وهكذا نرى.. منصوب الأمير على هذه الوحدة يتم اختياره بطريقة الترشيح والتأييد من الأمير وإذا اقتضت الظروف في بعض الأحوال فإنه يتم تعيينه من قبل الأمير بدون أخذ رأي سكان هذه الوحدة.

□ القضاء:

يمثل القضاء الناحية الشرعية في القضايا التي تحدث في هذا المجتمع تنفيذاً لتشريعات الدين الإسلامي الحنيف في أدق التفاصيل وبأبسط صورة وبأقل قدر ممكن من الجلسات بعيداً عن التعقيدات المكتبية التي تحدث اليوم، فنرى القاضي على أبسط صورة وأكثر ديمقراطية حسب تعاليم الإسلام يجلس للناس في المسجد على فراش صغير بسيط وربما يفترش الحصباء بدون فراش وذلك بعد طلوع الشمس بحوالي ساعة حتى قبيل أذان الظهر أي من حوالي الساعة الثامنة وحتى الحادية عشرة صباحاً، وبعد صلاة العصر مباشرة وحتى قبيل غروب الشمس أي من حوالي الساعة الرابعة حتى الخامسة والنصف مساء.

ويتم في هذه الجلسات البت في معظم القضايا في وقتها دون تدوين لها في سجلات أو صكوك، وربما جاء الخصمان إلى القاضي في غير هذه الأوقات وحكم بينهما بالحكم الشرعي الذي يراه وعادة يتقابل الخصمان ويدلي كل منهما بحجته ويطلب القاضي البنية على المدعي سواء أكان ذلك بالوثائق أو الشهود ويطلب من المدعى عليه ما يثبت ضد قول المدعى سواء أكان ذلك بالوثائق أو الشهود أو اليمين ويتم البت بالموضوع في حينه وان كان هناك وثائق مع أحد

الطرفين كتب القاضي في أسفل الوثيقة جُملاً مختصرة تثبت أحقية صاحب الحق ويختمها بخاتمه الذي يصطحبه معه دائمًا ويعطي صاحب الحق وثيقته، ويفترق الطرفان والكل مقتنع بهذا الحكم وإن لم يكن معهما وثائق ومعهما الشهود فقط فإن الحكم يصدر لهما شفهياً باثبات الحق لصاحبه، ولا تستغرق القضايا العادية لأكثر من جلسة أو جلستين على الأكثر أما ما يتعلق بالقضايا العقارية والقتل والسرقة وما في مستواها فإنها تحتاج أكثر من ذلك ليتسنى للقاضي استقصاء الأمور وسبر الأغوار للتأكد من الحق قبل إصدار حكم شرعي بشأنه.

إنما على كل حال فالقضايا أخف كثيراً جداً، مما هي عليه الآن وقد شاهدت عدة جلسات تم البث فيها بعدد كبير من القضايا بَتًّا لا رجعة فيه وافترق الخصمان مقتنعين بهذا الحكم، وإن كان يؤخذ على هذه الطريقة التساهل في تسجيل القضايا للرجوع إليها عند الحاجة، إلا أن القضايا الحساسة ذات الجذور العميقة التي يمكن أن تستأنف، أو تبعث من جديد أو يحصل لها مضاعفات تمتد جذورها إليها، هذا النوع من القضايا يتم تسجيله بصكوك لها مقابل لدى القاضي وهذه الصكوك تسلم لأصحابها بعد علم الخصم بمضمونها، وربما علم بمضمونها الجميع ولاسيما وأن القضايا التي من هذا النوع قليلة.

والقضايا ليست بالكثرة التي هي عليه الآن ويمكن مرد ذلك إلى أسباب عدة نوجزها فيما يلي:

١ ـ رسوخ الايمان الذي لا يتزعزع بقلوب الناس مما يشعرهم بالخوف من الله في أن يأخذ الفرد شيئاً من مال الغير بدون حق ما يخشى معه العقاب من الله.

٢ ـ حسن النية ونقاء الطوية التي تحول دون الادعاء على الغير بدون حق، وتجنب الأمور التي تفسد عليه صفاء طويته.

٣ ـ الشيمة والمروءة العربية التي تمنع الفرد من الادعاء على الآخرين في أمور تافهة تأباها المروءة والشيمة لاسيما إذا كانوا جيراناً أو أقارباً.

٤ ـ الاقتناع بالحق الذي حصل عليه الفرد بأي وجه من وجوه الشرع.

٥ ـ نبذ الطمع وحب الدنيا وماديانها والعزوف عن التناحر في سبيلها.

٦ ـ الصدق في القول والعمل الذي يقطع دابر المراوغة واستنباط الحجج والأقاويل بدون حق بين وجعل نتائج القضية بذمة القاضي من خير وشر.

٧ ـ الحزم في تنفيذ الأحكام الشرعية التي تصدر من القاضي بدون هوادة.

٨ ـ حل بعض الأمور والاشكالات الصغيرة بواسطة هيئة النظر في القطاعات الصغيرة دون الرجوع للقاضي.

كما أن العادات والتقاليد تساهم في حل بعض المسائل الثانوية وانطلاقاً من هذه النقاط نرى القضاة يتركزون في المدن الرئيسية لعدم حاجة القرى إليهم كما نرى الفرد يخرج من عند القاضي مقتنعاً راضياً بالحكم يحمد الله على بيان الحق سواء كان الحكم له أوعليه باعتباره حكمًا شرعياً صادراً عن قاضي شرعي، وربما لزم الأمر بأن يقف القاضي على موضوع معين أو قضية معينة بنفسه فإنه يقف عليها بكل بساطة وسرور، والقاضي على بساطته، له هيبة عظيمة واحترام جم عند الناس وله مكانته في المجتمع، وكلمته الفاصلة في الحكم الشرعي الذي يتردد صداه في جميع الأندية والتجمعات، ذلك أنه يقال على مسمع من جميع الذين يحضرون الجلسة المفتوحة في المسجد، وبالطبع هناك أناس يقومون مقام الصحفيين في الوقت الحاضر، يحضرون هذه الجلسات طواعية وينقلون مما يدور بها أو يصدر عنها من أحكام إلى المنتديات والتجمعات لينشر صداها في كل مكان، والقاضي له من النفقة ما يقوم بمستلزماته واحتياجاته الضرورية تدفعه له السلطة مخصصاً شهرياً وسنوياً.

□ هيئة النظر «النظراء»:

هناك هيئة مساعدة للقاضي ومنصوب الامارة معاً تسمى هيئة النظر «النُّظَرَاءْ» وهي تشكل بمعرفة القاضي والأمير في كل مدينة أو قرية أو مجموعة قرى، ويكون أعضاؤها ممن هم إلمام بالأمور الشرعية من ذوي الرأي والحنكة

والذكاء والجاه من كبار السن الذين عركتهم التجارب مرشحين من مواطنيهم ومهمة هذه الهيئة أن تتولى حل الاشكالات التي تكون صبغتها إدارية وجوهرها شرعياً، كتحديد الحدود بين الأفراد، والنظر في منازعات على حقوق معينة بين المزارعين، وتحديد المراعي والفلوات، وموارد المياه، وقسمة المواريث من عقارات وغيرها، وتقدير الأضرار والخسائر التي تصيب زرع أحد لأفراد نتيجة الكوارث الطبيعية أو من جراء أكل مواشي طرف آخر أو الأضرار والخسائر التي أصابت مواشي شخص ما نتيجة اعتداء طرف آخر عليه، وإصلاح ذات البين بالجاه وغيره بين أطراف متنازعة، ورسم سواقي المياه من الوديان المجاورة، ومرافقة الخراص الذين يقدرون الثمار للتشاور معهم في تقدير تلك الثمار، وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بمواطني هذه الوحدة، وترتبط الهيئة «بالمنصوب» مباشرة وتساعد في حل كثير من الأمور والمشاكل التي تقع في نطاق وحدته كما أنها ترتبط في القاضي فيما يتعلق بالأمور الشرعية، وبعض المسائل تبت فيها بنفسها وتنتهي في حينها والبعض الآخر ترفع توصية بشأنها إلى المنصوب أو القاضي تتضمن رأيها في هذه القضية أو تلك من واقع الوقوف على ميدان المشكلة، والهيئة جاهزة دائمًا للطوارىء تنتقل من مكان إلى آخر ومن قرية إلى أخرى حسب الطلب وهذه الهيئة كغيرها من الأجهزة الادارية ليست لها مخصصات شهرية وإنما يخصص لكل فرد شيء من الزكاة وبعض الهدايا السنوية وكلمة هذه الهيئة مسموعة ومطاعة من الجميع وإن حصل اعتراض من أحد فإن المنصوب أو القاضي يحسم ذلك بعد التأكد من رأي الهيئة، ومن واقع التجربة وغالباً ما تجد أفراد هذه الهيئة لديهم إلمام واسع في معرفة أحوال الناس وما يدور في نطاق عملهم من شؤون، ولديهم معرفة باتجاهات الناس وطباعهم، ومن هذا المنطلق يعرفون كيفية معاملة كل فرد أو مجموعة، مع أنهم لا يدونون حوادث كل شخص بسجل خاص لديهم إلا أنهم يعرفون عنه وعن أسرته الكثير مجرد ذكر اسمه، وربما تجد لديهم ذخيرة كبيرة في علم أنساب أهل هذه الوحدة بفضل احتكاكهم الدائم في الناس وبحكم صغر حجم هذا المجتمع الذي يعيشون فيه.

□ □ □

الفصل التاسع :

الواجبات الدينية

□ الصلوات الخمس :

قال تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾
(صدق الله العظيم)

يقوم الناس باداء الصلوات المفروضة عليهم خمس مرات في اليوم والليلة دون رقيب أو حسيب من البشر وإنما رقيبهم هو من فرض هذه الصلوات عليهم يتوجهون إلى خالقهم العظيم بقلوب يعمرها الايمان وأفئدة خاضعة لأوامر ربها راجية مغفرته ورضوانه، يتسابقون إلى المساجد قبيل الأذان، وعندما يسمعون النداء يدركون تماماً معنى كلمة الله أكبر، أي الله أكبر من كل شيء في هذا الوجود، مما في أيديهم من العمل، مما هم فيه من انسجام، من المهمات المكلفين بها، من النوم، من الملذات ومن.. ومن.. الخ، لذلك لا يكاد يقول المؤذن لا إله إلا الله الأخيرة ألا وكل قد ترك ما بيده وتوضأ واتجه للمسجد، استجابة لهذا النداء وامتثالاً لطاعة خالقه العظيم، تحدوه الرغبة في مغفرته ومرضاته، وتقام الصلوات في المساجد بالمدن والقرى وفي مضارب البادية وتقام كذلك جماعات في المزارع والمراعي بل وتقام أفراداً في البراري والقفار، تجد الإنسان يجوب القفار على ظهر دابته لغرض فإذا حان وقت الصلاة نزل عن ظهر

(١) سورة النساء: آية ١٠٣.

دابته وتوضأ أو تيمم وصلى يرشده ضميره الحي في الاتجاه إلى القبلة وأداء الصلاة المفروضة، وما أعظم أجر إنسان كهذا في هذا المكان القفر يتجه إلى ربه راجياً ثوابه ورضوانه، ولما كانت الساعة لم تنتشر كما هي عليه الآن فإنهم يتبعون المواقيت المحددة بالشرع حيث تتم صلاة الفجر عند طلوع الفجر الثاني، وصلاة الظهر عند زوال الشمس عن الرأس، وصلاة العصر عندما يكون ظل كل شيء مثليه، وصلاة المغرب بعد غروب الشمس وغشيان الظلام للكون، وهذه المواعيد دقيقة عندما تكون الشمس بارزة وعند اختفاء الشمس في أوقات الغيوم والأمطار فانهم يعرفون بالحدس وقت الصلاة بالتمام وإذا استثنينا من هذا المجتمع فئة قليلة من الشباب الذين يحتاجون إلى من يرشدهم ويأمرهم باداء الصلاة في وقتها مع الجماعة فإن ذلك من البديهيات التي تحصل في كل شأن من شؤون الحياة ألا وهي الشواذ التي لا حكم لها، والمحافظة على الصلاة يعتبر واجباً دينياً يجب على الجميع التقيد به، لذلك تتزاحم مناكب الشباب والشيوخ في صفوف متراصة خلف الامام في كل صلاة وفي كل مكان، وفي الفترة الممتدة بين نهاية الأذان وإقامة الصلاة حوالي نصف ساعة تتهدج الأصوات الخاشعة بتلاوة القرآن الكريم وخاصة في أوقات الظهر والعصر حيث يتوفر الضوء الكافي بالمساجد أما في الأوقات المسائية فتتم التلاوة على ضوء الشموع والقناديل أو من يحفظه عن ظهر قلب وتؤدي الصلاة بكل خشوع وطمأنينة وبعد اداء الصلاة يتوجهون كل إلى مجال عمله ليسعوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه.

□ الصيام:

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾[1] الآية ـ وقال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فاليصمه﴾.. الآية.

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣، ١٨٥.

يستقبل الناس شهر رمضان بروحانية غامرة ويستعدون له أكبر استعداد ويتسابقون إلى فعل الخيرات فيه، يقضون نهاره بالصيام ويحيون ليله بالقيام تغمرهم الروحانية، وتفشاهم نفحات ربهم يحتسبون إلى الله في كل عمل يقومون به، تكثر الصدقات، فيتبارى الناس في فعل لخير، وبحكم اتباع التقويم الهجري القمري فإن شهر رمضان يدور على فصول السنة، فأحياناً يأتي في فصل الشتاء أو الربيع وأحياناً في فصل الصيف أو الخريف يدور دورته هذه على مدى ثلاثين عاماً وعندما يكون رمضان في فصل الشتاء أو الربيع فإنه يمر على الناس خفيفاً، أما إن كان في فصل الصيف أو أوائل الخريف فإن الناس يقاسون فيه تعباً ومشقة بسبب العطش، وهذا ما يضاعف أجرهم عند ربهم إن شاء الله ولنا أن نتصور الناس في ذلك الوقت ورمضان في فصل الصيف، وهم في جهادهم الشاق في سبيل لقمة العيش، ولا يجدون مكاناً بارداً يلجأون إليه كما هو متوفر في الوقت الحاضر، ولا يجدون ماء بارد وقت الافطار سوى ما يبردونه بالقرب، وقد يلجأ من أخذ منه العطش مأخذه، إلى سكب الماء على نفسه وثيابه والتظلل تحت الأشجار وفي البيوت، عَلَّ نسمات الهواء تلامس جلده وثوبه المبلل فتمنحه الطراوة والبرودة التي تنعشه وترفع عنه غائلة العطش، وقد يتلوى الفرد في منتصف النهار تحت تأثير العطش، وربما قد يغمى عليه، لكنه وبقوة عزيمته، وصلابة إيمانه يأبى أن يفطر ذلك اليوم، وقد تجد المرأة المرضع نفس المصير بحيث تتوقف حياة ابنها أو موته على لبنها المتلاشي مع الصيام لكنها تصبر وتصوم لتعود ابنها على الصبر وقوة التحمل منذ الصغر وتغرس فيه هذه الخصلة الحميدة، ومتى جاء وقت الافطار رأيت الناس قد أتوا بأطباق التمر ودلال القهوة، وأواني اللبن أو مريس الأقط إما إلى المساجد أو أماكن تجمعاتهم، وبهذه الطريقة يهيئون لكل مسلم أن يدنف إليها بدون حرج ليأكل حتى يشبع من تلك الأطباق ويتضلع من تلك القرب الباردة من نسائم الأصيل، أو تلك الأواني المملوءة باللبن أو المريس البارد أيضاً وأحياناً يتناول الناس طعام الأفطار في منازلهم كل اثنين أو ثلاثة وربما أهل المنزل وحدهم في الحاضرة والبادية وفي كل حالة تجد الرجال على حدة والنساء لوحدهن تلافياً للاحراج، وأثناء النهار يعمرون المساجد بالصلوات

وتلاوة القرآن الكريم، فإذا جنَّ الليل وتناولوا طعام الافطار، أحيوا ليلهم بتلاوة القرآن الكريم وصلاة التراويح والقيام جزاهم الله خير جزاء.

□ تفقد أحوال الناس:

عملاً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد هممت أن آمر فتيتي فيجمعوا لي حزماً من الحطب ثم آتي قوماً يصلون في بيوتهم.. الخ[1].

وانطلاقاً من مبدأ الحرص على أداء الصلاة جماعة في جميع الأوقات ولاسيما في الوقتين اللذين يكونان في الليل، أي صلاة العشاء الأخير وصلاة الفجر حيث يكون في الأولى قد استراحوا لتوهم من نهاية عمل يوم شاق وجهد مضنٍ، مما يدعو بعض الشباب أن يتكاسل عن اداء الصلاة مع الجماعة في المسجد فيؤديها في بيته، أما الثانية فقد يكون الإنسان مستسلماً لنوم عميق بعد تعب اليوم السابق ولا يجد من ينبهه فيغلب عليه سلطان القوم وتفوته صلاة الفجر مع الجماعة في المسجد وفي هذه الحالة، وانطلاقاً من مبادىء الإسلام التي تحث على أداء الصلاة جماعة بالمسجد تحت كل الظروف. يقوم الإمام بتفقد الجماعة الذين يؤدون الصلاة معه في صلاتي الفجر وربما العشاء الأخير، يناديهم واحداً واحداً بأسمائهم سواء كان يكتبها بورقة معه أو قد حفظها غيباً وكلما نادى إنساناً أجابه بكلمة حاضر وهذه الظاهرة لم توجد إلا في الآونة الأخيرة، ولكن لوجودها فعلاً لم أرد إغفالها، وأحياناً يقوم بعدِّ المصلين عضو من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحسبة وأحياناً يأمر هذا العضو إمام المسجد بالعد أثناء وجوده، وعندما لا يجيب أحد الناس للمرة الأولى فإنه يغض النظر عنه، وفي المرة الثانية يوجهه إمام المسجد في اليوم التالي وإذا زاد عن مرتين أو ثلاث فإنه يقوم بتوجيهه عضو من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى يبدأ بالمحافظة على أداء الصلاة مع الجماعة وتكثر هذه الظاهرة بين الشباب في فصل الشتاء وبالذات

---

(١) الترغيب والترهيب، ص ٢٢٢.

الليالي الباردة، وفي الحقيقة لا تخلو تصرفات بعض أئمة لمساجد أو أعضاء هيئة الأمر بالمعروف من هنَّات قد يكون لها أثر عكسي على الشباب، وخاصة إذا كان وراءها دوافع خارجة عن الموضوع، بحيث يتصرفون نحو بعض الأشخاص الذين تفوتهم صلاة الفجر ببعض الكلام غير اللائق أو التصرفات غير المناسبة كأخذ «غترة أو شماغ» ذلك الفرد من فوق رأسه على مرأى من الناس كعقاب مادي له لكن هذه الحالة ليست قاعدة، وإنما لها صفة الشواذ، أما السواد الأعظم من الناس أي ما يقارب ٩٨٪ من هذ المجتمع فإنه يؤدي الصلاة ويحافظ عليها دون الحاجة إلى توجيه من أحد.

◻ صلاة التهجد:

صلاة التهجد هي ما يتنفل به العبد من صلاة يناجي بها ربه عز وجل في الثلث الأخير من الليل، ويقوم بهذه الصلاة من بسط الله على قلوبهم السكنية شيباً كانوا أم شباناً، وهي من ركعتين يسلم بعدها ولا حصر لعدد التسليمات التي يصليها الفرد حسب مقدرته الجسمية، يناجي ربه ويتوسل إليه في الثلث الأخير من الليل، عندما تكون عيون الناس غارقة في نوم عميق فإن هذا الفرد ذكراً كان أم أنثى صغيراً كان أو كبيراً قد هجر الرقاد، وبدأ يصلي رافعاً كفيه إلى السماء متضرعاً إلى الله العلي القدير طالباً من فضله الواسع في الدنيا الحاضرة والآخرة الباقية وتكون هذه الصلاة منفردة كل في بيته وعادة تكون قبل الفجر بساعة أو ساعتين، وربما أكثر من ذلك حسب نشاط الشخص واحتسابه لهذا العمل الصالح، وإن المرء ليجد فيها لو طاف بقرب هذه البيوت عن كثب فإنه يسمع هذا الشيخ يتهدج صوته وتحشرج كلماته مناجياً مولاه بطلب المغفرة والعفو، ولو نظرت إلى وجهه على ضوء القنديل الخافت أو الذبالة الباهته أو ضوء النار لوجدت حبات الدموع تتدحرج على خديه وتبلل لحيته من خشية الله وابتغاء مرضاته، وقد تسمع نشيج عجوز داخل البيت تدعو بصوتها البح مولاها بطلب المغفرة والرضوان وقد تسمع شابا يغص بالكلمات التي لا تكاد تغادر حنجرته متضرعاً إلى الله تعالى أن يهبه من فضله الواسع في الدارين، هذه

الأصوات التي تسمعها بداخل البيوت بصفة فردية في هذا الوقت من الليل، مبعثها الايمان الصادق بالله عز وجل، وتنفيذ شريعة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، من قلب عامر بالايمان وروح مشربة بالنور أو السكينة، وعادة عندما يقوم الفرد من هؤلاء وخاصة الشيوخ فإنه يوقد النار من الحطب الجزل في «القهوة» فإن كل الوقت شتاء سخن شيئاً من الماء ليتوضأ به ثم توضأ وعاد يتدفأ على صلو النار، ثم حمس القهوة ودقها ووضعها بالدلة وتركها على نار هادئة وبدأ يصلي ما شاء، ثم جلس وصفى القهوة، وأضاف إليها البهار من هيل أو قرنفل ثم ارتشف فنجانين أو ثلاثة مع حبات من التمر «القدوع» وذلك لتطرد النعاس عن عينه، ثم استأنف الصلاة، حتى إذا أحس بالتعب من الصلاة استراح بقرب النار يتناول القهوة والتمر ثم يعود إلى الصلاة وهكذا حتى يصلي الشفع والوتر في نهاية صلاته قبيل أذان الفجر وإن كان الوقت صيفاً يقوم بنفس العمل إلا أنه لا يحتاج لقرب النار كثيراً، لذلك تراهم يحضرون لهذا العمل ما يحتاجون إليه من حطب جزل «كالحفائر» وهي جذوع شجر الرمث اليابسة، والأرطى، والغضا، وغيرها، ويكتزون من التمور الطيبة لهذه الفترة بالذات، ونسبة هؤلاء بالمجتمع كثيرة جداً، وهم الذين يحيون الهزيع الأخير من الليل في طاعة الله جزاهم الله أفضل الجزاء وأكثر من أمثالهم في كل زمان ومكان.

◻ صلاة التراويح:

تعمر المساجد في شهر رمضان بصفة مستمرة ليلها كنهارها بالصلوات والعبادة، فتراها تغص بالركع السجود من مختلف الأعمار وكلا الجنسين يرتفع منها ضوء المصابيح طوال الليل، وترتفع منها جلبة أصوات القراء في أوقات صلاة الظهر والعصر وما بينهما وبعد صلاة المغرب حتى أذان العشاء ثم يبدأ امام المسجد يقرأ على المصلين، من كتب الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي وكتب الأحاديث التي تحتوي على النصح والارشاد وتبين فضائل شهر رمضان وتهيب بالمسلمين أن يستفيدوا من استغلال هذه الفرصة الثمينة بالتقرب إلى ربهم للفوز بجنته ورضوانه ثم بعد أداء صلاة العشاء يبدأ الإمام بصلاة التراويح وهي

ركعتان يسلم بعدها يتلو خلالها الكتاب العزيز بمعدل ربع حزب في الركعتين بادئاً من أوله وبعضهم يختمه في ليلة سبع وعشرين، التي يرجح أنها ليلة القدر ذات الفضائل العظيمة والبركة والنور والغفران، وبعضهم يكون ختمه للقرآن الكريم في نهاية الشهر ليلة ٢٩ أو ٣٠، ويصلي بالناس التراويح وبعض الأئمة يتريث بقراءته فيصلي ست تسليمات وبعدها الشفع والوتر، وبعضهم يسرع في القراءة والركوع والسجود فيصلي اثنتي عشرة تسليمه وبعدها الشفع والوتر، والشفع ركعتان يقرأ فيهما بسورتين من قصار السور، والوتر ركعة واحدة يقرأ فيها بسورة الاخلاص وبعد ركوعها يدعو ببعض الأدعية المأثورة ثم يسجد ويسلم وتنتهي صلاة التراويح وترى الناس في صلاة التراويح «ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا» كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم ويكون للنساء قسم معزول عن الرجال في آخر المسجد وله مدخل مستقل يفصله عن قسم الرجال رواق من قماش أو أي نسيج آخر، ذلك ليترك للنساء حرية العبادة بعيداً عن الرجال، وفي موسم رمضان تلقى المساجد عناية خاصة من حيث تطييبها بأنواع فاخرة من البخور والعطور الفواحة التي ترش على المصلين في أوقات الراحة بين الصلوات وعندما يكون الامام يحدث، كما تدار فناجين القهوة العربية في هذه الفترة إلى جانب كؤوس الشاي، كذلك تعتبر المساجد مكاناً لتناول الفطور في رمضان مع آذان المغرب في كل يوم، بحيث يؤمن للمسجد قربٌ من الماء البارد ويحضر إليه أطباق من التمر، والأواني المملوءة باللبن أو مريس الأقط إذا كان الوقت صيفاً، وتحضر إليها دلال القهوة العربية تفوح برائحة الهيل المنعشة، وهذه المواد التي تحضر إليها في شهر رمضان هي من تبرع فاعلي الخير وذوي الإحسان الراغبين بالأجر الذين يؤمنون بالحديث الشريف القائل «من فطر صائمًا بفلق تمرة أو شربة ماء أو مذقة من لبن فله مثل أجره من غير أن ينقص من أجر لصائم شيء.

وفي رواية «من فطر صائمًا فله مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء»[1] سواء أكانوا من الأحياء أو من الأموات الذين أوقفوا شيئاً من

(١) الترغيب والترهيب، ج ٢ ص ٢٦٦.

ممتلكاتهم على تأمين الفطور للمساجد في شهر رمضان أو إضاءة المساجد في هذا الشهر الفضيل لأنهم يؤمنون أن المسجد مكان للغادي والرائح لا يجد أحد حرجاً أو مِنَّة من تناول الأفطار فيه فيريدون اكتساب أجر أكبر عدد ممكن من الصائمين، والواقع أن لشهر رمضان روحانية عظيمة تلف الإنسان المؤمن عن كل ما حوله وتعزله عن كل ارتباطاته المادية لتطفح به وترفعه وتشده برباطها الشفاف بخالقه العظيم، فلذلك تراه في هذا الشهر المبارك مشدوداً إلى الأعمال الخيرية، مواصلاً أيامه بلياليه يسبح في اطار هذا الاتصال الروحي بينه وبين خالقه، منتشياً بعطر هذه الفترة الروحية الخلابة، وتكثر الصدقات وتَفَقُّدِ أحوال الفقراء من الناس، وتنزل بركة السماء على الأرض، والكل يطلب مرضاة ربه في أعماله هذه.

□ صلاة القيام:

في العشر الأواخر من شهر رمضان يبدأ الناس بأداء الصلاة القيام واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث جاء في الحديث «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[1] حسب تعاليم الدين الاسلامي الحنيف ووقت صلاة القيام في الهزيع الأخير من الليل وتستمر من ساعتين إلى ثلاث ساعات وهي أربع تسليمات عدا الشفع والوتر، يطيل الامام القراءة بكل ركعة فيصل إلى جزء من القرآن في كل تسليمة وبالطبع والقرآن يساوي ٣٠ جزءاً كما يطيل فترة الركوع والسجود أيضاً ويختلف الأئمة في صلاتهم بالناس فمنهم سريع القراءة ينهب الآيات نهباً مع إعطاء كل حرف مخرجه، وبذلك يشد المصلين إلى قراءته ويبعث فيهم النشاط والحيوية فلا يشعرون بالملل من طول الوقوف وبعضهم خلاف ذلك فيدب الملل إلى نفوس المصلين وربما تسلل النعاس إلى جفون بعضهم، وبعد كل تسليمة تدار فناجين القهوة العربية وكؤوس الشاي التي تطرد النعاس وتبعث النشاط بالمصلين، كما تدار مباخر الطيب «العود القماري» وكذلك رشاشات العطر التي يتطاير رذاذها على المصلين

(١) رياض الصالحين، ص ٤٠١.

مجددة فيهم النشوة والتحفز لمواصلة الصلاة إلى آخرها وبين التسليمة الأولى والثانية يقرأ الامام شيئاً من الأحاديث المحتوية على التذكير وفضائل ليالي العشر الأواخر من شهر رمضـان والحث على تحري ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، والتي يتوقع أن تكون في الوتر من العشر الأواخر وترجيح كونها ليلة سبع وعشرين وبعد التسليمة الثانية يبدأ الناس بتلاوة القرآن الكريم ثم بعد التسليمة الثالثة والرابعة يقرأ الإمام شيئاً من الأحاديث كما سبق وبعد التسليمة الرابعة يصلي الشفع والوتر وتنتهي صلاة القيام، قبيل الفجر بحوالي نصف ساعة ويولي الناس عناية فائقة في تلاوة القرآن الكريم في شهر رمضان المبارك وتعقد حلقات التلاوة بالمساجد والمنازل فيجتمعون في مجموعات قد تصل المجموعة إلى عشرة أشخاص في العشرين ليلة الأولى منه تجتمع هذه المجموعة بعد صلاة التراويح مباشرة بمنزل أحدهم بالدور كل ليلة عند واحد منهم لفترة من ٢ ــ ٣ ساعات يتدارسون فيها القرآن الكريم وذلك بـأن يقرأ أحـدهم والباقـون يتابعـونه بمصاحفهم ويصححون أخطاءه إن وجدت ثم ينقل الدور للثـاني والثالث وهكذا، ويمكن أن يختموا القرآن الكريم من ٣ ــ ٥ ليال ويجدون روحانية لا مثيل لها في تلاوته، يقدم لهم مضيفهم ما تيسر له من طعام أو فاكهة مع القهوة والشاي، والفرد في شهر رمضان يختم القرآن العزيز بمعدل من ٥ ــ ١٠ مرات وربما أقل من ذلك أو أكثر، والواقع أن شهر رمضان يطبع الناس بطابعه الروحي الذي يألفونه ويلتصقون به ولا يكاد يغادرهم إلا وتذرف الدموع على فراقه الذي قد لا يعود على بعضهم في العام القادم، فيود لو استمر رمضان شهوراً تمتد فيها هذه الفترة الروحية، وبعد شهر رمضان يصوم البعض ستا من شوال استجابة للأحاديث الصحيحة «أن من صام رمضان واتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر كله»[١].

وفي ليلة سبع وعشرين من رمضان وهي ليلة القدر حسب ترجيح معظم الأحاديث ترى الناس مشدودين إلى خالقهم الكل رافع يديه إلى السماء متضرعاً

---

(١) الترغيب والترهيب، ج ٢، ص ٢٣٥.

إلى ربه يغفر ذنوبه ويقبل توبته ولا يحرمه لقاء وجهه الكريم في فسيح جناته، فالناس مشغولون عن الدنيا وملذاتها، يتصدقون بشيء من أموالهم على الفقراء والمساكين في هذا المجتمع الذي يعيش تحت ظل تكافؤ الاسلام وفي ليلة القدر بقرب المساجد تسمع نشيج الشيوخ ونحيز العجائز وتهدج أصوات الشباب من خشية الله طالبين مغفرته ورضوانه بالنجاة من النار والفوز بالجنة خاصة عند دعاء ختم القرآن في نهاية صلاة القيام قبيل أذان الفجر أي حوالي الساعة الثالثة والنصف صباحاً، ويختم الناس أعمالهم الخيرية لشهر رمضان باداء زكاة الفطر وهي صاع من طعام على كل فرد صغير أكان أو كبيراً ذكراً أو أنثى تعطي للفقراء قبيل الذهاب إلى صلاة العيد أو قبله بيوم.

□ الاعتكاف في المساجد:

عن عمر رضي الله عنهما: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان»[1].

في شهر رمضان نجد فئة من الشيوخ ينقطعون عن الدنيا ومادياتها ويعتكفون بالمساجد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون لهم بجانب المسجد غرف ينامون بها وقت النوم ويرتاحون بها بعض الوقت، ويؤتى لهم بطعامهم وشرابهم وفرشهم في هذه الغرف، فنجدهم معظم وقتهم وقوفاً يصلون أو جلوساً يتلون القرآن الكريم أو يتذاكرون الحديث ويستنبطون من معانيه ويعتبرون بأحكامه مما يشدهم بخالقهم، تربطهم المحبة لبعضهم وتظللهم السكينة وتغشاهم الرحمة، يلبسون ملابس تدل على تقشفهم، هذا الانقطاع لا يرجون منه إلا رحمة ربهم ورضوانه وجنة عرضها السموات والأرض، يصلون مع الناس وقت صلواتهم وعندما يخرج الناس من المسجد يعودون إلى مكان اعتكافهم في الجزء المخصص لهم من المسجد.

---

(١) رياض الصالحين، ص ٤٢١.

وتكثر هذه الجماعات أو تقل حسب توافر عدد الراغبين في الاعتكاف أو اتساع المكان المخصص لهذه الفئة، وقد يكون من بين هؤلاء من غير الشيوخ أي من متوسطي السن وربما الشباب ممن هداهم الله لهذا العمل ووجدوا من يكفيهم مئونة بيوتهم خلال فترة غيابهم طيلة شهر رمضان.

☐ صلاة عيد الفطر:

يتوج الناس أعمالهم خلال شهر رمضان المبارك باداء صلاة العيد كما سنها الإسلام بمكان بارز بعد طلوع الشمس بقليل يؤديها الرجال والنساء غير أن النساء بصفوف متحدة خلف الرجال بمسافة معقولة وهي ركعتان وخطبة بعدها تحتوي على الموعظة والارشاد وطلب الاستمرار بالأعمال الصالحة في الأشهر المتبقية من العام وبعد اداء الصلاة وتبادل المعايدة حيث يقول الأول: عيدك مبارك فيرد عليه الثاني: عساك من عُوَادُهُ أو من العائدين الفائزين وكل عام وأنتم بخير مع الأدعية بالفوز والقبول للصيام والقيام وغيرها من الأعية المأثورة بعد ذلك يعود الناس من مصلاهم إلى البيوت ليجدوا الفرش قد مدت بالشوارع وصفت فوقها الصواني التي تحتوي على كل ما لذ وطاب من الأكل لعدة أصناف من الأطعمة المحلية كالهريس، والجريش، والقرص، والأزر، وغيرها، تتوجها الخراف الناضجة أو قطع اللحم المستوية، يوشي أطراف تلك الصواني البيض المسلوقة أو فصوص البصل المطبوخ، أو شرائح الباذنجان والقرع، مع حبوب اللوبيا وقطع البصل النيء المتناثرة بين طيات القرصان، وما تم ذره على الأكل من أصناف البهارات والتوابل التي تعطيه نكهة وجاذبية ممتازة، وبعد تبادل المعايدة من الجميع، والتي تمثل قمة التسامح والتآلف والتآخي بين كافة الأفراد صغيرهم وكبيرهم، وتعطي مجالاً للتسامح بين الذين قد يكون في نفوسهم شيء لبعضهم على بعض فإن العيد كفيل بأن يمحو هذه الادران، وذلك عندما يتبادلون التحية المباركة والقبلات على مرأى من الحضور ومن هذا يزول ما في نفوسهم من المكدرات، وبعد ذلك يشرع الناس في الأكل من هذه النعمة الموضوعة للجميع، للغادي والرائح وعادة يكون لأهل كل حي

أو نزل أو شارع مجمع بارز بالشارع يجتمعون فيه لتناول طعام العيد يتوارثه الخلف عن السلف، وطعام العيد يساهم فيه جميع المواطنين، كل يأتي بطعام العيد الذي أعدته زوجته ليلة العيد، وتهتم النساء اهتماماً بالغاً في طبخه طعام العيد وتبدي من التفنن والتجديد باضافة أشياء جديدة من الاصباغ والتوابل وأنواع الخضار ما يجعل طعام عيدها هو الأفضل، وربما قضت ليلة العيد كاملة في إعداد هذه الطبخة وبعد أن يفرغ الرجال من الأكل ويغتسلوا تنقل الصواني إلى داخل البيوت، ويمارس الشباب بعض الألعاب سنتعرض لها في موضوع المناسبات، أما الشيوخ فإنهم يتنقلون إلى المقاهي لتناول القهوة وتبادل الأحاديث التي تدور حول هذه المناسبة، أما النساء فإنهن كذلك يجتمعن لتبادل تحيات المعايدة ويحتفلن بالعيد سنتعرض لها في مناسبة أخرى. وأكثر من يهتم بالعيد بالدرجة الأولى النساء والأطفال، يليهم الشباب ثم الرجال فالشيوخ، وتفرح النساء والأطفال بالعيد فرحاً لا يماثله فرح حيث تعد النساء له العدة من الملابس الفاخرة والحلي الثمينة اللامعة، وتزيين الأكف بالحناء، واستخدام المشاط والرياحين والورود لشعورهن واستخدام أنواع العطور الزكية في جيوبهن وشعورهن وغير ذلك مما يظهر كل واحدة منهن مثلما وصفها الشاعر:

١٠٨ ـ باكر ضحي العيد ليا طقوا الزير
وما عندهم من غالي يلبسونه

١٠٩ ـ يطلع جيبي كالخلاصة من الكير
عيذه برب الناس لا ينحتونه

(ضاري الرشيد)

كما يفرح به الأطفال حيث تجدهم يرتدون الملابس الزاهية الألوان يتراكضون في الأحياء والشوارع وعلى كثبان الرمال تغمرهم الفرحة والسرور، ينقزون من مكان إلى آخر كأنهم الفراشات المتهافتة كما تمتد في هذا اليوم يد الخير إلى الأطفال الفقراء لتأمين الملابس لهم ليكملوا الفرحة مع أترابهم، أما الشباب

فيرتدون الملابس البيضاء الفضفاضة، ذات الأردان الطويلة منتظمين بأحزمة البنادق أو السيوف والخناجر المذهبة، أما الرجال والشيوخ فإن فرحتهم بالعيد معنوية أكثر منها مادية وينطبق ما يحصل في عيد الفطر على ما يحصل في عيد الأضحى، مع فارق بسيط وهو أن الناس بعد تناولهم لطعام العيد يتوجهون لذبح الأضاحي كل في بيته ويقضون جزءاً كبير من ذلك اليوم في ذبح الأضاحي وتجهيز لحومها وتوزيع جزء منه وطبخ جزء وتسيير الجزء الثالث ومزجه بالملح ثم تنشيفه ليصبح بعد ذلك قديداً لذيذاً، وهكذا نجد مناسبة الأعياد فيها من المعاني الروحية والمادية ما يفوق الوصف والحصر.

□ الصلوات الأخرى:

صلاة الاستسقاء وتؤدي عندما يتأخر نزول المطر عن وقته فيفزع الناس إلى خالقهم راجين ضارعين، ويبرزوا في مصلاهم ليؤدوا الصلاة كما سنها الاسلام في مصلى العيد وهي ركعتان بعدها خطبة تذكرهم بفعل الخير وتنهاهم عن الأعمال السيئات وتدعوهم إلى التوبة إلى الله والرجوع إليه وان يحاسب كل واحد نفسه فيها إذا كان قد اقترف ذنباً أن يتوب إلى الله ويستغفره عن هذا الذهب الذي جناه، ويدعو الامام والمصلون يرددون من بعده بانزال الغيث على عباده بالأقوال المأثورة التي تهز المشاعر وتؤثر في النفوس، وعند الانتهاء من الخطبة يقوم المصلون بقلب ما على ظهورهم من الأردية والعبي، دليلاً على تغيير النية والأوبة إلى الله بقلوب خالصة راجين من الله الرحمة والرضوان وإنزال المطر على عبادة وبلاده.

أما صلاة الكسوف أو الخسوف فيبدأ عند كسوف الشمس أو خسوف القمر ووقتها كما سنها الاسلام من وقت الكسوف أو الخسوف وحتى التجلي، يؤذن لها وينادي الصلاة جامعة ثم يجتمع الناس في المساجد ويصلي الامام أربع ركعات بتسليمة واحدة يقرأ بين كل ركعة وأخرى قراءة مطولة من القرآن الكريم عن السور التي تقرأ في هذه المناسبة ثم يسلم ويبدأ بقراءة الحديث

والموعظة بما يعود على الناس بالمصلحة في الدارين الدنيا والآخرة وفي هذه الأثناء يكون التجلى قد بدأ بالشمس أو القمر.

أما الصلاة على الميت فتتم جماعة بعد اداء فرض من الفروض أو تكون في وقت آخر حتى تجمع العدد الكافي وكان وقت الفرض بعيد وخشي على جثة الميت من التعفن في هذه الفترة وإن كان في البر فيصلى عليه الحاضرون معه وتتم الصلاة بأربع تكبيرات كما سنها الاسلام وقوفاً بدون ركوع ولا سجود يكبر الامام وإلى جانبه ولي أمر الميت التكبيرة الأولى يقرأ بعدها الفاتحة ويكبر الثانية ويقرأ بعدها ما تيسر من القرآن ثم يكبر الثالثة ويطيل ويدعو للميت بالعفو والمغفرة والرضوان ثم يكبر التكبيرة الرابعة يسلم بعدها تسليمة واحدة وتنتهي بذلك الصلاة وتحمل جثة الميت على نعش إلى المقبرة حيث يدفن مع مقابر المسلمين تحت رحمة ربه والقبور هنا حسب السنة الشريفة بدون قباب ولا حيطان وإنما تكون على وجه الأرض بارتفاع حوالي ٥٠ سم تراب القبر يكوم عليه ويوضع شاهدي القبر على سمت رأس الميت وقدميه ويكون الشاهدان أما من الحجر أو اللبن وهما بارزان فوق كومة التراب أما الميت فيدفن في لحد شق مائل في الجهة الأمامية من القبر يبنى عليه داخل الحفرة باللبن بحيث يبقى الفراغ بما يستوعب الجسد فقط وعلى عمق حوالي ١٢٠ ـ ١٥٠ سم تحت رحمة ربه عز وجل.

□ أداء فريضة الحج:

قال الله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾[1] صدق الله العظيم.

يؤدي الناس فريضة الحج مرة في العمر ويزيد على ذلك من يريد مبرة نفسه بأجر الحجة أو من يريد أن يحج عن أحد والديه أو أقاربه، ويبدأ التجهيز

---

(١) سورة الحج: آية ٢٧.

للحج بعد عيد الفطر المبارك، وذلك باعداد الراحلة التي يحج عليها واستكمال مستلزماتها من أَشِدَّةٍ وخرج، ودلو للماء ورشاء وقرب الماء وخيمة يتظللون فيها وغير ذلك من المستلزمات كما يقوم بتجهيز الزاد الخاص بالحاج من الجريش، والأرز، والتمر، والقرصان، والطحين، والسمن، والأقط، و«الكيليجا» و«الشعثا» والقهوة والشاي، يتم تجهيز هذه المستلزمات والمواد الغذائية حتى لا يأتي قبيل نهاية شهر شوال إلا وقد اكتمل كل شيء، وتبدأ رحلة الحج حسب بعد الأماكن أو قربها من مكة المكرمة ما بين ٢٠ عشرين من شهر شوال إلى الخامس من شهر ذي القعدة وتستغرق رحلة الذهاب إلى الحج من ١٥، ٢٠، ٣٠ يوماً، ولمغادرة الحجاج مناسبة قد تدخل في تاريخ المواليد ومواعيد المكاتيات التجارية وغيرها، ويحمل كل بعير بالاضافة إلى صاحبه، زاده الذي يساوي حمل البعير كاملاً من المواد الغذائية والمستلزمات السابق ذكرها وأحياناً يكون على البعير الواحد الحاج ورديفه وهي زوجته أو قريبته التي تريد أداء فريضة الحج معه، وأحياناً يمشي الشباب على أقدامهم بعض المسافة ليريحوا ركائبهم ثم يمتطونها مسافة مماثلة، وقد تطول مسافة المشي على الأقدام خاصة إذا كانت الابل هزيلة ويكتفي بحملها المتاع، ويكون لمغادرة الحجاج في كل مدينة أو قرية أو مضرب بادية صدى كبير ويوم مشهود يذكره الكبار والصغار معاً، وترى الناس بقرب الحجاج فمن متلهف يود الذهاب معهم لاداء فريضته، ومن يستعيد ذكريات حج سابق ويحن لمعاودته، ومن يزجى نصائحه للحجاج الجدد من واقع تجاربه في طرق الحج، ومن مودع لقريب لا يطيق فراقه، ومن متلهف على حبيب يخاف من عدم عودته، ومن معه الدراهم يريد أن يوصي أحد الحجاج لاحضار غرض من أغراضه من مكة، ومن يوصي أحد الحجاج على حاجة معينة دون أن يعطيه نقوداً فيرد عليه الحاج: «إذا توفر معي مبلغ فلا بأس من إحضاره، وفي هذا الموقف حدث المثل الشعبي المشهور «عز الله إن ولدك زَمَّر».

يقال إن مجموعة من المودعين يوصون أحد الحجاج بأن يحضر لصبي كل منهم «مزماراً» وعند عودته سيعطونه قيمة هذا المزمار ولما كان الحاج لا يملك

المبلغ الذي يغطي طلبات هؤلاء واستحى أن يصارحهم في ذلك كما أنه من غير الجائز أن يطالب أحد جماعته بعد العودة من الحج بقيمة المزمار الذي لا يتجاوز ثمنه ريال واحد لذلك أجابهم بكلمة طيب، وعندما تقدم منه أحدهم وأعطاه ريالاً وقال: من فضلك أحضر لولدي مزماراً، فرد عليه الحاج «عز الله إن ولدك زَمَّر»، فذهبت مثلاً بين الناس.

وبعد الوداع الطويل المؤثر بين الحجاج وذويهم، الرجال والنساء والأطفال تبدأ رحلة الحج الطويلة الممتعة، ويضرب الحجاج طرقاً تتوفر فيها المياه من قرى وآبار حتى يتسنى لهم أن يشربوا ويسقوا رواحلهم وتمشي الابل الهويني بحيث لا يتعدى سرعة مشيها الذميل ذلك لأنها محملة وتتخذ الرحلة الترتيب التالي: في الصباح الباكر يمشون ما شاء الله حتى يأتي وقت الضحى الكبير حوالي الساعة العاشرة والنصف صباحاً ثم ينزلون عن الإبل ويقيدونها ويتركونها ترعى بقربهم ويسمون هذه المرحلة «مضحى» يتناولون فيه طعام الغداء حتى بعد صلاة الظهر بساعة ثم يحضرونها ويحملونها ويركبون عليها أو يمشون حتى قرب المغرب ثم ينزلون عنها ويقيدونها ويتركونها ترعى بقربهم حتى يظلم الليل ثم يجمعونها ويعقلونها ويضعون لها العلف وتسمى هذه المرحلة «معشى» ويحضرون عشاءهم وينامون في هذا المكان حتى يصلوا الفجر ثم يبدءون برحلتهم من جديد وربما مشوا في الليل فترة من الوقت وتسمى هذه الرحلة «مسرى» وهكذا حتى يصلوا إلى مكة وربما صادفهم بالطريق في «ريعان» الجبال الممرات الضيقة ناس من قطاع الطرق، يمنعونهم من المرور حتى يدفعوا لهم إتاوة معينة، وبعد أن يصلوا إلى مكة ويؤدوا مناسكهم يشترون احتياجاتهم من الهدايا التي سيقدمونها لأقاربهم من مكة المشرفة ويهتمون بصفة خاصة بهدايا الأطفال كالحلويات والحمص، والمزامير، والصافرات، والخواتم، والقلائد الخرزية، وغيرها مما سيوزعونه على الأطفال عند عودتهم والتي ينتظرها الأطفال بفارغ الصبر، وفي رحلة العودة يكون السير فيها أسرع ذلك لأن الابل أخف أحمالاً فلذلك تمشي الوَخْدِ والذميل بحيث تختصر المدة الزمنية بيوم أو يومين عن رحلة الذهاب.

وأحياناً تكون الأرض محملة والابل هزيلة فتستغرق الرحلة وقتاً طويلاً عما

أشير إليه قد تبلغ أربعين يوماً، وما إن يتباشر الناس بقدوم الحجاج بوصول البشير في أول شهر محرم أو منتصفه حتى تعم الفرحة القلوب ويدخل السرور إلى النفوس، وما إن يصلوا إلى أهليهم حتى تنتشي قلوب الأطفال بالفرحة، ويبدؤ وا بالطواف على الحجاج في بيوتهم للحصول على الهدايا «الحقاق» الحمص والحلوى الذي يكون له أثر كبير وقيمة عظيمة لدى الصغار وذكريات لا يمكن أن تنسى لديهم، ثم يتلوهم الكبار لتهنئتهم بسلامة الوصول والدعاء لهم بالقبول والتعرف أخبار رحلتهم وما صادفهم فيها، وينصت الناس عندما يبدأ الحاج بسرد قصة الرحلة الطويلة الشاقة الممتعة، ليستفيد الآخرون من أحداثها. وهكذا ينتهي، أداء فريضة الحج التي لها طابعها الروحي والمادي المميز الذي لا يماثله رديف آخر.

□ إخراج الزكاة:

قال تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتو الزكاة﴾ صدق الله العظيم[1]، تلبية لهذا النداء الالهي واداء للركن الثالث من أركان الاسلام يقوم الناس بزكاة أموالهم عند بلوغ النصاب ومرور الحول وبقية الشروط حيث تمتد يد الغني بجزء من زكاة ماله إلى كف الفقير المحتاج ليدفع عنه غائلة الحاجة والعوز، وليجعله يعيش عيشة كريمة في نفس الوقت يزداد مال هذا الغني نمواً مع إخراج زكاته في كل عام والزكاة هي احدى ركائز التكافل والتضامن الاجتماعي بين أفراد هذا المجتمع المتماسك الطيب ويختلف الناس في كيفية اخراج الزكاة فالبعض منهم يخرجها ويتولى توزيعها بنفسه يتحسس المحتاجين ويدفعها إليهم بحيث لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، والبعض الآخر يخرجها ويوزعها على مرآى ومسمع من الناس هذا فيما يتعلق بزكاة النقدين وعروض التجارة أما زكاة الثمار والأنعام، فإن زكاتها تجبى من قبل السلطة بالإضافة إلى ما يوزعه صاحب المال احتياطاً لابراء ذمته ويوزعها على أهل الزكاة الثمانية الذين وردت أسماؤهم بالآية

---

(١) سورة البقرة: آية ١١٠.

الكريمة ﴿إنما الصدقات للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل﴾[1].

وإذا نظرنا تأدية هذا الركن المفروض على أغنياء المسلمين لفقرائهم فاننا ندرك مدى اهتمام الاسلام بكافة طبقات هذا المجتمع، والأهم من ذلك هو أن الأفراد الذين ينفذون هذا الركن من الصدق والاخلاص وخشية الله ما يجعلهم يحصون جميع أموالهم سواء أكانت نقداً أو عروض تجارة أو ثماراً أو من بهيمة الأنعام ويخرجون زكاتها ويضربون الحيطة لأنفسهم بزيادة ما يدفعونه إذ ربما يكون هناك شيء قد غاب عن أذهانهم، بالاضافة إلى ما يقدمونه من الصدقات التي لا يعلمها إلا الله، زيادة على مساعدة المحتاج، وإطعام الطعام وغيرها من الخصال الحميدة، وهذا لا يعني أنه لا يوجد أحد ممن يتهاونون بتأدية هذا الركن الإسلامي الهام، أو من لا يحصون جميع أموالهم ولكن هؤلاء بحكم من شذ عن القاعدة العريضة التي يسير عليها السواد الأعظم من سكان هذه المنطقة.

□ الحِسْبة ـ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

تكوّنت الحسبة، هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في ضحى الإسلام لكنها لم تكن مرتّبة كما هي عليه في الوقت الحاضر، وإنما كان أعضاؤها حتى عهد قريب غير متفرّغين لهذا العمل، ويقومون به طواعية واحتساباً من عند أنفسهم بدون مقابل، هدفهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من قلب مخلص صادق لا يبتغي سوى ثواب الله طامعاً بجنّته، وكل ما يشغل نفسه أن ينقّي هذا المجتمع الطيّب مما قد يعلّق به من أدران، ويرشد الأفراد الشواذ فيه إلى الطريق القويم والصراط المستقيم، هدفه إلهي، ونهجه إنساني، وما دام هذا المجتمع البسيط النقي المطيع لأوامر الله، فبطبيعة الحال تكون حاجته من رجال الحسبة قليلة، وطالما أن الشخص القائم بهذا العمل

---

(١) سورة التوبة: آية ٦٠.

بدون أجر مادي إلا ما يعطى من الزكاة أو الصدقة كغيره من المسلمين إن كان في حالة عوز، فإن الذين يعملون بهذا الأمر قد يقلّ عددهم، وهم كما أسلفنا يعملون ابتغاء مرضاة الله من قلب صادق، ويتركّز عملهم الرئيسي في المدن، وهم مــن متــقدّمي السن ممّن يوثق بدينهم فتجدهم يجوبون الأسواق، يتّكىء كل واحد منهم على قضيب من الخيزران، في أوقات الصلوات يحثّون بعض الناس على المبادرة بالذهاب إلى المساجد لأداء الصلاة خاصة مَن يكون لديهم عمل تجاري أو مهني يمتد عملهم طيلة اليوم، وقد يحين وقت الصلاة وفي نفس أحدهم خصاصة للبيع أو الشراء أو محاسبة أحد زبائنه أو تكملة احتياجات الزبون، وقد يكون المسجد بعيداً عن السوق، بحيث لا يسمع الناس الأذان خاصة وأنه لا يوجد آنذاك مكبّرات الصوت، فمرور أعضاء الهيئة ونداؤهم في الشارع «الصلاة... الصلاة... يهديكم الله إلحقوا الصلاة» إيذاناً بإقفال الحوانيت والدكاكين، والتوقّف تماماً عن كل عمل والذهاب إلى المساجد وبعدها يستأنف العمل في الأسواق حتى موعد الصلاة الثانية، وبذلك نجد أن عمل هذه الهيئة متمّم للواجبات الدينية التي يتمتّع بها هذا المجتمع الطيّب. وعلى العموم فإن الواجبات الدينية بقيت كما هي عليه منذ فجر الإسلام حتى الآن لأن مصدرها واحد لم يتغيرّ، غير أنه طرأ عليها بعض التعديلات الطفيفة خاصة فيما يتعلّق بشعور الناس إزاء تأدية هذه الواجبات، وقد خفت القدسية التي يشعر بها أجدادنا الأوائل نحو أداء الواجبات الدينية وذلك بالاختصار من المظاهر التي تحدث آنذاك، إنما الجوهر باق كما هو عليه، وهناك انشغال الناس بالدنيا وماديّاتها شغل مجموعة من الناس عن أداء واجباتهم الدينية كما ينبغي، بسبب الأسفار والتنقّل من مكان إلى آخر، كما أن المخترعات الحديثة غيّرت كثيراً من ترتيبات بعض الواجبات الدينية كالحج مثلاً، ونسأل الله أن يحفظ دينه ويعلي كلمته وأن يهدي المسلمين لما فيه الخير والسداد، إنه سميع مجيب.

□ □ □

الفصل العاشر:

الأخلاق

□ الكـــرم:

الكرم هو إحدى الخصال الحميدة التي لازمت الإنسان العربي منذ فجر التاريخ، والكرم صفة من صفات الله جلّ وعلا التي خصّ بها الإنسان العربي من بين كل الشعوب، فهذه الخصـلة هي ظل الله المنعكس عليه، ومنذ أقدم العصور والعرب مشهورون بالكرم، شاهدنا ما تزخر به الكتب من قصصهم لدرجة لا يصدّقها من لم يعش في نفس بيئتهم، ويشاهد بأم عينه ما يحدث من ضروب الكرم عندهم، ولا سيما الكرم مع الحاجة والعوز التي تجعل جذور هذه السجية الراسخة، تمتد إلى أغلى ما يملكه الإنسان حتى ولو كان ذلك يترتّب عليه فقدان وجوده على هذا الكون، ومنهم الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ولو استعرضنا كتب التاريخ لوجدناها تغصّ بأخبار الكرم والكرماء، وعلى قمة هذا الهرم الكريم المشهور حاتم بن عبد الله الطائي، في الشمال الغربي من هذه البقعة، وغيره كثير من بني شيبان، وذبيان، وتميم وقريش وغيرهم من الأرومات العربية، حيث قيل: «انتهى الكرم في الجاهلية إلى ثلاثة نفر حاتم الطائي، وهرم بن سنان، وكعب بن أمامة الأيادي»[١]، ولنصغي الى قمة هذا الهرم يتحدّث عما اشتهر به بعد أن اتّخذ قراراً أنه سيعتق كل واحد من مملوكيه عندما يتسبّب في استقدام ضيف ليطعم من قراه، حيث قال:

---

(١) مشاهير كرماء العرب ١٥٨.

أوَقــد فــان الــليـل لــيـل قــر
والــريــح يــا مــوقــد ريــح صــر

عــلّ يــرى نــارك مــن يمــر
إن جـلبـت ضـيـفـاً فـأنـت حـرّ

(حاتم بن عبد الله الطائي)

ولنستمع إليه أيضاً في الأبيات التالية التي تعكس روعة هذه الخصلة الحميدة، حيث يقول:

أمــاوي إن المــال غــاد ورائــح
ويبقى من المال الأحـاديث والـذكـر[1]

أمــاوي إني لا أقــول لــســائــل
إذا جــاء يومـاً حلّ في مـالي النـذر

أمــاوي إن المــال مــال بــذلــتــه
فــأوّلــه شــكــر وآخــره ذكــر

وقــد يعلم الأقــوام لــو أن حــاتمــاً
أراد شــراء المــال كــان لــه وفــر

(حاتم بن عبد الله الطائي)

والآخر يقول:

وإنّــا لنقـري الضيف قبــل نـزولــه
ونشبعـه بـالبشـر من وجـه ضـاحـك[2]

(عاصم بن وائل)

---

(١) مشاهير كرماء العرب ١٦٢.

(٢) كرماء العرب.

كما نجد هرم بن سنان تلك القمة السامقة بالكرم وهو ممدوح الشاعر الحكيم زهير بن أبي سلمى وقد آلى على نفسه ألّا يقول فيه شعراً يكلّمه زهير إلا وأناله من عطاياه السخيّة حتى ولو كان ذلك الكلام تحيّة الصباح، مما حدا بالشاعر إلى أن يستثنيه من تحية الصباح بأسلوب رائع جميل، وذلك حياء منه واتّقاء عطاياه، حيث يقول: «عمتم صباحاً عدا هرم وخيركم استثنيت» وهو الذي مدحه بمدائح كثيرة منها قوله:

قد جعل المبتغون الخير في هرم
والسائلون إلى أبوابه طرقا

إن تلق يوماً على علّاته هرما
تلق السماحة منه والندى خلقاً[1]

لو نال حي من الدنيا بمكرمة
وسط السماء لنالت كفّه الأفقا

(زهير بن أبي سلمى)

وقال أيضاً:

فلو لم يكن في كفّه غير نفسه
لجادبها، فليتّق الله سائله

(زهير بن أبي سلمى)

ودوحة هذا صنوها حرى بها أن تحمل فروعها نفس الصفة ولا غرو في ذلك، فقد قيل: «هذا العود من تلك الشجرة» وقد صار الكرم سجية مميّزة للعرب والحديث عن الكرم والكرماء يطول ويطول مما يملأ مجلّدات، غير أن ما يخصّ موضوعنا هو التعرّض لهذه الخلة في نطاق بحثنا بصورة موجزة تعطي انطباعاً صادقاً عن ظلّها وانعكاساها على هذه البيئة، ولو ألقينا نظرة فاحصة

(١) ديوان زهير ص٤٣، ٧٢.

لوجدنا تقاسيمها الواضحة على محيّا الغالبية العظمى من أفراد ذلك المجتمع، نجدها في الترحيب بالضيف البعيد والقريب، نجدها في البشاشة التي تعلو محيّا المضيف، نجدها في كلمات الترحيب الحلوة المؤثّرة الجيّاشة بالمعاني السامية التي تنطلق من لسان المضيف عندما تصل الركاب إلى مناخته، وعليها الضيوف قد لفح وجوههم البرد ليتلقّاهم هذا المضياف، ليبادئهم بالترحيب والبشاشة بما أشار إليه الشاعر:

١١٠ ـ أطمـر لهم وأبـدي سـلام المحبـة
ليـاجـو عـلى هجن يـديهم خـرابى[١]

١١١ ـ بنسـريـة يـا كليب صلف مهبّـة
مـتكـنفـين وسـوقـهم بـالـعـقـاب

(دغيّم الظلماوي)

نجدها في البذل السخي وتقديم القهوة للضيوف مع الدفء الذي يزيح عنهم لسعات البرد القاسية، ثم تقديم الزاد على تلك الصواني الضخمة المتوّجة بالخراف الناضجة وهي خير ما يتمنّاه ابن هذه البيئة، حيث يقول:

١١٢ ـ طـرابـة الـدنيـا معـاميـل وأفـراش
وصينيـة يـركض بهـا العبـد مسعـود

(مشعان بن هزال)

نجدها في العطاء السخي للعاني المحتاج بعد إكرامه بالطريقة السابقة لمدة ثلاثة أيام بلياهن، وهذا العطاء الذي يبذله العربي دون مواربة أو حساب أو سابق معرفة بالضيف، كما تحدّث عنها الشاعر بقوله:

١١٣ ـ كم خـيرّ عـان لنـا يشكي الجـوع
حـاديـة من لـوعـات الأيـام حـادي[٢]

---

(١) الأزهار النادية ص ٩٦؛ شوارد ص ٦٩.
(٢) نبذة تاريخية عن نجد ص ٩٩.

١١٤ ـ لو ما نعرفه راح منا بمطموع
من راس مال نجمعه للنفادي
(عبد الله الرشيد)

نجدها في المضيف المفتوح على مدار السنين للغادي والرائح البعيد والقريب، الطوارق بالليل وقد أتعبهم السرى وحداهم البرد يلجأون إليه ليجدوه دائمًا مفتوحاً، حيث المأوى والدفء والطعام مدة إقامتهم، فبابه:

١١٥ ـ أمبرهج تسفي عليه السوافي
من خلقته ما طق في ركزة السيف[١]
(زيد الخوير)

نجدها في الإيثار على النفس وتقديم الطعام للضيوف مع الحاجة إليه في بعض الأحيان وخاصة في سنين الجدب:

١١٦ ـ إن جن مع الخل الشمالي دعاثير
عجلين باليمنى نخضب ركابه[٢]

١١٧ ـ إن وافقت حطّيت كبش على مير
وإن عاضبت يكفيه قولة هلابه

١١٨ ـ وسويت فنجال بعوج الدناقير
خطر على العذرا تمنى خضابه

١١٩ ـ إن شفه الطرقي بلج بلجة الطير
يزين وجهه عقب وسم الخلابه
(عيادة بن عبيكة/ أم القلبان)

---

(١) الأزهار النادية ص ٩٢.
(٢) الشوارد جـ٣، ص ٢٥.

وآخر يقول:

١٢٠ ـ وعيبك ليامن قالوا الناس بك عيب
للسمن فـوق مفـطح الحيـل صبـاب

١٢١ ـ وذبح الغنم والكوم حرش العراقيب
وأعـطا المهار وبـذل مال بـلا حساب

١٢٢ ـ وغـرا تجـره للعـدا والأجـانيـب
تفجـا بها غـرات ضدك بـالأسبـاب

(خضير الصعليك)

نجدها في هذه الصورة المجسّمة الطافحة بالمعاني الكريمة:

١٢٣ ـ ولا يـد تجـود إلا عـزيـزة
ومن جـاد سـاد وكفّ يمنـاه غـالبـة[١]

(راشد الخلاوي)

هذه الانعكاسات التي شاهدناها هي قليل من كثير من ملامح الكرم المتأصّل بهذه البيئة للجار القريب وللضيف العاني من مكان بعيد أو قريب، وبالطبع تختلف درجات الضيوف حسب مقام كل منهم وذلك غير ما هو عادي، فالضيف العادي هو مَن يقدّم له الزاد وعليه ذبيحة واحدة وربما ما تيسّر في بعض السنين، أماالضيف غير العادي فهو ما يذبح له اثنتان أو ثلاث إلى عشر ذبائح له ولمرافقيه، وربما كان شيخاً فتُنحر له الإبل إلى جانب الخراف، مما قد لا يصدّق بهذا الوضع من لا يعرفه، حيث يقدّم الصواني الضخمة التي توضع الجزر عليها بكاملها باركة كما لو كانت على الأرض، غير أنها مطبوخة ناضجة تحيط بها الخراف الناضجة كأنها البيض المسلوق، وهذا النوع من الصواني مركّب على عجلات تدفع دفعاً لعدم المقدرة على حملها، وتوجد مثل هذه الصواني عند مشاهير الكرماء والشيوخ، أما الصواني التي يقدّم بها للضيوف فهي

(١) راشد الخلاوي ٢٥٩.

ما تحمل ذبيحة أو اثنتين أو ثلاثاً مع ما تحتها من الطعام الموجود، وبالإضافة إلى الطعام والشراب من الألبان بأنواعها، يقدّم للضيف الفراش والغطاء في ليالي الشتاء الباردة، ووقود النار التي يصطلي عليها الضيوف، كما تُقدّم القهوة العربية وهي أول ما يذوقه الضيف عند مضيفه، وتلقى القهوة مكانة خاصة عند العرب سنتعرّض لها في مكان آخر إن شاء الله، كما يُقدّم التمر وغيره من الأطعمة التي تتوفّر لدى المضيف أو ما تنالها حباله، كما أشار إليه الشاعر:

الضيف قدّم له هلاحين يلفيك
ومما تطوله يا فتى الجود يمناك[1]
(الشريف بركات)

لا يُسأل الضيف عن أخباره أو عن مدة إقامته لديهم حتى يدلي هذا الضيف بهذه المعلومات، ويُعتبر سؤال الضيف عن هذه الأمور نوعاً من التدخّل في شؤونه غير مستحبّ حيث يقول الشاعر:

١٢٤ ـ تر ضيفنا ما نتبعه بالتناشيد
ولا ننشده يا كود ينشد حدينا[2]

١٢٥ ـ شيمة عرب ما نردّد الحكى ترديد
حنّا نعرف الهرج لو ما حكينا
(فرج بن خربوش)

□ الشجاعة:

الشجاعة هي التصميم والإصرار مع الإقدام بعقل في موقف حاسم مع العد ولا خيار فيه لأحد، وهي إحدى الصفات التي يتّصف بها العربي منذ أقدم

---

(١) الأزهار النادية ص ٨٢.
(٢) الشوارد ١٩١.

العصور، وهي الكامنة في جنانه تدفعه إلى خوض المعارك وتجشم الأحوال وزدراد المحن تحت أي ظرف من الظروف، ومنذ فجر التاريخ وهو يتّصف بهذه السجية لا يحيد عنها قيد أنملة، ولو أردنا التوسّع في هذا الموضوع لما استوعبه سفر كامل لاحتواء ماكتب عن هذه الصفقة في الزمن الماضي، لكن نكتفي بالقليل المفيد الذي يعكس لنا معالم تلك الخلّة في هذه البقعة منذ أقدم العصور، شاهدنا في ذلك قول أحد أبنائها:

إذا سيد منا خلا قام سيد
قؤول لما قال الكرام فعول[1]

وأيامنا مشهورة في عدونا
لها غرر معلومة وحجول

(السموءل بن عاديا)

كما تغنىّ الآخر في إحدى المعارك بقوله:

وفي يوم المصانع قد تركنا
لنا بفعالنا خبراً مشاعاً[2]

أقمنا بالذوابل سوق حرب
وصيّرنا النفوس لها متاعاً

حصاني كان دلّال المنايا
فخاض غمارها وشرى وباعاً

(عنترة بن شدّاد)

---

(١) جواهر الأدب ص ٢٧٣، ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) المجموعة العملية ص ٣٦.

أما الثالث فيدوي صوته بهذه النغمة الفاصلة إذ يقول:

فنحن أناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر[1]

تهون علينا في المعالي نفوسنا
ومَن يخطب العلياء لم يغله المهر
(أبو فراس الحمداني)

من هذه الشعلة المتّقدة ينفذ الضوء والحرارة في شعاع خلّاب ليستقرّ بسويداء قلوب أبناء هذه البيئة المعنية بالبحث، فنجد صورها هنا وهناك تتسابق نحو المعالي لا تبالي بما يترتّب على ذلك من العواقب، تجد الفرد يعتّز بشجاعته لا يثنيه عن عزمه عاذل، ولا يمنعه عن تحقيق هدفه متطاول وكأن لسان حاله يقول:

١٢٦ ـ أكفخ بجنحان السعد لا تدرا
فالعمر ما ياقاه كثر المداري[2]

١٢٧ ـ يوم إن كل من عميله تبرا
حطيب الأجرب لي عميل مباري

١٢٨ ـ رميت عني برقع الذل برا
ولا خير فيمن لا يدوس المحاري
(تركي بن عبد الله آل مسعود)

ويصف تحمّله للحرب وأواها بقلب كالصخر، حيث يقول:

---

(١) جواهر الأدب، ص ٢٧٣.

(٢) المجموعة البلهية، ص ١٣٦.

١٢٩ ـ فإن كان هو ركب الرشا للمحالة
واستثقلت ما أنا من الحرب ملال[(١)]

١٣٠ ـ أصبر كما تصبر رواسي جباله
ما تنهزع من وطى حافر ونعال

(عبد الله العلي الرشيد)

كما وصف اندفاعه على خصمه بإصرار وتصميم إذ يقول:

١٣١ ـ كفّه بعدوانه شنيع المضاريب
ويسقي عدوّه بالوغى سمّ ساعة[(٢)]

١٣٢ ـ ويضحك ليا صكت عليه المغاليب
ويلكد على جمع العدو باندفاعة

(شالح بن هدلان)

كما يصف الكر والفر في المعارك إذ يقول:

١٣٣ ـ نركب على اللي كنهن الشنينا
خيل الصحابة ما اعترضهن حصانا[(٣)]

١٣٤ ـ والموت عند أقطيهن وإن حدينا
وبيسرع ردّ أو جيههن مع قفانا

(سعدون العواجي)

كما أشار الثالث إلى نفس المعنى بقوله:

---

(١) نبذة تاريخية عن نجد ص ١٠١.
(٢) أبطال من الصحراء ص ١٩٣.
(٣) أبطال من الصحراء ص ٦٣.

١٣٥ ــ وإن شفتهن يـقـفـن تـراهـن مقابيل
لهـن عـنـد المـلزمـات نـقـلابـه[٤]
(عبيد العلي الرشيد)

كما يصف الصمود في المعركة حامية الوطيس بقوله:

١٣٦ ــ من صـلاة الضحى يا قـابل التـوبة
لـين غـابت وحنـا هـوش وإقتـال[١]

١٣٧ ــ يـوم لحق الأمـير ولحقت الشـوبـة
لا قـرايـا ولا مـزبـن ولا جـالي

١٣٨ ــ يـا عمـار بسـوق المـوت مجلوبـة
مـا حسبنا عـلى الـدنيـا لنـا تـالي

١٣٩ ــ الكـرم سـاعـة لا حـل مـا جـوبـه
والمـعـاسـر لهـا حـزات وارجـالي
(غنيم العارضي)

هذه الانعكاسات من الشجاعة الفعلية يصاحبها رونق من الشجاعة الأدبية أيضاً، ويتّصف بهذه الصفات معاً السواد الأعظم من أبناء هذه البيئة، كلّ حسب إدراكه لمعانيها العميقة وتحمّله لخوض غمارها الخطرة وما يواكب طموحاته، وقد أودت بحياة صفوة ممتازة من أولئك الأبطال الذين عشقوها وتركوا لنا الأذكار العطرة التي يفوح شذاها منذ تلك الحقب البعيدة وإلى ما شاء الله، وسوف يتمكّن أحفادهم من تحرير ثالث الحرمين الشريفين من براثن الصهيونية اللئيمة بحول الله وقوّته.

---

(٤) الأزهار النادية ص ٦٣.

(١) آدابنا الشعبية ص ١٥٥.

◻ المـــروءة:

والمروءة هي إسداء المعروف وهي والكرم صنوان نبتا من أرومة واحدة، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وتوجد صعوبة في التمييز بينهما للتداخل الحاصل بين السجيتين، إلا أن المروءة بذل المعروف بدون طلب، والكرم هو تقديم الطعام بدون طلب أيضاً. وقد أشار الأحنف بن قيس إلى ذلك بقوله: «ما ادّخر الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الإحسان» كما لم يغفل الشاعر الحطيئة هذه الخصلة الحميدة من الإشادة بها إذ يقول: من يفعل الخير لا يعدم جوازيه، لا يذهب العرف بين الله والناس، وقد امتدح سيد كرماء العرب هذه السجية بقوله:

ومـا تشـتـكيـني جـارتي غـير أنها
إذا غـاب عنهـا بعلهـا لا أزورهـا[1]

سيبلغهـا خيـري ويـرجـع بعلهـا
إليهـا ولم يقصـر عليهـا ستـورهـا

هؤلاء الآباء والأجداد تركوا خلفهم أحفـاداً ساروا عـلى نهجهم في الصفات الحميدة وحرصوا على التمسّك بهذه الخلال الممتازة، يرثها الخلف عن السلف، يوصي بها الشيخ أحفاده حتى وقتنا الحاضر لا يزعزعها مزعزع كما أشار إلى ذلك ابن هذه البيئة:

١٤٠ ـ ومـن جبـلات مـن الله حـظّهـا
تـزول الـرواسي والجبـلات نـاصبـة[2]
(راشد الخلاوي)

ولو أردنا الدخول في تفاصيل الموضوع لأصبح من الصعب حصره إلا

---

(١) كرماء العرب ص١٦٢.
(٢) راشد الخلاوي.

بمجلّدات كبيرة، لكننا نقتصر على الموجز المفيد الذي يعطي فكرة مبسّطة عن هذه الخصلة المتأصّلة في الإنسان العربي على مدى قرون طويلة والذي نتكلّم عن جزء من موطنه الآن في فترة سابقة، دعنا نطلّ على هذه البيئة الوادعة لنرى صدى المروءة يرتسم على تلك الوجوه الطافحة بالبشر وحب بذل المعروف قولاً وعملاً لغير طالبيه، فضلاً عن مريديه، يتسابقون إلى ذلك نحو القريب والبعيد، ويتفاخرون باقتناص الفرص التي يتمكّنون من خلالها بذل المروءة لمن يستحقّها، كلّ بقدر استطاعته وما تسنح له من ظروف، وقد تسرّب حب إسداء المعروف في أعماقهم وجرى في دمائهم فهو إذاً جزء من كيانهم، وترى الناس وقد أثّرت فيهم هذه الصفة أثراً عميقاً، نحو جيرانهم الأقربين، وفقرائهم المحاذين وعلى أطفالهم ونسائهم الملتصقين بهم، ونحو أنفسهم بالذات، يرى الرجل عوراء جاره أو قريبه وربما البعيد عنه فتمنعه مروءته أن يجازيه بمثلها أو أشدّ منها مع مقدرته على ذلك إذ أنه يتمثّل بقول الشاعر:

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره
وأعرض عن ذات اللئيم تكرّما
(حاتم بن عبد الله الطائي)

يكبت أحاسيسه، ويحطّم كبرياء نفسه، تحت ضغط المروءة والمعروف، يجازي المسيء إحساناً تمشّياً مع خط المروءة العريض الذي يسير فيه، ولسان حاله يقول:

١٤١ ـ الإحسان يا بن عبيد يجزي بالإحسان
والشر تنطحه الوجيه الشريرة
(راكان بن حثلين)

هذه الصورة الموجزة البسيطة تعطينا انطباعاً واضحاً عن تعمّق هذه السجية في نفوس أبناء هذا المجتمع المترابط بمجموعة من الخلال الحميدة التي نحن بصددها.

□ الشهامة:

وجد الإنسان العربي على تراب هذه الجزيرة منذ آلاف السنين شهمًا كريماً مرفوع الرأس شامخ الأنف عزيز النفس، يأبى الضيم من أي كان، لم يقف مهيض الجناح ازاء أي منازع وان سيم خسفا فإنه لا يبالي بالعواقب، فإما أن يحيا حياة عزيزة أو أن يموت ميتة كريمة لا يوجد لديه حل وسط هذا الخلق لازمه منذ تلك الحقب الغابرة وحتى الوقت الحاضر وإذا تجاوزنا تلك العصر الخوالي وسلطنا الضوء على مدار بحثنا في هذه البقعة المحدودة من بلادنا وجدنا هذه الخلة كما هي عليه، يتغلغل جوهرها في الأفراد العاديين ويبلغ عنفوانها في علية القوم، كل إنسان حسب استيعابه ودرجة اعتزازه بنفسه وقوة تنفيذه وهي مجال للفخر والمباهات، وكل ينظر إلى تلك القمم السامقة في هذا المجال ويصبو أن يحاذيها أو يقرب منها وكأن لسان حاله يقول:

وأيـام لـنـا غـر طـوال
عـصينـا الملك فيـهـا أن نـليـنـا

(عمرو بن كلثوم)

تتضح هذه الشهامة في احترام الجار، والضعيف، والمستجير والضيف، فضلاً عن القريب والرفيق بكل ما تعنيه هذه الكلمة والذود عنه بكل الوسائل، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه تنعكس معالمها على وجه الفرد عندما يسمع كلمة تمس كرامته أو كرامة من يعنيه أمره كرفيق السفر الذي يقول فيه الشاعر:

١٤٢ ـ أحشم خـويك عن دروب الـرزالة
ترى الخوى عنـد الأجاويـد له حـال(١)

١٤٣ ـ والمـرجلة بـالـك تـرخى حبـالـه
حـذرا تعيـل ولا تـراخى لمن عـال

---

(١) الشوادر، ص ١٥١.